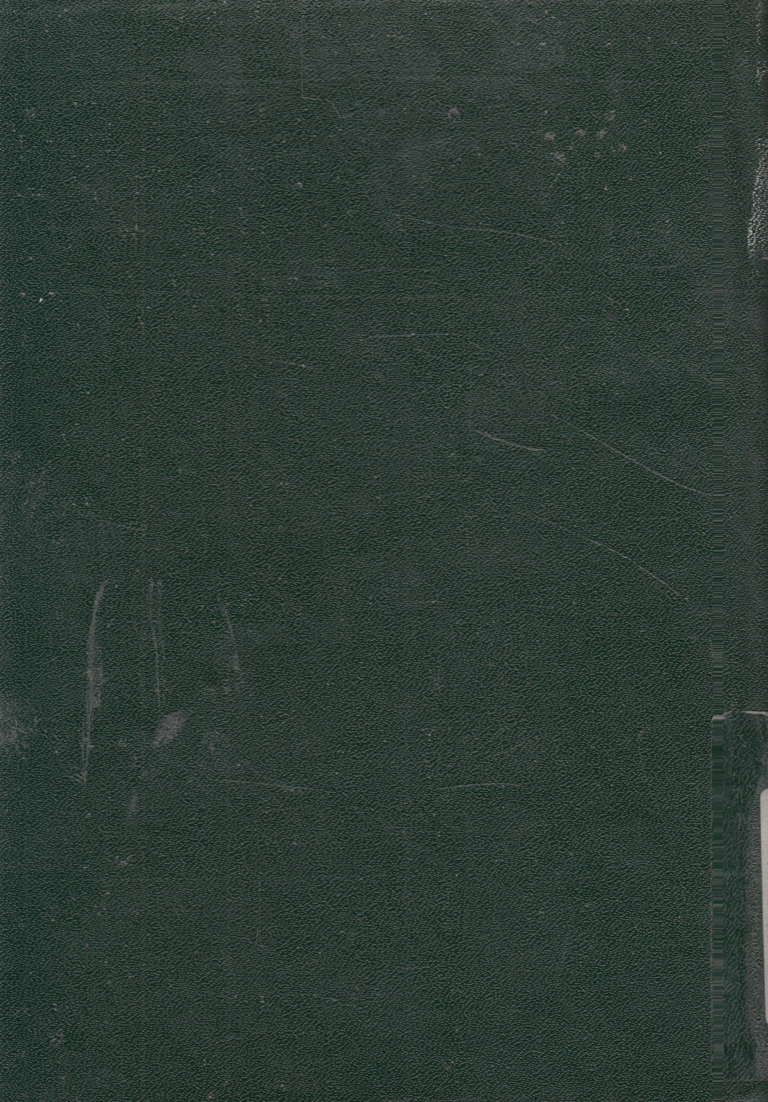


الألف كتاب ٦٤٧



أثره وفائدته

بإشراف
الهيئة العامة للكتب
والأجهزة العلمية

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب



تأليف

أ . ل . راوس

ترجمة
مجد الدين حفني ناصف

مراجعة
الدكتور محمد أحمد أنيس

الناشر
مؤسسة سجل العرب
بإشراف الأستاذ الدكتور إبراهيم عبده
٢٦ شارع شريف باشا - القاهرة
تليفون ٤٩٩٩٦ - ٥٢٣٠٩

هذه ترجمة كتاب :

THE USE OF HISTORY

تأليف :

A. L. ROWSE

محتويات الكتاب

مقدمة

قصارى الغرض من هذا الكتاب أن يكون عملياً إرشادياً . وقد خطط له بحيث يكون فى وقت معاً يحتذى فى دراسة التاريخ ، وتقصياً لفوائده ومفاتينه ، ورسالة تعلم الناس كيف يقرءون التاريخ .

ومع أنى رميت إلى أن أكون عملياً فى كل شىء فإن المؤرخ لا يسعه أن يكتب كتاباً يفصح فيه عن حقيقة ما يعتقده فى الموضوع الذى يعالجه دون أن يوضح بعض الانعكاسات ويتطرق إلى بعض القضايا المعنوية ، وهذه تتركز بصفة خاصة فى الباب الخامس . وإذا ألفى القارىء هذا الباب ، لدى القراءة الأولى — غير متجانس إلى حد كبير فما عليه إلا أن يتجاوزه ويوالى القراءة حتى النهاية ثم يعود إليه فى وقت فراغه ، فهو يحوى خلاصة ما علىّ تقديمه فى صدد موضوع صعب هام .

وهذا الكتاب ، على إيجازه ، يؤلف بين تجاريب عدة سنوات من التدريس والمحاضرة والتفكير والكتابة فى الموضوع . وبعد قرابة عشرين عاماً من وضع هذا الكتاب راجعته مراجعة شاملة مضيفاً إليه هنا وهناك،واضعاً نصب عينى أن أجعله ملائماً للعصر الحاضر وافياً برغبات القراء الإنجليز والأمريكيين .

ا . ل . راوس

نيويورك ـ كوين ماوى
أبريل من سنة ١٩٦٢

الباب الأول

ما فائدة التاريخ ؟

عندما كنت صبياً بالمدرسة كان السؤال الذى يتكرر فى كل حين هو : « ما فائدة التاريخ » ؟ وقد بدا أن أحداً ليس لديه عنه أى جواب . (ولو أن المدرسة أحسن مما كانت بقليل لجاءت الإجابة على ما يرام ، إذ توجد — كما آمل أن أبين لكم — إجابة عن هذا السؤال مقنعة كل الإقناع تصلح أن تكون مثالاً شاملا لهدى دراسة التاريخ) .

على أن أحداً لم يخامره أدنى شك فى فائدة العلوم . فقد طبع نفعها على وجه موادها . ولقد كان فى وسعك أن تصبح كيميائياً أو فيزيقياً (أى عالماً فى الطبيعة) أو مهندساً . ولكن هل من السهل أن تصبح مؤرخاً؟ . وحتى إذا استطعت فإلى أين يقودك هذا ؟

لقد كان هناك ، من دون شك ، طرق للتفكير غير وافية بالغرض بتاتاً . ولم نكن نحن سوى صبية فى مدرسة ثانوية ريفية نائية . ولكن بعض تلك الطرق ، مع ذلك ، يجرى العمل بها — بقدر أشمل إن لم يكن أعم — فى دنيانا الحديثة . والذى عنيناه بكلمة « فائدة » قد انصبّ — بصفة خاصة إن لم تكن شاملة — على السؤال : ما فائدة دراسة التاريخ فى التأهب للحياة العملية ؟ وأى نوع من أنواع المهن تؤدى إليها هذه الدراسة ؟ وفى السؤال كثير غير هذا بطبيعة الحال . وحتى إذا نظرنا إلى الموضوع من أكثر نواحيه عملية ونفعاً فإن المزايا لا ترجّح ، بحال ، كفة العلوم ، هذا حسبما كنا نفكر فى تلك الأيام .

وإذا تكلمت عن نفسى ، بصفتى الشخصية ليس إلا ، أقول إنى كنت أشك كل الشك فى فائدة الساعات المضنية التى أقضيها فى معامل الطبيعة والكيمياء . كنت أفكر : ما الفائدة من إحداث تلك الروائح الكريهة ومن وزن تلك المواد الصلبة

الثقيلة ومن استظهار تلك المعادلات التى لا تقع تحت حصر ؟ وكان البعض الآخر من الصبية يجدون فيها شيئاً من الفائدة بل من المتعة . ومع هذا وجدت — بعد ذلك بسنوات — فى كتاب صغير تقدمى جذاب موضوعه تدريس العلوم — وجدت المؤلفين يتساءلون : هل توجد فائدة تربوية كبيرة فى تدريس الكيمياء بالمدارس ؟.

ومع ذلك فلا حاجة لنا إلى أن نرتاب لحظة فى فائدة العلوم ودراستها بصفة عامة . وإنما نحن مدركون كل الإدراك أنها ضرورية فى مدينة صناعية .

وإلى مجرد السؤال عن فائدة العلوم ، وبمعنى أعمق ، مع التأكيد بعدم إنكارى لفائدة العلوم ، أرانى أجنح جنوحاً كلياً إلى الحركة الفكرية العلمية التى قدر لها — منذ عصر النهضة فى أوربا فصاعداً — أن تتحكم فى تفكير الدنيا الحديثة وتصبغه بصبغة معينة . والتاريخ لا يناقضها بل إنه — فى غضون القرن التاسع عشر صار جزءاً منها . ثم إن بزوغ نزعة التطور وامتزاجها بالتفكير أثر كذلك فى العلوم وفى التاريخ ومهد ميداناً يلتقيان فيه . وقد اقتنع الناس اقتناعاً كافياً بأن مناهج العلوم المتطورة أثرت فى دراسة التاريخ . أما الأمر الذى لم يرتفع إلى مرتبة اليقين فهو أنه ، مع نظرية التطور ، قد يقال إن التاريخ قد تطرق إلى كل الآراء العلمية . وهذا التفاعل — الذى أثر تأثيراً مخصباً كبيراً فى تفكير القرن التاسع عشر — ما يزال أمامه مستقبل أكثر ازدهاراً . هذا إذا استطعنا أن نؤدى واجباتنا بالإدراك الذى يتطلبه زماننا مع مزيد من التفكير العصرى .

ولقد اعتدنا جميعاً أن نسمع ذلك الشعار العام الذى يقول إن هذا العصر هو عصر العلوم ، غير أن الناس ليسوا متنبهين ، بقدر كاف، إلى أن هذا العصر لا يقل عن ذلك فى كونه عصر العقلية التاريخية .

تلك مسائل هامّة وسوف تُذكر فى محلّها من هذا الكتاب .

وليس فى مقدورى عرضُها الآن . وإنما أنا أودّ فقط أن أُشير إلى أننا — مع أهمية دور التاريخ فى تكوين المستقبل الثقافى لعصرنا هذا — أود أن أشير إلى أننا — فى العادة ، بصفةٍ عامة — أقلّ إدراكاً ، بدرجةٍ كبيرة ، لمدى حاجتنا إلى التاريخ ولفائدته من مدى حاجتنا إلى العلوم .

وفوائد التاريخ فى تكوين مستقبل المرء ، أى فى حصوله على عمل — إلى جانب أية منفعة أخرى قد يُوَفّرها له — لا تقل عن فوائد العلوم . وهذه الفوائد قد تُلقى بعض الضوء الجديد على قيمة التاريخ فى حدّ ذاته ولذاته .

ولنبدأ بالتعليم ، بتلك المرحلة الحاسمة ، مرحلة الانتقال من المدرسة إلى الجامعة والتحول من المراهقة إلى سن الرشد (وسوف نعرض ، فيما بعد، للتاريخ فى المدارس).

تقدم فى الجامعات مجموعات كبيرة من المنح الدراسية فى التاريخ : وتلك تساعد فى تكوين عنصر أعلى بين طلاب الآداب فى كل الجامعات ، صغارهم وكبارهم . وهكذا يفتح لك التاريخ باباً على الجامعة ويهيّيء لك مستقبلا أكاديمياً . ثم إن هنالك سبلاً أمام معلمين أحسن إعدادهم لهذه المادة فى كليات ومدارس من كل المستويات . وتحيط بهيئة التدريس وظائف ثقافية معينة يشغلها أمناء المكتبة وموظفو السجلات وأمناء المتاحف وسكرتاريو المعاهد وموظفو الخدمة الاجتماعية . ولا مراء فى أن تلك الوظائف آخذة الآن فى الازدياد تبعاً لمطالب العصر الاجتماعية وثمة مهنة تفوق فى الأهمية ما سبق وهى مهنة الصحافة ، ويصح أن نلحق بها الإذاعة . وإنها لمزية كبرى لصحفى الشئون السياسية ولمراسلى الشئون الخارجية والحربية أن يكونوا قد توفروا على دراسات تاريخية . ذلك أن كثيراً جداً من الشئون التى عليهم أن يتناولوها تفتقر إلى ذلك الأساس لكى يتفهمها هؤلاء

ويشرحوها . وليس يخلو من مغزى أن تكون طائفة من أقدر صحفيي زماننا — الذين أسهموا بقسط كبير فى تكوين رأى عام أريب فى الشئون العامة — قد توفرت جميعاً على أساس من الدراسة التاريخية . ولنضرب مثلا : ولترليبمان وهنرى ستيل كوميد جر فى أمريكا ، والأستاذ الجامعى د . و . بروجان والسير آرثر برايانت فى بريطانيا . ولو لم يتوافر لأولئك الصحفيون خلفية من الدراسة التاريخية لكان تفسيرهم للحوادث وتعقيبهم عليها أقل وزناً .

وأهم من ذلك : الخدمة المدنية التى تتزايد أهميتها اليوم فى كل البلاد تبعاً لتزايد المصالح العامة . ويعدّ التاريخ إحدى السبل المسلّم بأهميتها لتولى المناصب الكبرى . وذلك حق ، إذ أنه يهيء الخلفية المناسبة لأغلب الشئون التى عليك تناولها فى الوظائف الإدارية .

إن مما يبعث الرثاء لعقلية رجل كان يحتل مركزاً خطراً مثل سير نيفل هندرسون الذى ألقى بياناً فى البرلمان الخاص بـ « إخفاق مبعوث » — وكان يشغل من قبل مركزاً حساساً بوصفه سفير بريطانيا فى برلين من ١٩٣٧ إلى ١٩٣٩ — فى هذا البيان لم يكن شىء أبعثَ على الرثاء من جهل الرجُل بطبيعة التطورات الجارية فى ألمانيا . على أن مطالعات قصيرة منظمة لتاريخ ألمانيا الحديث كانت كفيلة بإيقافه على تلك التطورات . ولكن يبدو أنه زعم بأنه يكفيه تلاوة كتاب « كفاحى » على ظهر السفينة التى استقلها من جنوب أمريكا إلى انجلترا ! فلا عجب إذا كان قد وقع فريسة للحيرة والخديعة تلقاء سير الحوادث فى ألمانيا . ويبدو أنه لم يفطن لتلك التطورات إلا بعد انقضاء وقت طويل جداً . على أنه لم يكن الرجل الوحيد الذى يتأتى له أن يرى الدنيا رؤية جلية لو أنه استجمع شيئاً من المعلومات عن تاريخ ألمانيا . وكيف يتأتى لامرىء أن يفقه حياة هتلر العملية وبعث الروح الحربية الألمانية واستجابة الشعب

الألمانى لها إذا لم يكن يدرى شيئاً عن بسمارك وفردريك الأكبر وعن عبادة النزعة الحربية وتقاليد التسلط فى ألمانيا ؟ أما السيرآ يركرو الذى كان وزيراً للخارجية قبل الحرب الأخيرة فقد فهم هذه الأشياء فهماً جيداً. ولهذا السبب كان تخطيطه لمقتضيات السياسة البريطانية أمتن بكثير وأبعد نظراً من أى رسم بعد ذلك للسياسة البريطانية فى الفترة التى وقعت بين الحربين . وربما كانت نظرة أجلى وأعلم بدقائق الموقف وبتطوراته تستطيع أن تمنع إشعال الحرب الثانية .

وكان ينبغى ألا يصعب التنبؤ ـ عن طريق إلمام بسيط بأحوال الشعب الألمانى وتاريخه الحديث ـ بأنه معتزم أن يشعل حرباً عالمية ثانية.للسيطرة على العالم وإن أسوأ ما يفصح عنه تاريخ الألمان ، وأشر من وحشيتهم وغباوتهم وجمودهم ومن نفاقهم والرثاء لذاتهم ، لهو افتقارهم لكل معنى من معانى المسئولية عما يعملون ، وهذا ما يؤدى إلى أفدح النتائج .

وأنا عندما قضيت فى ألمانيا شتاء بعد حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ — ونزلت عند أسرة متوسطة صالحة ، أسرة راعى كنيسة لوثرية ، فى فترة كان أنصار إعادة النظر فى اتفاق فرساى فى بريطانيا وأمريكا يقوضون معاهدة السلام بشكل مروع — فى تلك الفترة جميعها لم أسمع قط كلمة ندم واحدة على تلك الحرب التى ورط الألمان فيها العالم مع ما سببته من خسائر فى الأرواح لم يسمع بمثلها من قبل . وكان كل ما ندموا عليه هو أنهم خسروها . وحتى بعد الحرب الثانية التى رموا بها العالم لم يبدُ — إلا فى القليل النادر — أنهم يعترفون بأية مسئولية عن النكبة التى صبوها على العالم .

وذلك الافتقار إلى معنى المسئولية ـ وهى الأساس الذى لا غنى عنه لفهم معنى الحضارة ـ يسرى مندفعاً فى كل ناحية من نواحى حياتهم ويعكس تاريخهم . وهو

أيضاً المورد الذى يصدر عنه أغلب مساوئهم وكوارثهم . فذلك معناه أن الألمان شعب لديه طاقات هائلة فى التنظيم والاحتمال والقوى الوحشية ولـكنه مجرد من الشجاعة الأدبية(*) . وعلى ذلك فهم دائماً فى خدمة أى مولى متحفز لقيادتهم إلى الأمام عبر طريق الاعتداء للوصول إلى الصولة والسيطرة . السيطرة ضالتهم ، والسيطرة هى مايعبدون ، ولا يكادون يتصورون أن فى عالم السياسة شيئاً آخر فالاعتداء منهجهم . ومهما يكن فالاعتداد هو كل ما صبوا إليه أو ماغنموه فى تاريخ ألمانيا بصفة عامة : لقد كانت حياة فردريك الأكبر العملية سجلاً موحداً طويلاً لاعتداءات ناجحة . وكذلك كانت حياة بسمارك . وكان مجمل انقضاضه على المسرح الدولى تأخير عقارب الساعة إلى الوراء مائة سنة فى أوروبا . غير أن الألمان لم يفطنوا لذلك : « لقد خدم ألمانيا » . على هذا النحو فـكروا وما يزالون يفـكرون ، حسبما كتب كارل باث ، حتى بعد الـكارثة الفادحة التى كانت النتيجة البعيدة الدى لـكده طوال حياته . ومع هذا ظل فردريك وبسمارك ـ حسب التفكير الألمانى ـ بطلى السياسة العظيمين . وربما يكون رجال السياسة قد فهموا الـكثير عن ألمانيا الحديثة نتيجة لقراءتهم أحسن تاريخين لحياة بسمارك للكاتبين : ك . جرانت روبرتسون وإريك آيك .

ولم يكن مفروضاً ، بعد ما انقضت عشرات السنين التى قضوها فى اعتداءات ناجحة مقرونة بالتسابق على السيطرة على العالم من ١٩١٤ إلى ١٩١٨ ، تلك السيطرة التى كادت تتحقق لهم ولم تتقوض إلا فى النهاية ، بعد ذلك كله لم يكن مفروضاً أنهم يحجمون عن تجربة محاولة جديدة . فلقد وقفت من الخلف جميع العناصر الألمانية التى تستفيد من كسب المعركة : القدامى من شباب الطبقات المؤيدة للحرب وملاك الأراضى وأصحاب مصانع السلاح وأنصار سياسة التصنيع وعناصر كثيرة من الطبقات الوسطى وقبل هؤلاة وهؤلاء صغار الطبقة الوسطى والموضوعون

(*) هذا رأى المؤلف ، وهو لا يمثل بالطبع رأى الهيئة .

فى غير مواضعهم من كل الطرز والقطاعات . ولقد وصل إلينا ـ من الكتب ـ تحذير بين مما عساه يحدث . وكان ينبغى لكل من قرأها أن يعرف معرفة أكيدة ماذا يتوقع . هناك كتب لا حصر لها فى تاريخ ألمانيا الحديثة . وفى الحق أنه ليس هناك عذر يبرر عدم التنبؤ . وكان الشىء المحض فى السنين التى سبقت الحرب أن واحداً من تلك الكتب لم يقرأه أحد من أصحاب المناصب العليا المسئولين عن تسيير دفة شئوننا[1] ، ولم يكن هؤلاء ليستغنوا عن معرفة شىء عن تاريخ أوروبا الحديثة .

ولقد دفعت بريطانيا ثمناً مبهظاً لجهل قادتها قبل الحرب بحقائق التاريخ الأوربى ومتجهاته . ولم يكن أنصار العزلة في أمريكا خيراً من أولئك : ذلك أن انسحاب أمريكا عام ١٩٢٠ ، من مكانها الطبيعى فى السياسة الدولية أفضى فى النهاية إلى اعتداءات اليابان وألمانيا وإلى نشوب الحرب العالمية الثانيـة . والآن اضطلعت الولايات المتحدة بعبء قيادة العالم الغربى ومسئوليات تلك القيادة ، ومن ثم أصبح التوفر على التاريخ وتفهمه أهم لهـا منه فى أى وقت مضى لكى تقوم بدورها على الوجه الصحيح . وهذا يتطلب من الشعب الأمريكى نمواً فى العقلية التاريخية ، ومن الكافة زيادة فى الوعى التاريخى . إنه يتطلب مكاناً أكبر للتاريخ ، لتاريخ العالم لا لتاريخ أمريكا وحسب . وهذا ما تجب مرعاته فى التعليم . ذلك أن النضج السياسى يقتضى الفهم التاريخى الذى هو أهم مقوماته .

إن جهل ذوى المناصب الحساسة ، وبخاصة عجزهم عن فهم تطورات أوربا السياسية بعقلية تاريخية ، قاد بريطانيا قاب قوسين من الكارثة . ومن المعقول أن الدوائر التى يقع عليها أكبر المسئولية تنحى الآن باللائمة ، بسبب تلك النتيجة ،

---

(١) بينت بعض النتائج المشئومة التى تهدد السياسه البريطانيه فى كتابى :
(التهدئة : بحث فى الانحلال السياسى) .

على الشعب بصفة عامة . نعم كان الشعب جاهلاً ولا شك فى ذلك . وإنه لـكذلك فى كل حين . ولـكن لا داعى لأن يظل هكذا .

وإنى لأؤمن بقول واحد من أكبر وأنبل الإنجليز ، وهو الملك ألفرد ، إنه لا شىء أخطر من الجهل ، هذا حسبما كتب فى أخريات حياته منذ أكثر من ألف سنة ، قال : « لست أعرف فى المرء صفة هى أكثر شراً من كونه لا يعرف » . فما أصدقه ! إن قلق الناس الدائم لم ينجم عن أنهم أكلوا من شجرة المعرفة بل عن أنهم لم يأكلوا منها القدر الـكافى .

أقول إنه بعد أن خيمت النكبات قرابة عشرين عاماً على السياسة البريطانية التى خطط لها رجلان من داخلية البلاد من أنصار سياسة التصنيع ، بعد ذلك جاء الغوث المنجد على يد مؤرخ شغل منصب رئيس الوزراء ، وكان ذلك أسلم عاقبة بدرجة كبيرة رغم ما كان يدور بخلد كتلة أواسط الناس . ذلك أن السير ونستون تشرشل ، بوصفه مؤرخاً ، عرف المطالب المستترة الملحة الطويلة الأمد التى تتطلبها السياسة البريطانية وعرف احتياجاتنا واحتياجات الإمبراطورية ، تلك المطالب والاحتياجات التى لا بقاء لنا بدونها . فلقد امتزجت هـذه بدمه ، وأجسر على القول بأنها انتقلت إليه بالوراثة . أفلم يؤدّ لنا تشرتشل فى زماننا هذا ، على وجه الدقة ، ما سبق أن أنجزه سلفه العظيم ملبرا فى زمانه ؟

خذ مثلا : سياسة الحلف الـكبير .

لقد حتمت الظروف أن تكون هـذه المسألة هى أهم وأقوى أنموذج للسياسة البريطانية فى التاريخ الحديث من أوله إلى آخره . فلما انصرفنا عنه تعرضنا للنكبات التى كابدناها فعلاً فى بعض الأحيان ، ولمـا التزمناه نجحنا . أمِنّا وأمن الآخرون

معنا على طول الطريق . ومعنى هذا أنه كلما قويت إحدى الدول الأوربية العدوانية بشكل يتحدى أمننا ويتهدد كيان الآخرين أحياناً — كما فعلت إسبانيا فى عهد فيليب الثانى ، وفرنسا فى عهدى لويس الرابع عشر ونابليون ، وألمانيا فى عهدى وليم الثانى وهتلر — كلما حدث ذلك تضامنّا مع أولئك الآخرين بحلف مشترك لنذود عن أنفسنا المعتدى القوى العاتى .

هذا أصوب الأوضاع وأقربها إلى طبائع الأشياء . وهو بالضبط ما قد يفعله جماعة من صغار الصبيان فى المدرسة لكى يقاوموا طغيان متجبّر .

ومع هذا فمن العجيب أن تلك السياسة — على أنها بسيطة سهلة ، وعلى أنها فى مصلحتنا كما هى فى مصلحة كتلة من الشعوب الأخرى — من العجيب أن تلك السياسة أسىء فهمها وباءت باللعنة. وقد يفهم المرء تمويه تلك السياسة ومقت نجاحها على لسان بعض مؤرخى القارة — من أمثال ديبيدور وترايتشكة — لأنها خيبت أهداف بلادهم بالذات ، تلك الأهداف التى أثبتوا بها شخصيتهم . إنهم على الدوام يحطون من قدر نجاح انجلترا فى تكوين أحلاف أوربية وينسبونه إلى المخاتلة وإلى الذهب البريطانى . وهذا يرجع ، حقاً ، إلى سذاجتهم وبساطة تفكيرهم : ألا إن حسدهم ليؤثر على حكمهم تأثيراً أعمى ، إذ أن كل مخاتلات العالم وذهبه لم يكن ليستطيع أن يكوّن تلك الأحلاف لو لم تحقق مصالح شعوب أخرى بقدر ما تحقق مصالحنا . وفى الحق أن تلك الأحلاف كانت ، فى العادة ، تحقق مصالح شعوب أخرى أكثر مما تحقق مصالحنا (*) .

تأمل هذا : عندما وقفت بريطانيا موقف العداء من فيليب الثانى ولويس الرابع عشر كانت مهددة فى أمنها ولكنها لم تكد تتعرض للتهديد بوصفها أمة .

(*) هذا بالطبع رأى المؤلف ، وهو لا يمثل رأى لجنة الترجمة . وكذلك كل ما ورد فى هذا الكتاب من آراء .

وكان أمن هولاندا مهدداً . وكذلك فى عهد نابليون كانت بريطانيا ، بوصفها جزيرة ، فى مركز أقوى من مركز دول أخرى . وكان استقلال أغلب دول غرب أوروبا معرضاً لأشد الأخطار . وفى زماننا هذا ، عندما وقفنا موقف العداء من ألمانيا ، تعرضنا لخطر أشد ، غير أنه لم يكن أكبر من الخطر الأدنى الذى تعرضت له فرنسا وبولندا وروسيا والنرويج والدانمرك وهولاندا وبلجيكا ووسط أوروبا وجنوبها . والواقع أن لنا مصالح مشتركة مع الكتلة الأوروبية الكبرى ضد أى معتد قد يبلغ من القوة حداً يهددنا جميعاً . ولو كان هذا هو المرفأ الكبير الذى يرسو فيه أمننا بوصفنا أمة فى العصر الحديث .

ومن الصعب أن يكون مشروعاً الاعتراضُ على أن هذا كان فى صالحنا إلى حد كبير . فعندما تتصرف دولة تصرفاً أحمق ينافى مصالحها فإنها تبوء بالكوارث . والمهم فى هذه النقطة هو أن مصالحنا كانت دائماً تطابق مصالح الآخرين أى أنها تتمشى مع الصالح العام .

وقد يكون من المناسب فى هذا المقام أن تدرج كيف ينطبق هذا على الولايات المتحدة اليوم . أقول إن سياستها ينبغى لها فى المحل الأول أن تصون مصالح البلاد وتحافظ على أمنها . وهناك من وراء هذا مبدأ جعل هذه الأهداف تُوائم مصالح الآخرين وأمنهم ، على أقل تقدير . وبهذا يظل ميزان السياسة العالمية مرجحاً لكفة الولايات المتحدة ويصان السلام ، حتى لا تشعر الدول الأخرى أو كتلة الدول بأن كيانها مهدد وأن حريتها فى العمل معرضة للخطر . وللك أن توازن بين هذا وبين الشعوب الأروبية وهى تئن تحت البطش الألمانى من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٤ أو بين شعوب أوروبا الشرقية .

وأذكر كذلك ما صانه الدور الباكر الذى قامت به بريطانيا . لقد صان التنوع الثقافى واستمداد أوربا وحريتها الخلاقين المذهلين . فلو لم يحدث ذلك لجاز أن تتخلف سلسلة من النماذج الموحدة النسق تفرضها على أوروبا فرضاً السيادات الغشومة . على أننا تركنا الباب مفتوحاً . تلقاء المعاونات اللانهائية المتعددة الأشكال تلك التى تزجيها دول لا تدانيها فى القوة إلى المزيج الإبداعى المذهل ألا وهو الثقافة الأوروبية . ولقد جاء وقت ليس بالبعيد تحسّر فيه فريق من الفرنسيين على مقاومة بريطانيا لسيطرة نابليون على أوروبا .

أما اليوم فهم يحسنون التفكير ويثنون على مقاومة بريطانيا لهتلر . كما أن مقاومتنا التاريخية لطغيان أى دولة فى أوروبا لم تعد تتحسر عليها ، آخر الأمر ، تلك الدول الكبرى نفسها التى حاولت أن تمارس مثل ذلك الطغيان . إن جهود نابليون الجبارة لم تزد على أن أرهقت فرنسا . وما فتئت ، وهى تسير سيرها ، يصاحبها عقم أدبى متزايد . ثم حل — بعد خلاص فرنسا من ربقة استعباده — قرن تقدمت فيه الفنون وازدهرت ازدهاراً لم تره من قبل . ولربما يكون لخلاص ألمانيا من كابوس الروح الحربية الدائمة الاعتداء تأثير مماثل يساعد على الانطلاق فى مجال الثقافة والخيال .

ولقد كان تشرتشل يدرك دقائق كل ما تضمنته سياسة الحلف الكبير كما يدرك ضرورة تدعيمه والنتائج التى تصدر عنه إدراكاً له أصول تاريخية عريقة . على أن ذلك لم يصدر عن تأثره بالماضى حتى بعد أن دفعت مقتضيات الأحوال بريطانيا إلى التقاليد القديمة الرصينة التى درجت عليها سياستها ، وإنما صدر عن بعد نظره وصحة تقديره . وخطبه — على مدى الأعوام العشرة ، التى درجنا فيها على البعد عن تلك السياسة — يسودها ذلك المنهج . ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أنه ؛ فى تلك

سنين بالذات ، كتب فيها طرفته التاريخية (ملبرا ، حياته وعصره) أمسى وكأنه كالمسمار الذى يثبت محور العجلة بالنسبة إلى سياسة الحلف الكبير الذى خيب مطامع لويس الرابع عشر العدوانية وحرر أوروبا من سيطرته : لم يكن ملبرا قائداً حربياً للحلف وحسب بل كان كذلك مركز تفكيره ومحركه السياسى والتنفيذى الأعظم .

والحياة العملية لذلك الجد الأعلى لم تكن شبيهة بدور تشرتشل فى هزيمة هتلر وحسب ولكنها كذلك أثرت فيه تأثيراً مباشراً عندما قام بهذا الدور .

ولكم نحن مدينون له بهذا ؟ وعند ما يقيض لتاريخ تلك الحرب أن يكتب فقد يتضح جلياً أنه أدى خدمة ربما تسمو على دوره فى خدمة وطنه فى عام ١٩٤٠ ، وهذه الخدمة هى معاونته فى خلق الحلف الأكبر .

فبهذا الحلف وحده أمكن قهر الدول الفاشيّة فى أوروبا والشرق الأقصى. وهذه الخلفية الفكرية هى التى هيأته ليجيب على غزو هتلر لروسيا السوفيتية بسعىٍ فورىّ إلى التعاون والتحالف الناجزين .

على أن الخطر الناجم عن الجهل بالتاريخ قد يدهم الوطن بشكل أشد وأبسط مما ذكر فى صدد مسألة الحلف الأكبر تلك . خذ مثلاً نتيجة ما كان يجرى فى ألمانيا فى سنة ١٩٣٠ وما كان يتوقع له . إن كثيراً من زعمائنا السياسيين ومن قادة الرأى العام لم يعرفوا قط ما عليهم أن يتوقعوه . أما تشرتشل فقد أدرك جيداً ما يجب أن يتوقعه وإن عجز أن يحمل المسئولين على أن يصدقوه فى الوقت المناسب . فلقد كان عندئذ متفقّهاً فى التاريخ وقد درسه من قبل .

وإن ظروف تشرتشل تلك لتمدّنا بأقوى ما يستطاع من جدل فى الإشادة بتعليم التاريخ لقد ربى نفسه على قراءة التاريخ وجعله أساساً لتفكيره وأصبح ، آخر الأمر

مؤرخاً ، وكتب واحداً من أدق البحوث التاريخية فى عصرنا هذا . وإنه لقصة شائقة . وفى وسعك أن تقرأ بيانه عنه فى ترجمته الذاتية [١] (حياتى الباكرة) .

والملك حزرت فعلاً ما أحسبه أهم فائدة للتاريخ وإن لم يكن الفائدة الوحيدة له. إنه يعينك على أن تفهم بمساعدته — أكثر مما تفهم بمساعدة أية مادة أخرى — الأحداثَ العامة وشئون عصرك ومتجهاته . فهل هناك ما هو أهم منه ؟ وإذا لم تفهم الدنيا التى تعيش فيها فما أنت إلا لعبتها ويجوز أن تكون فريستها . (هكذا شأن الأكثرين من الناس على أية حال ، ولكن هذا لا يبرر أن تكون أنت أحدهم . وإن تحررنا لا يتأتى إلا بالفهم) .

وإليك موضوع التاريخ . إنه يبحث فى المجتمع الإنسانى وفى حكايته وكيف أصبح الإنسان كما هو الآن . وإن معرفة ما كانت عليه المجتمعات فى الماضى وكيفية تطورها لتبصرك بالعوامل التى تؤثر فيها وبالتيارات والقوى التى تحركها وبالدوافع والمصادمات التى تشكلها ، عامة كانت أم خاصة . إنه بحث تتناول فيه الطبيعة البشرية فى كل وقت وهنا تبرز أهمية تراجم حياة الشخصيات التاريخية وهنا يتضح مقدار ما تقدمه قراءة تلك التراجم من فائدة (فضلا عما تقدمه من متعة) . إن التاريخ لا يتناول حياة العظماء من الأفراد وحسب ، فلقد يقال على صورة ما إنه يتكون من رواسب حياة ملايين من الرجال والنساء الذين تقل أهميتهم والذين لم يخلّفوا اسماً بل قدموا فقط حصتهم من المشاركة ، إن حياة هؤلاء لتجعل مادة التاريخ أشبه بالشُعب المرجانية التى تتكون من حياة ملايين من المخلوقات البحرية الصغيرة القليلة الأهمية .

---

(١) وكذلك فى مقالى (مستر تشرشل والتاريخ الإنجليزى) My Early Life .

وعلى هذا فالتاريخ علم اجتماعى . وهو بهذا الوصف تسكمن فيه المرونةُ والتنوع والاستثارة. وهو أقل جفافاً من العلوم الطبيعية بدرجة كبيرة وأكثر حذقاً وأسوغ للخيال إذ يتناول الجنس البشرى بكل ما انطوى عليه من التعقيد والتنوع . إنَّ التاريخ دائم الحيوية وفى وسعه أن يهز المشاعر .

وليس معنى هذا أنك لا تستطيع أن تتعلم منه أو أن تخرج منه بأحكام عامة . إنك تستطيع ذلك حتماً بقدر ما تستطيع أن تتعلم من تجاريب الناس . والفرق أن التاريخ يهيء لك مجالات من التجربة أوسع بكثير تبنى عليها أحكامك ، ولعلها فى الواقع كل التجارب البشرية التى نسمع بها . ومع أن الفرد يجوز أن يستعصى عليه التنبؤُ بحقيقة أمره (وإن لم يكن هذا شأنه دائماً) فأن الكثير من الجماعات والجماهير والطبقات والطوائف والشعوب يجنح إلى التفاعل بأساليب متماثلة فى الظروف المتماثلة هؤلاء جميعاً يقدمون لك أساس التاريخ أو كما يقولون ، المادة التى تكونت فيها النماذج التى يزيد تداخلها وانطباقها على الفرد . ومع أنك لا تكاد تسلم بأن هناك قوانين تاريخية لاتساق قوانين العلوم الطبيعية وضبط أحكامها فإن من الجائز إصدار أحكام عامة بطريقة تشبه الأحصاء . وفى مجال التاريخ لامحل للشك المشوش على أن عدم اتساق تلك الأحكام العامة والاتجاهات وزيادة تعقيد الحركات يكون أدعى لاستثارة الذهن بسبب ما يتطلبه من حذق . إنك طوال الوقت تتناول جوهر الإنسان ومن هنا حاجتك ــ قبل كل شىء ــ إلى سلامة الإدراك والجاذبية والخيال الذى يساعدك على تقديره وفهمه .

والشئون العامة والأحداث العامة والحركات هى التى تهيء للمرء الخلفية التى لا غنى عنها . تلك هى الحقيقة التى عبر عنها سيلى فى عبارته المأثورة التى كثر الجدل فيها ، قال : « التاريخ هو السياسة الماضية ، والسياسة هى التاريخ الحاضر » وعبارة

سيلى ليست مجافية للحقيقة ــ وإن قوبلت أحياناً بالاستنكار على أنها مجافية ــ غير أنها مع ذلك ليست جامعة مانعة ، فهى غير كافية بدون شك ، وفى التاريخ غير هذا كثير بقدر ما فى تجاريب الناس التى هى التاريخ بعينه هناك الكثير إلى جانب السياسة بل حتى إلى جانب الشئون الاجتماعية . ومع ذلك فالمجتمع وشئونه هما اللذان يضمان الإطار العام .

وستعرف الآن كيف يكون للتاريخ فى الجامعات الأهمية القصوى فى الإعداد لمهنة التدريس والوظائف المدنية ولزعامتنا السياسية بأوسع معانيها ولقادة الصحافة والرأى العام . وإن له فى إعداد رجال السياسة لأهمية لا تقل عن ذلك . والإلمام بالتاريخ لا غنى عنه فى الإشراف على شئون المجتمع على أعلى المستويات . وهو لهذا له أهمية خاصة فى التعليم العالى . وكلما علا مستوى التعليم زادت الحاجة إلى دراسة التاريخ .

وهناك مثلٌ سائر يقول إن « التاريخ لا يعيد نفسه أبداً » . وبهذا المثل يعتذر البعض أحياناً عن القول بأنه ليس فى مقدورك الاستفادة من التاريخ . نعم إنه لا يعيد نفسه بتفصيلاته الدقيقة إذ أنه ليس من المحتمل أبداً أن تتكرر الأشخاص أنفسهم والمواقف نفسها والظروف نفسها على وجه الدقة . ولكن هذا لا ينفى وجود ظروف مشابهة تؤدى إلى نتائج مشابهة إذا تُنوولت بطريقة مشابهة . وفى تاريخ الثورات المتماثلة يلاحظ المرء ، مراراً وتكراراً ، تولد أزمات متشابهة ومواقف تتشابه عناصرها كل الشبه سواءٌ أكان ذلك فى إنجلترا فى السنوات العشر التى تلت عام ١٦٤٠ ، أو فى فرنسا فى السنوات العشر التى تلت عام ١٧٩٠ ، أو فى روسيا عام ١٩١٧ . هنا يرى المرء الحالة يساء فهمُها بدرجة كبيرة وتساء معالجتها بدرجة أكبر من نظام عتيق يديره شارل الأول أو لويس الرابع عشر أو نيقولا الثانى كما يرى الموقف يفلت من أيديهم تماماً بالصورة نفسها . ذلك حكم ذكر على أنه يقين

مقطوع به — كما لو كان هناك تاريخ طبيعى للثورات — ذلك حكم ذكر فى كتاب « تاريخ الثورة الروسية » لتروتسكى . على أن هذا الحكم قد يصدق إذا نظرنا إليه نظرةً عامة .

وقد لخص هـ . ا . ل . فيشر وجهة نظره في هذا الموضوع — بعد أن قضى بضع سنين فى وضع كتابه (تاريخ أوربا) قال فى المقدمة : « لقد أنكرت علىّ ثورة ذهنية . فلقد كشف أناس أحكم منى وأكثر علماً حبكة فى التاريخ ، وتناسقاً وأنموذجاً ذا قدر محتوم . وقد خفيت علىّ هذه الإيقاعات المتطابقة . وكل ما أستطيع أن أراه هو طارئ يتلوه طارئ يتراكب عليه كما قد تعلو الموجة فوق الموجة ، أرى حقيقة عظيمة واحدة لا يتناولها التعميم لأنها فذة مفقودة ، أرى قاعدة واحدة سليمة مأمونة لدى المؤرخ : وهى أن عليه أن يسلم بأن تطور مصاير الناس يتأثر بفعل الطوارئ والأمور غير المتوقعة . وهذا ليس مذهب زهد ويأس . فالتقدم مكتوب بخط واضح كبير على صفحة التاريخ ولكنه ليس قانوناً من قوانين الطبيعة . والأرض التى يكسبها جيل من الأجيال قد يخسرها الجيل الذى يليه . ومقاصد الناس قد تسيل متدفقة فى قنوات تفضى إلى الكوارث والهمجية » .

وهذا ينطوى على قدر كبير من التحرر الخالى من الأوهام . ولا محل لأن نغالط فى النصف الأخير مما يقول به فيشر . أما عن النصف الأول فلا وجود ، بطبيعة الحال ، لإيقاع «موحد» أو لخطة موحدة فى التاريخ . وما فرض وجود مثل هذا الإيقاع أو تلك الخطة — أو حتى توقعه وخيبت الأمل فيه — إلا أثر من آثار نظرة العالم الدينية مع ما تتضمنه من دفع العناية الإلهية للتاريخ إلى نهاية محتومة . والرأى غير المكتمل نوعاً الذى أبداه أكتون والذى ينظر فيه إلى التاريخ على أنه حكاية تكشف عن حرية البشر والذى هو ذلك إحدى مميزات

القرن التاسع عشر — هذا الرأى ينحدر انحداراً مباشراً من رأى بوسويه المتعلق بالغايه من الطبيعة . وفحواه أن تاريخ العالم يوصل إلى الاعتراف بالوحى الألهى المسيحى. ومن التناقض أن ينحدر هذا الرأى مباشرة من رأى القديس أوجستين الذى ينكر الحرية على البشر .

كلا ... فالتاريخ ليس له إيقاع موحد أو خطة موحدة وإنما له إيقاعات وخطط ونماذج بل ترجيعات (أى تكرر) . وعلى ذلك يستطاع تعميم أحكامه واستنباط الدروس منه ، وكان هذا على الدوام، رأى العظماء من العمل ورجال الثقافة. ولهذا كان التاريخ هو القراءة المفضلة لدى نابليون ولويد جورج وتشرشل ،ولدى هتلر للسبب نفسه . (ولعله قرأ فى شىء من الإبهام ودون أن يستفيد كثيراً — تاريخ غزو نابليون لروسيا ، عام ١٨١٢. وذلك لأن هتلر كان ، عند ئذ ، وإلى درجة غير عادية — رجلا عبقرياً «غير مثقف» ولن يمكن صدور عمل أخطر من ذلك عن عقلية كتلك آثمة ذات سطوة كبيرة .)ولقد درج القدماء جميعاً ، من إغريقيين ورومانيين على قراءة التاريخ، لا للمتعة وحسب بل كذلك للضوء الذى يلقية على الأحداث وللدروس التى يسعهم استنباطها منه . وكذلك كان شأن رجال النهضة العلمية فى أوربا : ماكيافيللى وإيرازموس وتوماس مور وبودان وجويتشياردينى وبيكون وهوبز وكلارندون . ويقول السر تشارلز فيرث :«التاريخ ليس فرعاً من التحصيل يدرس لذاته ولكنه نوع من المعرفة يفيد الناس فى حياتهم اليومية » . ثم يستشهد بقول السير وولتر رالى : « غاية كل مناحى التاريخ ومجاله هى تعليمنا — عن طريق عبر الماضى — الحكمة التى قد توجه أعمالنا ورغباتنا » وهذا ما حدا بيكون — إذ يبحث فى مزايا أنواع الدراسات المختلفة — على أن يقول : « قراءة التاريخ تلقن الناس دروساً فى الحكمة » .

ولك أن تسأل :

أى نوع من الدروس يلقننا التاريخ إياها ؟ إنها ، يقيناً ، تجل عن الإحصاء ، شخصية كانت أو اجتماعية . غير أنا نقصر أنفسنا على الناحية السياسية الخالصة ، على المجال الذى فيه تصبح معرفة شىء من التاريخ ضرورة أولية .

ولنتناول ، على سبيل المثال ، الحقيقة التى ينطوى عليها المثل الذى يقول إنك قد تذود التاريخ بمذارة (أى بمذرة) ولكنه دائماً يعود مرة ثانية . وما أشدما يبين هذا المثل عن أساليب الثورات : ولعلك تراه يصدق فى كل من الثورات الثلاث البالغة الأهمية التى ذكرتها وهى الثورات الإنجليزية والفرنسية والروسية . ذلك أن كروموبل ورجال جيشه — بقطعهم رأس شارلز الأول — قطعوا صلتهم قطعاً عنيفاً بماضى انجلترا . فلقد قضوا على طراز الحكومة الملكية التى تأصلت جذورها فى تجاريب الأمة . وما هو إلا وقت قصير حتى عادت الملكية بشكل جارف . وقبل هذا ببضع سنوات عرضت الملكية على كروموبل بالذات ولكنه وسعه أن يزهد فيها إذ كان يتمتع بسلطان ملكى يعلو كثيراً على أى سلطان سبق للملك التمتع به . وبموت الرجل العظيم عادت الأمة ، مستبشرة ، إلى تقاليدها وأوضاعها الدستورية القديمة ، وعادت الملكية أدراجها فى شخص ابن شارل الأول ووريثه ورضيت عن ذلك الكافة . والقصد أن ثورة المتطهرين واستئثار الجيش بالسلطة أوجدا انحرافاً عن السبل المعتادة والتقاليد المتأصلة فى انجلترا . ويبدو أن لكل أمة — بشخصيتها وبتكوينها — معايير معينة تتحكم فى سلوكها وتصوغ أنظمتها . والغالب أن تلك المعايير هى من الأمور المسلم بها كثيراً ولذا لم تعد تصلح دليلا أو شاهداً . ومهما يكن من أمر فإن القليلين جداً من الناس حساسون وعقلاء إلى حد يدركون معه العناصر الأصلية التى فيها يعيشون ويتحركون . وأكثر ما يتنبه الناس إلى تلك العناصر يحدث ، بالضبط ، فى لحظة التحول عنها . ومن هنا ينبع

الملتهب والخفة وأهمية التفكير السياسى فى العهود الثورية .

وإن كل امرىء ليدرك كيف ينطبق هذا على الثورة الفرنسية فى فترة رد الفعل الملتهب وقتما بلغ المد الثورى مداه وأتى بتغييرات عميقة واقترف قدراً كبيراً من الإمعان فى التطرف . ولقد فرح الأكثرون من الناس العاديين لعودهم أدراجهم إلى نظمهم المعتادة . ولنتناول مثلا جديداً : تأثير الثورة على السياسة الخارجية الفرنسية وموقف الفرنسيين من الشعوب الأخرى . لقد ألهب نشوب الثورة وتطوراتها الباكرة ـ وكان سقوط الباستيل رمزاً عالياً ـ آمال المثاليين فى كل مكان حتى بلغ حمى الاستثارة ذروته . وإن أى حدث تاريخى آخر لم يكن ليتمخض قط عن ارتفاع موجة أمل إلى هذا القدر ولا عن التطلع إلى عصر جديد للبشرية فى ثقة وإيمان . ويبدو أن الناس جميعاً ـ لا الشباب والشعراء وحسب ـ بشروا أنفسهم بفردوس جديدة وأرض جديدة . ولابد أنه كان من دواعى الابتهاج أن يعيش المرء فى تلك الفترة أو أن يولد فوق جناحى حمية بالغة كتلك . (ومن حسن الحظ أننا لم نمر بتجربة من ذلك النوع لأن خيبة الأمل لم تكن أقل فداحة) . وقد ورد وصف لحالة ذلك العصر الفكرية فى قصيدة من أروع قصائد الشعر الإنجليزى ، عنوانها « المقدمة » جاء فيها :

« وجود الإنسان على قيد الحياة فى ذلك الفجر كان الهناء كله ولكن وجوده متمتعاً بالشباب كان الفردوس بعينه ! هنيئاً للعصر الذى تأتى فيه للهزيل الممتهن الممقوت من شتى التقاليد والقوانين والشرائع أن تبهر بلاداً غارقة فى الخيال ! هنيئاً للعصر الذى بدأ فيه جلياً أن « السماء تؤكد حقوقها وتكلف أيما كلف بأن تجعل من نفسها فاتنة ساحرة فريدة تدعم العمل الذى كان عندئذ يسير قدماً باسمها ! ولقد لبست الدنيا قاطبة ـ المواضع المحظوظة منها وحسب ـ الجمال الموعود الذى يُنشَد (كما قد يحدث فى تلك اللحظات التى تمر على المرء بين خمائل الفردوس دون

أن يشعر بها) ؛ لبست الجمال الذى ينصد الوردة النا بتة المترعرعة فوق الوردة الريانة اللاهثة المزهرة ، فأية سجية فى تلك الصورة لم تستيقظ لتنعم بتلك السعادة التى لم تخطر على بال ؟ ».

حقاً إن الثورة — فى مستهل ندائها وراء الحدود الفرنسية أتت بالتحرر وبجانب من رسالة الإخاء بين البشر غير أنه لم يمض وقت طويل حتى بدأت الجهود الأكثر بقاء من طبائع الشعوب تؤكد وجودها . وما هو إلا القليل حتى ظهر أن نداء الإخاء بين الناس كان وسيلة أكثر فعالية لبسط حدود فرنسا ولتحقيق الأهداف العلمانية للسياسية الفرنسية على نحو أوسع مما تأتى للنظام القديم فى أى وقت قبل ذلك ، إذ بعد قليل استجابت بلجيكا وهولاندا للنداء ، وأصبحت سويسرا جمهورية هلفتيا البروتستانتية ، وأمست جنوا جمهورية ليجوريا وهكذا . وعادت فرنسا إلى شأنها القديم واتخذت سبيلها لتصبح دولة طغيانية عسكرية وتألف حلف بغية الصمود لها ، ودخلت انجلترا الحرب بعد أن تأخرت قليلا . وعادت البشرية إلى حياتها المألوفة .

وكانت مُرة خيبة أمل الذين منوا أنفسهم الأمانى العريضة . كانت مرة إلى درجة تركت معها سمة أبدية فى الأدب الإنجليزى ، فى حياة وفى مؤلفات وارْدزْوارْث وكوليردْج وساوْذى . ولا يكاد يحق لامرئ أن يلومهم على أملهم الواسع لأنهم شعراء ولأنهم ليسوا مؤرخين ولأنهم كانوا شباباً . (أما الناس الذين يكبرون هؤلاء سناً فكان فى وسعهم أن يحسنوا معرفة ما ينبغى توقعه من الجنس البشرى) . ولكن التجربة كان لها على كل منهم تأثير بعيد الأثر . فقد انفعلوا جميعاً بالمظهر التاريخى وذلك أن ساوذى أصبح مؤرخاً ممتازاً من النوع المستقيم فى تفكيره وكوليردج جنح إلى علوم ما وراء الطبيعة المشبعة بالتاريخ ، تلك التى انبثق منها — فيما انبثق — فلسفة المحافظة على القديم . أما وودْزورْث فقد انثنى يستلهم

الوحى من مائتى ومن القرن السابع عشر وكتب السوناتات[١] الوطنية العصماء وهى أهم تراث الأدب الإنجليزى فى موضوع الحرب الطويلة الأمد ضد نابليون .

وفى أدب فرنسا التاريخى كان منهج استمرار السياسة الفرنسية طوال الثورة وفى عهد نابليون استمراراً ذاتياً فى محاذاة منهج العهد القديم ، كان هذا المنهج هو موضوع تحفة سوريل : « أوربا والثورة الفرنسية » .

وإنا لنجد فى زماننا شبيهاً بيناً فى الثورة الروسية : الأمل والتطلع والإيمان ثم خيبة الأمل . فلقد انقلبت الثورة على نفسها ثم أكلت بنيها : السخرية وخيبة الأمل التامة ثم العود إلى القديم . وروسيا لم تقلع عن أن تكون روسيا لمجرد أنها مرت بثورة أكتوبر . قد يصفونها بأنها شيوعية ولكن المجتمع الروسى كان يضم عناصر جماعية قبل الثورة بينما الشعوب المتكافحة بالإنجليزية تؤمن بالفردية . كما أن قدراً كبيراً من تلك النزعة القديمة ما زال قائماً . من ذلك : فقدان الحرية السياسية ، وتركيز السلطة فى يد القيصر ثم فى يد ستالين ، والدور الهام الذى تقوم به المخابرات الموروث عن دورها القديم ، والشرطة السرية الجديدة التى تقل كفاية عن القديمة . وقد بعث الحرب مع ألمانيا شيئاً من وطنية الروس الكامنة فقد أحيي الغزو الحنين إلى تراب روسيا المقدسة (وزادت الإيمان بمنهج ١٨١٢) بل وفقت بين ستالين والكنيسة . (وكان هذا التفاهم فى روسيا وثيقاً فى كل وقت ، فلقد تربى ستالين فى الكنيسة) . وها نحن أولاء نشاهد أمراً سوف تكون له أهمية بالنسبة لمستقبل أوروبا ألا وهو العود إلى الأهداف الطويلة الأمد للسياسة الروسية

(١) السوناته قصيدة من ١٤ بيتاً .

قد يقال إن هذه دروس ينطبق تطبيقها على الماضى بوجه أخص فماذا عن المستقبل ؟ إن التاريخ لا يُظهرنا على انفصام كهذا بين الماضى والمستقبل . وفيما أنا أكتب هذه الجملة أصبح ماضياً ، بالفعل ، ذاك الذى كان مستقبلا . وكل شىء كتب له التواصل والدوام . وفى وسع التاريخ — من غير أن يتنبأ بالمستقبل — أن يكون له مرشداً نافعاً . وسوف يملأ استئناف اتجاه روسيا إلى أهدافها التقليدية القديمة — صوب بسط نفوذها — على أوربا الشرقية والشرقية الجنوبية وعلى البلطيق والبلقان ومنفذ يطل على البحر المتوسط والشرقين الأوسط والأقصى — سوف يملأ اتجاه روسيا هذا صفحات هامة فيما يستقبل من تاريخ القرن العشرين . ثم: ما اللون الذى ينبغى لسياسة بريطانيا فى المستقبل أن تتخذه ؟ إن خير مرشد لنا لهو النجاح الوطيد المحالف الأكبر فيما مضى . فينبغى لنا فى أوربا أن ننشىء نظام أمن تتوحد مصالحنا بمقتضاه مع مصالح الكتلة الكبرى التى تضم الجميع . وقد زعم تشمبرلين — بجهله التاريخ — أن من الممكن التحالف مع ألمانيا النازية . ثم تحقق بعدئذ من أنه لا سبيل إلى الصمود فى وجه دولة مفرطة فى القوة ، غير المحالفة الدفاعية . وبمثل ذلك كان يسعنا أن نتجنب الكارثة التى تلت التهدئة .

أما عن الولايات المتحدة فإن توجيه سياستها العالمية منذ نهاية الحرب جعلها جديرة بقيادة العالم الغربى وذلك بسبب المسئوليات التى تضطلع بها ومراعاتها لمصالح الآخرين وخيرهم وبسبب كرمها المنقطع النظير . ولقد عادت الولايات المتحدة إلى الاتجاه الذى أشار به وودرو ولسن وهو وضع يتمشى مع مصالحها فى مناحى العالم أجمع ومع مسئولياتها بوصفها أقوى الدول الغربية . أما العزلة التى يرجوها بعض قدامى المؤرخين الأمريكيين فهى تجافى تماماً مركز أمريكا فى العالم وتسىء إلى الشعب الأمريكى . وهى تعارض ، على خط مستقيم ، منهج هذا الكتاب من حيث فائدة

التاريخ وواجب المؤرخين فى تكوين رأى عام مثقف ولا سيما فى مجال الشئون الدوليـــة .

هذا قليل من الإرشادات التى يصح أن يقترحها للمستقبل قارئ التاريخ ذو الفهم السليم.

ولـكن هنرى فورد قال لنا يوماً بأن « التاريخ بأجمعه لا يكاد يصلح لشىء » ولا يمكن أن يصدر تعبير غير أصيل عن سطحية العقل الميكانيكى الحديث أكثر من هذه العبارة . وقد زعم مستر فورد حقاً فى ١٩٢٧ ، أنه وجد مفتاح معضلات زماننا الاقتصادية ــ بكل ما يحوطها من سوء التنظيم والتوتر والصراع وغير ذلك من المصاعب التى أعيت أقدر الرءوس المفكرة فى كل بلد من بلاد العالم ـــ زعم أنه وجدهذا المفتاح بحل بسيط وهو رفع أجور العمال. وفى ١٩٢٩ انقضت خيبة ارتفاع الأسعاروجلبت على أمريكا كساداً صناعياً لم تبلَ بمثله دولة أخرى . وربما جاز لنا أن نقول إن التاريخ اشتبك مع مستر فورد وألفاه « لا يكاد يصلح لشىء » . وكأنما الولايات المتحدة مستثناة من فعل الجهود والدوافع التى تؤثر فى النظام الاقتصادى! ولئن كنا توصلنا إلى فهم أسلم فى هذا المجال فنحن مدينون بدرجة كبيرة لأصحاب التفكير الاقتصادى من ذوى العقلية التاريخية الذين يتزعمهم لورد كينس .

وسيتضح ، بناء على هــذا ، أننى ــ من دون أن أتعرض بتةً لاحتمال خطأ فى التقدير عن التاريخ بصفة مادة دراسية ــ أؤمن بفائدته إيماناً كاملا . إنه مادة تحرك من الوهم ، مادة فيها تكبر وتبلغ سن الرشد . والأمر الوحيد المحزن هو ما يبدو من أن الناس لا يكادون يستفيدون منه . وهذا يطابق ، على صورة ما ، ما يقوله هيجل : « الشىء الوحيد الذى يتعلمه المرء من التاريخ هو أن أحداً لا يتعلم أبداً أى شىء من التاريخ » . ولـكن الناس مع ذلك قد يتعلمون الكثير . إنه

يتيح لهم مَعيناً لا ينضب من التجارب العليمة التي قد تعينهم على الاستنباط وتغنيهم عن أن يمارسوا بأنفسهم تلك التجارب من أولها إلى آخرها في جهل وألم .

على أن الثمن الذي يؤدي إنما هو مشقة قليلة يقابلها قدر كبير من الغبطة إذ إلى فوائد التاريخ التي لم أفصل منها إلا واحدة فقط - هناك مباهجه .

ونقول في النهاية - رداً على ما سبق - إن حياة المرء مقيدة ومحدودة الزمن إلى حد كبير، إنها لاتزيد على ثلاثة عشرينات وعشر من السنين ، وكثيراً ماتنقص عن هذا القدر . وإذا لم يكن لدينا ، لممارسة التجربة ، غير ذاك المدى فإنه لن يتوافر لنا من العلم إلا القليل . وفي الحق أن حياة الناس كما نعرفها — من دون أن نعقل التاريخ - لا تستساغ إطلاقاً ، فهو ضروري لحياتنا إلى هذا الحد . وبمعرفة التاريخ وحدها تأتلف حياتنا القصيرة — وهي برهة يسيرة من التجربة — تأتلف والسجل البشري — فالتاريخ وحده هو الذي يوقفنا على شيء من ذلك السجل ويتيح لنا المشاركة فيه . وأن حياة الفرد لتحطم أسوارها لتشارك الإنسانية في حدودها. ومع خضوع حياتنا لسطوة العمر فإننا بما نفقهه من التاريخ ، نتحرر من قيودنا ونلوذ بالزمان .

الباب الثانى

مناهج التاريخ

قصرنا بحثنا فى الموضوع ، حتى الآن ، على ناحيته الخاصة بالمتعة ولكن ماذا عن مباهج التاريخ وما أكثرها ؟ فلربما يتضح أن تلك المباهج لها نفعها أيضاً وإن أكبر المباهج لكذلك .

ولنبدأ بتلك المباهج التى أعدها أكثر وضوحاً بل ربما أكثر بعثاً للمسرة لنعرف مثلاً كيف يكون التوفر على التاريخ مغنياً مخصباً فى تقديرنا للعالم الذى يحيط بنا ويقع تحت أنظارنا . إنه يضيف اهتماماً ومعنى إلى أشياء قد لا نكون ألقينا إليها بالاً ، ليس فقط إلى القرى والمدن والمنشآت — ككنيسة أو بيت قديم أو جسر (كوبرى) — بل حتى إلى منظر خلوى .

على بعد نصف ميل من بيتى فى كورنوول حقل — يعلو مباشرة مزرعة « حصن جوثا » على حافة الشواطىء الصخرية — حقل طالما عبرته فى خلال سنوات طويلة قبل أن أعرف شيئاً عنه .وكان ينبغى أن يثير اسم « حصن جوثا » ظنونى وأن يكون لى دليلا أو مرشداً . إنك تسير عبر المداخل القريبة الواقعة على الطريق المؤدية إلى ترينارن وتجد نفسك داخل حظيرة كبيرة مسورة وترى منظراً جميلاً للخليج ولكل الريف الداخلى حتى هضبة الصينى الصلصالية فإذا عبرت المداخل القريبة إلى الجانب الآخر وجدت نفسك داخل زقاق . إنه ماتخلف عن سد معسكر من معسكرات ماقبل التاريخ ذى متراس عريض يرتفع يسارك ويمتد بعيداً على شكل نصف دائرى . فإذا سرت أحسست تحت قدميك السكة المطروقة الصلبة التى تعبر الحقل إلى اللسان حيث يقوم شاطىء صخرى حصين واضح المعالم . وفى الحقل المترامى على الناحية الأخرى من منزلى حجر طويل عال وهو واحد من أجمل أنصاب (جمع نصب) كورنوول ومازالت له رعدة الخرافة والهيبة بين أهل تلك المنطقة .

ولقد أخبرتني امرأه ذات مرة : (لم يحدث قط فى صبانا أن لعبنا فى ذاك الحقل . ويؤكدون أن رجلاً شنق هناك يوماً ، وقد مضى على ذلك مئات السنين) . وعلى مبعدة على طول المنخفض الذى ينحدر إلى تشارلتون مجموعة من المقابر التى دفنها التراب والتى تقوضت عندما أنشئت الطريق المؤدية إلى الميناء .

وهنا تبدأ فى مشاهدة صورة من حياة الناس البُـدائيين حول هذا الخليج كما كانت قبل التاريخ ربما بين ١٠٠٠ قبل الميلاد و ٥٠٠ ميلادية : ترى معسكر حصن جوثا الذى كان « بلدتهم » ومعقلهم وترى معسكر الشاطىء الصخرى الذى كانوا يلوذون به كلما اشتد الخطب وهو برزخ بالغ الضيق يعبر اللسان يحميه متراسان عظيمان أو حصنان ، وترى فى الصخرة ينبوع ماء . وهناك النصب متجه شرقاً وغرباً — وهو تمثال جد مثير للعاطفة كلما غربت الشمس — ذلك النصب الذى كان محور طقوسهم الدينية والذى كان يتطلب ، فى أغلب الظن ، ضحايا آدمية ولقد كانت هناك مدافن قديمة تحت التراب درجوا على أن يدفنوا فيها موتاهم . . . من رؤساء قبيلتهم .

أنا لست من الواقفين على ماقبل التاريخ ، لا ولست من علماء العاديات . ولـكننى إذ أشاهد صُوَر تلك الأنقاض المتخلفة عن عصور ما قبل التاريخ وأقرأ قليلا عن تلك العصور فى كتاب جوردون تشايلد (جماعات ماقبل التاريخ فى الجزر البريطانية) أقر أن الصورة الكاملة قد عادت إلى الحياة أمام عينى ، ولقد أضفى على الحياة التى عيشت حول ذاك الخليج أبعاد متكاملة : حياة متواصلة لأولئك الأولين « لشعوب البحر الأبيض ، أى لأسلافى » وهم يعودون رأساً إلى ظلال الماضى السحيق المظلم الموحش غير المدون .

وما أشد ما تبعثه العصور المدونة تاريخها ، من الفتنة الطاغية ،فىّ أنا على الأقل

وأنا ـ خلال نافذة التأمل والتفكير ـ أنظر إلى الخارج رأساً عبر الأمواج الزرقاء ورءوس الخليج البيضاء الممتدة إلى ألسنة البر الداخلة فى البحر على ناحيتى المدخل إلى ميناء فووى وأتذكر مظهر تلك البلدة البهيجة فى العصور الوسطى ، وفى عهد الزابيث بكل ما فى تاريخها من تفصيل : وإن إهداء الكنيسة القديم إلى القديس فنباراس المولود فى كورك ليحدثنا عن التجارة الهامة التى كانت تلك البلدة تجريها مع إيرلندا فى العصور الوسطى . وكان التجار الأيرلنديين يكونون فرق دفاع هائلة للمستعمرين الأوائل الذين أنشأوا البلدة.

وكانت فووى ، فى العصور الوسطى ، أهم موانئ كورنوول : فلقد أرسلت تلك الموانئ ، تحت قيادة فووى ، أربعاً وسبعين سفينة إلى الأرمادا التى بها حاصر إدوارد الثالث كاليه فى سنة ١٣٧٤ ، وكانت تلك أكبر من أية نجـــدة أرسلتها أية بلدة أخرى باستثناء لندن . وفى الـكنيسة ، بمعبـــد ترفرى الصغير ، ومأثر جون ترفرى الذى حارب تحت إمرة الأمير الأسودفى بواجيه وانتزع العلم الملـكى الفرنسى والمعبد ملىء بذكريات أولئك التجـــار الأيرلنديين ذكريات الأخوين السير جون ووليم وتوماس الذين كان يعرفهم هنرى الثامن وكروموبل كل المعرفـة والذين قاما بدور هام إلى جانب حركة الإصلاح الدينى فى كورنوول . ومن فوق أبراج الـكنيسة يطل بيتهم الجميل (بليس) دافعت عنه ـــ فى شجاعة ـــ سيدة من أسرة ترفرى فى القرن الخامس عشر ضد الفرنسيين عندما حرقوا المدينة . وقد أعطى هذا البيت مكافأة بمناسبة الغارة التى شنها جون مكستو ورجال فووى المرحين ، على السفائن الفرنسية فى الخليج . وفى وسعك أن تقرأ عن ذلك

فى كتاب ك. ل. كنجز فورد الحصيف (التحزب والعهود فى القرن الخامس عشر).
وأنا عندما أسير عبر هذه الشوارع الكثيرة الزوايا المزدحمة النشيطة أفكر ، إذ أسمو بنظرى إلى نافذة (بليس) — تلك الواجهة الحجرية المزخرفة التى تطل على البلدة قاطبةً — عندما أسير فى تلك الشوارع أفكر فى قصـــة أخرى من قصص التاريخ الإنجليزى: إنها قصة خزائن ذهب فيليب الثانى المخصص لدفع نفقات عساكر ألفا بالأراضى الواطئة (هولاندا وبلجيكا) فى ١٥٦٩ أولئك الذين كانوا أسرى الملكة فى سالتاش وفووى . وكانت تلك الخزائن نفسها مودعة فى خزانات المستر ترفرى حتى بحث عنها ونقلت إلى برج لندن. وقد ثارت عساكر ألفا ابتغاء الحصول على تلك النقود فتنفست الأراضى الواطئة التى كانت تحارب فى سبيل حريتها ، وكان هذا نقطة تحول فى العلاقات بين انجلترا وإسبانيا .

ويقوم على الناحية الأخرى من المتنزه الذى يبدأ عند الكنيسة فنـدق (خان) السفن ، وهو بيت آل راشلى القديم القريب من المرفأ الذى كان مقر تجارتهم الرائجة فى أيام إليزابيث . وإنك ، فى الطبقة العليا ، ما يزال فى وسعك أن ترى أجمل غرف جون راشلى وزوجته أليس . وهذه غرفة تكسو حوائطها ألواح من خشب البلوط الأسود وبها رف مدفأة محفور تقيمه عمد على شكل فساء ،وتلك الأفانين من نبضات النهضة الأوروبية فى إيطاليا التى وصلت إلى هذه المنطقة الغربية الريفية القصية . وقد شيد هذا البيت فى ١٥٧٠ . وإن صاحبيه ليرقدان الآن فى سلام بالكنيسة القائمة عبر الطريق : أرليس تحت نحاسها الأصفر المحفور المصون فى أسفل المحراب وزوجها فى زى إليزبيثى أصيل : فى عباءة سوداء طوق من الريش الأبيض ، فوق مقبرته المنقوشة وكانت لهما سفينة صغيرة شهيرة (فرانسيس بلدة فووى) التى أمدتهما بكنوز من الثراء بوصفها سفينة صغيرة مسلحة تعمل فى تلك الفترة المضطربة بالبوغاز وخليج بسكاى وقد أقلع بها ولدهما إلى بلايموث ليقاتل الأرمادا عام ١٥٨٨ تحت

إمرة دريك . أما الجيل التالى فقد ابتاع أرضاً . هجر هذا الجيل بلدة فووى وتخلى عن التجارة واستقر فى شبه جزيرة جريبين الجميلة حيث شيد فى منابيلى بيتهم الذى ما يزال يشرف على البحر . ثم دهمت الحرب الأهلية هناك الجيل الذى جاء بعده . ومنذ ثلثمائة سنة على وجه التحديد ، من هذا الصيف الذى أكتب فيه،حوصر جيش أنصار البرلمان[1] تحت إمرة إسكس،حاصره فى شبه الجزيرة تلك جيش الملك تحت قيادته واضطرهم إلى الاستسلام . على أن ذلك لم يجر قبل أن أكلوا سائمة المستر راشلى وماشيته (التى بلغت إلى ١٠٠٠٠ رأس حسب دعواه) . ومن تلك الحقول ، التى كانت عندئذ مروجاً فسيحة،لا بد من أنه كان فى وسع المرء أن يرى جميع المحاربين يحتشدون فى هذا اللسان من الأرض .

وهكذا يستطيع المرء أن يستطرد ، غير أنى لست فى صدد كتابة تاريخ فووى وإنما عمدت إلى أن أبين لك كيف تدب الحياة فى المنظر الخاوى عندما تعرف التاريخ الذى يقف من خلفه . وكذلك فإن الأحداث الحربية ، كالحصارات والوقعات والحروب الأهلية وحرق المدائن ، لا تكفى وحدها لإلقاء الضوء على الموضوع . بل هناك ما يحرك النفس ويبعث الخيال فى الصناعة وفى المناجم التى كانت يوماً خلايا يصل فيها نشاط مئات الرجال ، تلك التى أقفلت الآن جميعاً ولم يبق منها إلا هيا كل محطمة لعنابر الآلات وإلا فضلات من مستودعات كستها الخضرة فى زمن ما . ويحضرنى فى هذا المعنى بيت من الشعر (معناه) :

« الأماكن الخاوية الآن كانت يوماً تموج بالحياة النضرة »

وفى الأرض الأمامية القريبة ، فوق الشاطىء الصخرى ، يبدو سقف منجم

---

(١) المنابذ للملك شارل الأول .

أبلترى (أى شجرة التفاح) وتجرى الحركة على بعد تحت الخليج . وإلى اليسار حيث تبسط كامْبِداونز (أى مروج المعسكر) الآن حلتهـا من الشجر الشـائك والغصون اللينة والدردار [1] هنالك منطقة تعدينٍ غنية تضم طائفة من المناجم . وكان عليها جميعاً أن تغلق أبوابها فى السنوات القليلة التى تلت ١٨٧٠ و ١٨٨٠ فهجر البلاد مئات من الرجال ليعملوا فى مناجم جنوب أفريقـا ومنتانا ومتشيجان وأستراليا . وعلى مسافة جد قريبة عبر حقل الحنطة يقع مسبك تشـار لستون وهو أقدم مسبك فى كورنوول وقد ظل يعمل بلا انقطاع حتى يومنا هذا. وما كل هذا — تطور المتدين بكورنوول فى القرن التاسع عشر ، والهجرة المحزنة للآلاف من المعدنين الـكورنووليين إلى جميع أنحاء العالم (وسوف تطلع على صورة واحد من تلك المناجم فى كتاب ستيفنسن (عبر السهول) — ما كل هذا غير جزء من قصة الثورة الصناعية التى تراها مفصلة مسهبة فى الـكتب الدراسية تحت هذا العنوان .

وكان من التجارب المريرة تعقب أخبار أولئك الناس الـكورنووليين عبر البحار إلى مستعمراتهم التعدينية القديمة فى أماكن مثل شبه جزيرة ميتشجان العليا وهى منطقة تعدين بهيجة فى وسكونسين ومثل جراس فالى (أى وادى العشب) فى كاليفورنيا ومثل بلاد الخيال كبلدة جيروم فى أريزونا . ولا مراء فى أن الحال كذلك فى كندا وجنوب أفريقيا وأستراليا . على أن الناس لا يكادون يقدرون الخدمات المفيدة المتعددة التى أداها الـكورنووليون ، على مر الأجيال ، لمصلحة الحياة فى أمريكا حيث يوجد فيها الآن من الـكورنووليين أكثر مما يوجدون فى كورنوول نفسها . وإذا أردت مثلاً لأسرة كورنوولية أمريكية شهيرة واحدة فاقرأ كتاب (أسرة بنروز) .

---

(١) الدردار شجر عظيم له زهر أصفر وورق شائك وثمر كالقرون .

ولئن لم يزد هذا على عُشر ما قد يتداعى إلى الذهن عند مجرد النظر من نافذة في كورنوول إلى جزء صغير من مناظر انجلترا لا يتمتع بأهمية خاصة فلك أن تتصور الفيض والحبور العظيمين اللذين يخبهما المرء من السير في شوارع بلدة كأكسفورد أو بريستول أو يورك أو كارليل أو إدنبرة أو لندن . وليس في مقدوري أن أشرع في إعطائك فكرة عما قد تجنيه إذا عشت في مكان كأكسفورد ، فهناك طبقات لا تحصى من الذكريات والمعاني المتداعية فمباهج استكشافها لا تقف عند حد. وليس الأمر أنني سافرت لاستكشافها عامداً — إذ إني اتخذت من كاورنوول المحل الذي اخترته لاستقصائي — وإنما الأمر أن هذه الذكريات والمعاني تتداعى إلى الذهن وتملأ كل دقيقة بالفائدة والإعجاب. فأنا — عندما أهبط الساحة المربعة الأضلاع — أفكر في المؤرخ (فرويد) وهو ينثني داخلاً بوابة (جميع الأرواح) ليجتنب حركة المرتفع التجارية وينعم بالهدوء كي يتأمل أكسفورد منذ ثلاثين عاماً ، أكسفورد في زمن نيومان والعجاليين [1] وإنه ليسعني ، وأنا في غرفتي أن أرى دائماً البرج الذي شيده نيومان في كنيسة سانت مارى ، كنيسة الجامعة ، التي تضم ذكريات أخرى مثل سحب كرانمار لإنكاره الديني وهو في طريقه إلى الخازوق ومثل دفن آمي روبسارت في مذبح الكنيسة . وعندما أمشي في المروج أفكر في الحرب الأهلية التي تستدعي إلى ذهني المناظر الآتية: الكولونيل (أمير الآلاى) الصغير السن وندباك يضرب بالرصاص إزاء سور المدينة الذي يكوّن الآن حد كلية ميرتون ، وميرتون قصر هنريتا ماريا ، والتجاء الملك إلى كنيسة المسيح . وقد فتحوا باباً في الحائط حتى يستطيع كل منهما أن يزور الآخر سراً . وكثيراً ما ألمح — وأنا أسير إلى المحطة متثنياً في أناة لأدرك

---

(١) العجالية حركة إصلاح دينية اعتمدت في نشر دعوتها على العجالات المطبوعة . اكسفورد ١٨٣٣ — ١٨٤١ .

القطار — برج القلعة النورمندى فيرتد ذهنى إلى جفري مواطن مونماوث الذى عمل كاهناً بالكنيسة الصغيرة المشيدة هنالك منذ القرن الثانى عشر والذى ألف كتابه عن (تاريخ ملوك بريطانيا) فى تلك الأيام النائية السحيقة . ولم يتأت لأى كتاب آخر — باستثناء الإنجيل وحده — أن يؤثر فى الأدب الأوروبى تأثيراً هائلاً بقدر ما أثر فيه هذا الكتاب . فهو مصدر ازدهار أسطورة آرثر فى كل فنون أوروبا الغربية ولغاتها الفرنسية والإيطالية والألمانية والإنجليزية والأسبانية ويكفيك أن تذكر ما فى لغتنا وحدها عن مالورى وسبنسر وعن تنيسون وأربولد وسوينبرن وهاردى الذين كشف عنهم ذلك الكتاب المكتوب فى القرن الثانى عشر فى مكان ما من تلك الطريق المنسية .

وقد يقال إن أكسفورد مكان له خصائص غير عادية كما هو الواقع إذا نظرت إليها نظرة خاصة .

لقد كانت تلك المدينة مصدر إلهام للمؤرخ الإنجليزى ج. د. جرين بعد ما عاش فيها صبياً : ولد هذا المؤرخ بتلك المدينة ، وتعلم فى مدرسة كلية مارية المجدلية ، وترعرع فى شوارعها ، وأحب كل ركن وكل ثقب فيها ، وأتم قبل أن يتخرج كتابة أول بحوثه الشهيرة (أكسفورد فى القرن الماضى) . وقد خرج هذا البحث فى شكل مقالات نشرت فى الجريدة المحلية (أكسفورد كرونكل) ، وكانت تلك المقالات صيحة قريبة بكتابه الشهير (موجز تاريخى للشعب الأسبـــانى) وإن تحفة كتلك لا تصدر إلا عن مبتدئ كهذا .

ويُعَد كل بلد قديمة حالة قائمة بذاتها . وفى كثير من تلك البلدان جمال . غير أنه ، مع الأسف ، أصابه تلف شديد ، لا بفعل برابرة التيوتون وحسب بل بفعل برابرتنا الذين لا يعرفون شيئاً عن التاريخ ولا عن الجمال . إنهم أناس لا يعلمون

شيئاً ولا يبصرون شيئاً ولا يفهمون شيئاً ولا يقدرون قيمة شيء . ولكل واحدة من كل تلك البلدان القديمة طابعها وجاذبيتها : تخيل نارتش وهى تغص بالكنائس تحس بأنها ما زالت مركزاً لتجارة القرون الوسطى . تخيل برستول بأصبعها على نبضات البحر وبكل تلك الرحلات تبحر منها إلى أمريكا وبأنصاب التجار التذكارية تقوم فى كنائسها . تخيل كارليـــل تملأ جوّها معانى اليقظة والوقار لأنها من مدن الحدود الحصينة هذه البلدة تكثر فيها التنزهات المطلة على البطاح وقلعتها تشرف على الأراضى التى يكثر الجدل حول تاريخها والتى تتاخم اسكتلندة . وإن المرء ليفكر فى مارى ملكة الاسكتلنديين وهى تشاهد من الحصون مباراة كرة القدم بين حاشيتها والحامية . تخيل يورك تفخر بأنها فخمة مترامية وبأنها عاصمة . . كم من الملوك دخلوا المدينة فى نصر أو هزيمة : وهنا لك الوجه المؤثر لرئيس حكومة الشمال، اللورد سترافود ، يتردد على البيت الجميل الذى كان يسكنه يوماً رئيس دير سنت مارى وثمة طيف وهمى تصورى أكثر نشـــاطاً وهو طيف الرجل العبقرى لورنس ستيرن الذى وجد صعوبة فى السمو إلى منزلة عمه العظيم أمين خزائن الدير (أو الكنيسة الأسقفية) . تخيل إدنبره أكبر بلدان هذه الجزر بعثاً للدهشة — إدنبرة التى تمتد على طول سلسلة الصخور الشائكة بين القلعة وهوليرود — ولكل من هاتين قصصها الدرامية مثـــل حجرة القصر الصغيرة حيث قطع اللوردات الاسكتلنديون (ريزو) تقطيعاً حتى مات فى حضرة ملكتهم ومثل أبهج ظل لذاك القلم السريع الذى كان يعدو عبر الصفحات ، وهو مؤلف « ويفرلى » المجهول .

وتخيل لندن . من الصعب على الشعب الإنجليزي أن يعرف لندن من نظرة سطحية أو أن يفهم طابعها . ونحن نسلم فى يقين بل فى يقين بالغ عميق بأن لندن هى آخر أسفارنا ومحط رحالنا ، إنها دنيا ، إنها مصير وثمة شىء فيها لا غنى عنه . ويقول راسموسن — وهو دانماركى شهير كتب عنها كتاباً شائقاً — إن طابعها الخاص بها لأقوى بكثير من طابع أية بلدة أخرى . وقد قدم تحية كهذى لويس

ممفورد أكبر الثقات الأمريكيين فى موضوع البلدان وثقافتها .

وإنك — إذ تزور مدائن كبرى ، كلندن وباريس وفينا وروما وأنتورب (أنفرس) وفلورنسة والبندقية (فنيز) والقسطنطينية (إستنبول) — لتصل إلى الأحداث التاريخية على مستوى دولى ، فذكرياتها ، عن أعظم الأحداث والرجال لا تنفد . وإذا أردت مرجعاً عن تطور البـلدان التاريخى وطبيعتها ودورها فى الحضارة فاقرأ كتاب (المدنية فى التاريخ) لمؤلفه لويس ممفورد .

لقد خرجت بك من التاريخ فى دائرته المباشرة إلى التاريخ والدور الذى لعبه على أكبر مسارح الشئون القومية والدولية . فلنعد إلى الحى الأبرشى . فهناك لا تنعم فقط بالسرور الذى ينتظرك عندما تبدأ فى فتح عينيك وفى تزويد عقلك بل تنعم كذلك بتقصى الأصقاع مع مشقة ونفقة تقل عن تتبع كلاب الصيد .

السير على الأقدام هو الرياضة المفضلة لدى « الحاذقين والحكماء » وليس هنا مكان تمجيدها وإطرائها فى ذاتها ومن أجل ذاتها . فلقد قام بذلك لزلى ستيفن وميريديث وقام به د. ل. ستيفنش و ج. م. تريفيليان وقام به ، خيراً من أولئك جميعاً هازليت . وأود أن أبرز نقطة لم يعالجها أحد منهم : إن السير على الأقدام هو سبيل تعرف الإقليم . وإنها لفائدة إضافية إلى جانب متعة السير أن يتطلع المرء إلى تحقيق غرض مفيد كالتجوال فى قرية قديمة ، والتريث فى كنيسة لتأمل الآثار والأشياء الجميلة ، وأكل الشطائر (أى السندوتش) بجوار مخاضة (أى مكان مائى يمكن عبوره) كان لها شـأن فى حروب الورد ، وانتهاك حرمة روضة قدر طاقتك لملء العين بمنظر القصر الريفى ، قصر تيودوري الطراز فى جمله تدرك فيه، إذا تفرست ، إضافات من طرز القرنين السابع عشر والثامن عشر

ويذكرك هـذا باستمرار إقامة الأسرة فيه عبر جميع التغييرات التى حدثت فى عهود الملوك الذين تسموا باسم هنرى أو إدوارد وفى عهود إليزابيث والملوك الذين تسموا باسم جورج . وفى وسعك بعد الظهر أن تستريح فى مكان فيه تستطيع أن تنظر من عل إلى المنظر العام . لڤيلا رومانية فى الوادى المنخفض أو أن تنتقل جانباً لترى دائرة من حجارة ربما كانت حجارة زولرايت الرابضة بشمال كوتلدوولدز التى لا بد من أن شيكسبير كان يعاود تأملها كثيراً بعيون متفحصة . ولك أن تتناول الشاى . فإن كنت فى ريفون فتناوله فى نزل قديم فى الرواق الذى مات فيه الفارس الشاعر سيدنى جودولفين . وإن كنت فى مقاطعة أكسفورد فتناوله فى المكان الذى قضى فيه جون هامبدن أخريات أيامه .

والمقاطعة تغص بما لا يدخل تحت حصر من الآثار والمبانى القديمة وبيوت رجال الحرس الملكى الريفيـة أو مزرعاتهم ومن مخازن الغلال والجسور (أى الكبارى) وحظائر الحيوان ولكل حى أبرشى كنيسته (القديمة فى العادة) وآثاره التذكارية تخلفت عن مجرى الأحداث وتيارات الحياة التى تدفقت فى خلاله . وكل نزهة يقع عليها اختيارك يمكن أن تضفى سحرها على أى عقل مثقف . ولا يصح المرء أن يكون عديم الثقافة مهما غلا الثمن فالحرمان من الثقافة يبعث فى المرء مللاً لا حد له واكتئاباً للذهن . وإن أصدق ما ورد عن دين إنج طوال حياته وأكثره فائدة لهو قوله: «المثقف حقاً لا يمل أبداً» . والثقافة تمد المرء فعلا بقوة ضخمة. تعود أجد أصدقائى ــ وهو العالم الأثرى والمؤرخ الكورنوولى، تشارلز هندرسون ـــ تعود منذ كان تلميذاً على أن يسير على قدميه أو على أن يستقل سيارة عامة أو قطاراً إلى حى أبرشى معين يستقر فيه طوال اليوم ويجتازه متتبعاً

حدوده متأملاً كل ما يهم فيه سواء أكان ذلك معسكراً أو دائرة هجرية أو بئراً مقدسة أو كنيسة صغيرة أو قرية أو مزرعة . وقد جرت العادة على العود إلى الحى نفسه مرات عديدة . وهذا هو ما أخصب وقوم وقوى معلوماته الفائقة فى دائرة الوثائق والوقائع الخاصة بالماضى . وبهذا لم يتوصل إلى معرفة كل حى أبرشى وكنيسة فى كورنوول وحسب بل كل مزرعة وحقل ، على وجه التقريب . وعلى هذا النحو يصنع المؤرخون . وليس أبلغ فى التعبير عن هذا المعنى من كلام ر. هـ. تاونى عندما قال إن التاريخ الاقتصادى ، فى الوقت الحاضر ، لا يتطلب وثائق بل يتطلب حذاءين متينين .

وفى أمريكا لا غنى عن مركبة ولو اقتصرت مهمتها على نقلك إلى مكان بداية الرحلة . وما يزال من الخير لك أن تعبر على قدميك مدينة تاريخية كفيلادلفيا مبتدئاً بالكنيسة السويدية القائمة فى أولها ميمماً أثراً جورجياً (نسبة إلى جورجيا) جميلاً ككنيسة المسيح ومنها إلى بهو النجارين ثم إلى السوق القديمة فإلى القلب وهو بهو الاستقلال . ولزيارة المبانى التاريخية ـ عبر شويكل فى الضواحى وما بعدها من مثل أندلسى بيدلز والنجود (أى الهضاب) ومتنزه جريم — لزيارة كهذى لا غنى عن مركبة . والكتاب الذى تأخذه معك ، إذا استطعت هو (فيلادلفيا ، صورة إحدى مدن المستعمرات) لمؤلفه هو وارد د. إبر لاين .

ويتوافر السرور كذلك باستكشاف أماكن لم يتطرق إليها الفساد بعد مثل نيوكاسل الشائقة وديلاوير ونيوبرى پورت وسالم ومساتشوستس . وإنما أذكر تلك لأنها أول ما ورد على ذهنى من أسماء البلدان . ثم يعود إلى ذاكرتى فيض من بلدان تضارعها روعة مثل الإرساليات الأسبانية فى كاليفورنيا ونيو أورليز ذات الخصائص الفطرية الذاتية وتشارلستون وسافاناه ، وإنها لتحيى لنا ذكريات

الحروب الأهلية المؤلمة بين العواصم المتنافسة ورتشموند وواشنجطون ووادى فرجينيا الكبير ومثل الجمال الذى تراه فى تشارلوتسفيل ومونيسيللو وماونت فرنون والفصاحة الصامتة التى يتحدث بها موقع جيمز تاون وميادين القتال فى فاليفورج وبراندواين وجتسبورج .

والمهم هو أنه يوجد فى كل مكان شىء يوقظ الخيال التاريخى ويشبع الحنين إلى الجمال.

ويأتى بعد ذلك القراءة . وربما كان ينبغى لى أن أتكلم عنها أولا ، إذ إن أغلب الناس يفكر فى التاريخ من واقع كتب تقرأ . ولكنى أود أن أسوق إلى مواطنىّ أن الأشياء التى نراها حولنا ــ مثل بلدة أو قرية أو كنيسة أو ميناء أو بقية من جدار بل مثل حقل أو مساحة من الأرض الخلاء ــ كل هذه وثائق تاريخية تضاهى براءة رسمية أو سجلاً أو حجة ملكية أو منحة أو وصية . وكثيراً ما يرتبط الاثنان ، كل منهما بالآخر : الأرض بحجة الملكية ، والبيت وأثاثه بالوصية ، والخلاء بالمنحة . على أن كلاً منهما يلقى ضوءاً على الآخر .

ووجه الأهمية فى الأدلة المكتوبة هى كونها فى العادة أكثر دقة وهى بطبيعة حالها ، تعرف الموضوع الذى كتبت بصدده . وكثيراً ما تحدد للمرء التاريخ أو المكان فى سياق القصة .

وإليك عبارة شهيرة مأثورة عن جروتشى كروش كثر حولها الجدل ، قال : «التاريخ بأجمعه تاريخ معاصر» ولست أظن أن هذه العبارة تتضمن من المعانى أكثر مما يلى : إننا لا نعرف الماضى إلا من الشواهد التى تعيش فى الحاضر ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، والتى يستوعبها عقلنا الآن كما قد يستوعب أية معلومات أخرى .

وهذه الفكرة ليست لها قيمة كبيرة بصفة خاصة . وهى تتضمن من المعانى ، بطبيعة الحال ، أكثر من هذا . على أن كثيراً مما تتضمنه محل جدل طويل ربما نستطيع العود إليه فيما بعد . وتناول التاريخ على هذه الصورة سليم إذا فسر تفسيراً معقولاً على النحو الآتى : ليس الماضى ميتاً ولا مغلقاً كمجموعة من سراديب الموتى الرطبة التى قد تدخلها أنت بطريقة صعبة غير ملائمة (وهى بعبارة أخرى كعدة امتحانات فى كتاب مدرسى غير سائغ) . إن التاريخ حى وينصب كله على موضوع واحد . موضوعه الحياة وملاذ الحياة بالذات . والإحساس بالتاريخ حنين إلى الحياة متحول فى حذق . وتلك هى الإجابة عن السؤال الآتى لبويك وهو واحد من أكبر المؤرخين المعاصرين أكاديمية ومن أعظمهم شاعرية فى الوقت نفسه : « كان الرعاة فى كل العصور يرعون أغنامهم ، فلماذا اضطرب أعمق اضطراب لأننى أستطيع أن أقتفى آثار مسيرة الأغنام التى كان يملكها رهبان فيرنسى ؟ لماذا يكون لأسماء أماكن مثل بيفرلى وجينسبره وثرابستون وتيوكسبورى موسيقى سخيفة فى القدم ولكنها مع ذلك مألوفة بشكل غريب ، موسيقى يتعذر معها التمييز بين نداء الكلام الإنجليزى الأصيل وبين أصداء مئات من المعانى المتداعية الملحة ؟ ... إنه معنى الماضى الذى يجيئنا من العصور الوسطى كما جاء إلى الأمريكى الصغير فى قصة هنرى جيمز عند ما أخذ يحوم حول بيته الذى شيد بلندن فى القرن الثامن عشر « معنى ماض واع يدرك بقدر مايدرك » . وكان المكان متحفاً ولكن متحفاً لانعكاسات مكبوتة . وسيظل التاريخ يغرينا ما وعينا « تلك الانعكاسات المكبوتة » . وسيظل الماضى يفلت منا ما بقى لغزوها ، وإنه لباق أبداً » .

وهذا يفتح موضوعاً آخر أكثر استخفاء وسنعود إليه .. بما أن التاريخ يهتز بالحياة وينبض معها ـ وقد قال كاركيل إنه خلاصة لسير عظماء لاحصر لهم ـ فقراءة السير وسيلة طيبة للبدء فى قراءة التاريخ ، وربما كانت خير الأشياء جميعاً للمبتدئين .

فكل امرئ يهتم بالشخصية وكل امرىء يحب القصة ، ولئن لم يفعل فهو حيوان خامل . وهذا يجعلنى أحبذ كثيراً الاهتمام بالسير فى تعليم التاريخ بالمدارس ولاسيما للأطفال . وكل امرئ يعلم ، أو ينبغى له أن يعلم ، أن أهم شىء هو إيقاظ اهتمامهم. وهذا لا ينطبق على الأطفال وحسب بل علينا جميعا . وإنه من ظاهرات علم النفس المعقولة أن التقاط المعلومات التى تسلينا أسهل علينا من التقاط غيرها . وإنى لأعانى مما تسميه الكنيسة حالة جهل منيع فى صدد أى شىء آلى لأنه لايدخل فى دائرة اهتمامى . ولكن حياة إنسان ، ولاسيما إذا كانت مما يحرك العواطف بشكل خاص ، تفتننى . ولقد كان لكل من الشخصيات التاريخية الكبرى حياة مثيرة . والفائدة التى نجنيها من مطالعة سير العظماء الأفذاذ — من أمثال الملكة اليزابيث الأولى وكروميل ونلسون وسويفت ووليم الصامت وريشيليو وبنيامين فرانكلين ولنكولن وآل روزفلت ونستن تشرشل — تلك الفائدة لا تقف عند حد . وهناك خطر جلىّ واحد من تعرّف التاريخ عن طريق قراءة السير ذلك أنك قد لاتظفر من الموضوع إلا بوجهة نظر واحدة . ولاتقاء هذا الخطر ينبغى أن تقرأ سير العظماء من وجهتى النظر إليها ، وذلك وفقاً لرأى تريفليان الذى قال : « سير المتنافسين من رجال السياسة والحرب والفكر — وبخاصة إذا جاءت فى كتب جيدة — غالباً ماتكون أقرب الموارد إلى وجهات النظر التى كونت حياة عصر من العصور أما قراءة « ستيريس باريباس »[1] — الذى هو سيرة من وجهة نظر مفردة — فيحتمل أن تضلل القارىء أكثر مما تضلله قراءة تاريخ العصر . ولكن الغالب فى بعض السير أن يثقف القارئ ثقافة عميقة تفوق تثقيف السيرة المفردة » .

---

(١) Ceteris Paribus

ولقد تناولت تناولا سطحياً وجه الاهتمام بالشخصية الإنسانية التى تثيرها وتشبعها السيرُ التاريخية . وفى الحق أنها — فى أعمق أعماقها وفى مجملها — تستهوى القارئ بقدر ما تستهويه شخصيات قصة ، شخصيات قصة عظيمة . ففى السير التضارب فى الشخصيات ، والأمور المشتركة — محببة كانت أو غير محببة — وميادين الحب والكراهية ، ومعارك بين المرء ونفسه ، واللاعقليات ، ومجد الولاء المنقسم . وفى السير كذلك التعقيد الخفى للدافع ، والقوالب الغريبة التى تنصب فيها حياة كل منا ، ومأساة وفاجعة كثير منهم على المسرح العام . والناس الذين أوردهم تلستوى فى (الحرب والسلام) لهم مثل انطباعات الناس الحقيقيين الذين أوردهم التاريخ . وفى الكتابات التاريخية يراعى ، دائماً وفى كل مجال ، تقييد الحق . وفى كل مزية بقدر ما فيه من تقييد . وتولستوى لم يلتزم الصدق وحده فى كتابته عن نابليون . وكانت النتيجة أنّ وصفه جاء بالغ الظلم شديد التحيز . فلقد كان نابليون ، مع عيوبه المعروفة ، أجدر بالاعتبار إلى حد كبير من أية صورة له قدمها لنا تولستوى . ولكنا إذا نظرنا ، من الناحية الأخرى ، إلى شخصية كشخصية بازاروف التى قدمها تورجنيف فى (آباء وأبناء) وجدناها تطابق تمام المطابقة صورة وردت فى «مذكرات» هرتش وتضارعها أصالة وإقناعاً .

ثم إن هناك متعة القصة وأهميتها لذاتها . وفى هذا المجال ربما كان المؤرخون المعاصرون أعجز من غيرهم . ولكن اللوم كله لا يقع على عواتقهم وحدهم ، إذ إن عجزهم يرد جزئياً إلى الزيادات الهائلة — فى الاقتصاد والاجتماع وعلوم العاديات — التى أضيفت على المادة والتى ينبغى أن يضمنها التاريخ الحديث . واتساع مجال التاريخ يعود بأكبر النفع . وكلما زاد هضم المادة الجديدة تحسنت طاقة المؤرخين المعاصرين فى مسايرتها . وربما جاز للمرء أن يتوقع لفن كتابة القصة أن يعود إلى مركز الصدارة فى الكتابات التاريخية . ومهما يكن فاشتراك كلمة التاريخ وكلمة القصة فى أصل

واحـــد (فى الإنجليزية History و Story) يدلك على أن القصة هى عصب التاريخ .

وجاذبية التاريخ ولذة قراءته من الأمور الجوهرية . وهو فى المجتمع قديم «وأساسى كشعر سير الأبطال ، كالإلياذة والأوديسة أو كالساجة[1] الإيسلندية . إنها قصة تسترعى الانتباه فى طفولتنا وفى طفولة الشعوب . أما اهتمامها بتحرى الصدق وتحديدها الحد الفاصل بين الأحداث الواقعية والخيالية ـ وبالاختصار تطور الكتابة التاريخية ـ فهو مرحلة لاحقة أكثر سفسطائية (أو زيفاً) . وقد تأخر ثيوديديس عن هومر قروناً عديدة ، وتأخر جيبون عن تشوس قروناً ومع ذلك وإن القصة فى ثيوديديس وجيبون هى التى تعصر الذهن . وإنها لتتسلل ، كمأساة غليظة معدومة الضمير، إلى نهايتها الحتمية كشأن ميريديث « جيش القانون الذى لا يتبدل » أو كشأن البحر عبر الخليج الماثل تحت عينى إذ أكتب .

ولكن هل كانت القصة محتومة ... لا تتغير ؟ هنا يبدأ تدفق التاريخ ، التدفق الحاذق السامى المدارك . وسنقتصر فى الوقت الحاضر على التعليق بأن جاذبية التاريخ تماثل جاذبية رحلات جاليفر . إنها جاذبية تنمو معك كلما نما عقلك ، وتنضج مع تجاربك الخاصة فى الحياة ، وتعمق ويصبح لها فى نظرك معنى أكبر كثيراً عندما يكتمل نضجك . وقد يكون لها فى دور الطفولة مثل ما للحكايات الخرافية أو قصص المخاطرات من جاذبية . وقد يصبح لها فيما بعد معنى فلسفياً . وهنا تبعث دراسة التاريخ كثيراً من الرضى . إنها دراسة تنمو معك . والموضوع الذى وسعه أن يسليك طفلا لن يتخلى عن مكافأتك بل إنه ليزجى فائدة أعمق للرجل الناضج .

---

(١) الساجة قصة شاعت فى القرون الوسطى عن بطل إيسلاندى وتدل فى العصر الحديث على قصة تشبه الساجة القديمة .

ولقد ملك أغلب المؤرخين ناصية فن القصة . لذلك سهل عليهم هذا الفن ، كما رأينا ، أكثر مما سهل علينا بعد ما استوعبنا المادة الكثيرة الحجم البالغة التنوع التى أدخلت فى كتبنا . ومع ذلك فالأمر لم يكن سهلاً قط ، لأنه يتطلب فناً ومهارة صنعة ومشقة طويلة . وقد أمضى جيبون السنين فى تعلم الكتابة ... ولكن ماذا كانت النتيجه ! ففي عصرنا هذا — عندما ينشط إلى الكتابة أناس كثيرون لا يتقنون الفن وعندما يعنى الكثيرون من كتاب التاريخ بالبحث عن مادة جديدة بجهد يفوق كثيراً عنايتهم بتصنيف ما يجدونه — فى عصرنا هذا لا يُولى هذا النوع من المؤرخين التأليف والأسلوب والتنسيق جهداً كافياً . وهذا ما يضيف صعوبة إلى قراءة ما يصنفه صغار الكتاب . قال شيريدان : « ولكن عيب الكتابة السهلة هو القراءة المضنية » . ولكن مثل تلك الصعوبات لا تعترض قارىء مكولى الذي بذل فى كتابته جهداً لا حد له . قال تريفيليان : « من جهة التنسيق أى من جهة التخطيط للكتاب — بحيث يستتبع الموضوع موضوعاً وتمهد الفقرة للفقرة — من هذه الجهة لا مثيل لكتاب (التاريخ) الذى ألفه ماكولى والذى ينبغى لكل من يصبو إلى كتابة قصة تاريخية أن يقرأه فى انتباه . »

ومن هنا يعد المؤرخون بين كتاب أغلب العصور الذين جمعوا بين النضج والسفسطة . ذلك أن التأمل فى الماضى علامة من علامات النضج وأن هناك شيئاً من السفسطة فى الرغبة فى الاقتصار على قول الصدق وهو التقييد الأساسى الذى يفرضه المؤرخ على نفسه . ولقد عد ثيوديديس من أعظم كتاب الأغريق فى الزمن القديم ، يأتى بعده بقليل هيرودوت وهو مؤسس تقليد آخر وأبو التاريخ الاجتماعى وعلم البشرية ويعد ليفى وتاسيتاس من كبار كتاب الرومان كما أن كومين وفراوا سار من كبار كتاب فرنسا فى القرون الوسطى وماكيافيللى وجويتشتارديني من كبار كتاب إيطاليا فى عهد النهضة العلمية : ومع أنه لا يوجد شيكسبير أو ملتن

بين المؤرخين الإنجليز فليس من غير المناسب كلية أن نعقد مقارنة بين كلارندن الذى هو أكبر استمد من الإنجليز تصنيف كتابات تاريخية — وبين ملتن فهما يتساويان فى روح البناء وفى حشد وتنظيم التجربة وفى تيار العاطفة الحق . ومع أن (الفردوس المفقود) شعر عظيم فربما يتفوق كلارندن فى الشعور الرومانسى [١] (أو الانطلاق) . وجيبون وهيوم من كبار كتاب عصرها . وكذلك كاركيل وماكولى وفرويو . بل إن المؤرخين الذين يقلون فى الأهمية — مثل ج . ر . جرين وكريتون وسيلى وأكتون — يعدون من الأدباء الممتازين . ويعد باركمان وبريسكوت وموتلى وهنرى أدامز من أمجد كتاب نيو إنجلند . وإن كل أولئك المؤرخين ، وكثيرين غيرهم ، ليقدمون لك مباهج الأدب .

وثمة وجه آخر لهذا الموضوع ، موضوع العلاقة بين التاريخ والأدب . فالمؤرخون لايشاركون فى الأدب مشاركة مباشرة وحسب بل إن المعلومات التاريخية لتدخل، فى تقييم الأدب ، بدرجات متفاوتة . وربما كان أقل دخولها : فى الشعر البحت أو فى الدراما، وأكثر دخولها: فى الأدب السياسى حيث يتقيدموضوع الكتابة بالتاريخ. وبما أن الإنجليز درجوا على الوعى السياسى منذ زمن طويل فقدتوافر لهم أدب سياسى غنى منوع من السير توماس مور وتيندال بيكون وهوكر ورالى ، ومن ملتن هوبز ولوك ، ومن سويفت وبيرك وهازليت وكارليل وجون ستيوارت مل .

وكذلك فى أمريكا حيث تكون الكتابات السياسية لفرانكلين وجون ديكنسون والجون آدامز وچفرسون وهاملتون وماديزون ومونرو — وهو صاحب القريحة العظيمة التى تدفقت فى وقت الثورة والتى خلقت فى (الفيدرالية) وغيرها ذكريات

(١) أدب يمتاز بحب الجمال والانطلاق من الوقعية ، ويسمى أحيانا بالأدب الإبداعى تمييزاً له .

باقية — كذلك تكون تلك الكتابات جزءاً من التقليد (الكلاسيكى) فى الأدب الأمريكى . غير أنه لدى قراءة كثير مما كتبه أولئك الرجال لا غنى عن الوقوف على التاريخ وإدراك ما يتكلمون عنه ومعرفة المصادر التى يتناولها الجدل .

ودولة الأدب ليست الدولة الوحيدة التى يكون التاريخ فيها مفيداً بل ضرورياً فقد تكون الحال كذلك بالنسبة للقصص : مثلا قصص سكوت وذرراثيلى أو كتابات ستندال وبلزاك أو بعض قصص فلوبير وتولستوى وتورجنيف . على أن الأمر لا ينتهى عند هذا الحد فقد تكون للتاريخ فائدة كبيرة فى فهم الدراما واستخلاص مسرة فيها ، مثل تمثيليات شيكسپير أو مسرح النهضة (رستوريشن) أو درايدن وكنجريف وجولد سميث وشريدان . ويسرى هذا الحكم على قدر كبير من شعر ملتون ودريدان ووردسورث وسكوت وبيرون . وربما كان كتاب ذى پريلود (أى التمهيد) أكبر عمل أدبى استمد نبضاته من الثورة الفرنسية ، وربما يتعذر فهمه على الوجه الصحيح من دون معرفة شىء عن علاقة وودْزورْث بذاك الحدث العالمى . بل إن كتباً أقدم أو ذات طابع أكثر شاعرية — مثل « ملكة الجن » لسپنسر و « أناشيد رعاة الملك » و « قصائد الملك القصيرة » لتنيسون — هذه الكتب وأمثالها أضاءتها لنا وزادت مسرتنا بها المعلومات التاريخية التى طرزتها والخلفية المعاصرة التى تصور قبساً منها . وقد تتذوق شيئاً من ذاك النوع الأخير حتى ولو كان من الشعر الإنشادى المحض مثل «سوق الجوبلان» لكرستينا روزتى . ثم إن رد الفعل الجمالى لعمل فنى ينعكس ،لأول وهلة ، من الأدب . وهذا لا جدال فيه ، غير أن التقدير التاريخى لا يتعارض وإياه بحال . إنه يكمله ويوسعه .

وإذن فقراءة التاريخ تفتح مجالات جديدة وآفاقاً تتصل بالخيال لاتقع تحت حصر ومتعة قراءته — على حد قول مكولى — «تجانس فى كثير من الأحوال السياحة إلى الخارج.

فالطالب كالسائح ينتقل إلى جو جديد من أجواء المجتمع ، ويرى أنماطاً جديدة ويسمع أساليب تعبير جديدة ، ويوسع إدراكه بتأمل أشكال كثيرة متباينة من القوانين والمؤثرات الفكرية والعادات المرعية. على أن أناساً قد يرحلون إلى أماكن بعيدة جداً ثم يقودون بعقول شديدة الانقباض كأنهم لم يتحركوا قط من بلدانهم الأصلية » . وعلى هذا المنوال يبنى ماكولى مناهضة على دراسة أعماق المجتمع ووصف الحياة الكاملة ، بقدر الإمكان ، لشعب من الشعوب دون أن يقنع بهيكل خامد من أسماء الوقائع وتواريخها وأشجار أنساب البيوت المالكة .

« من يريد أن يفهم تلك الأمور على حقيقتها يجب ألا يقنع بملاحظات على القصور والأيام الخطيرة وإنما ينبغى له أن يرى الناس العاديين كما يبدون لدى أعمالهم العادية ومسراتهم العادية ، وينبغى له أن يختلط بالجماهير فى البورصة والمقاهى ، وأن يحظى بالجلوس حول موائد المرح ومدفآت البيوت . وأن يطبق التعبيرات السوقية بل يجب ألا يحجم عن استكشاف كل شىء حتى ملاذات البائسين . ومن رغب فى كشف أحوال الجنس البشرى فى العصور الخالية ينبغى له أن يسير على هدى هذه المبادئ » . ذاك هو منهج مكولى فى مقاله المشرق عن التاريخ الذى نشره ، فى شبابه ، بمجلة إدنبرة . وعندما نضج أتم نواميه فى الباب الثالث الشهير من كتابه (التاريخ) عن حالة المجتمع فى عصره ، وإلى هذا ترد الحماسة التى قوبل بها كتابه ، وقد صرح مكولى نفسه بقوله : « لن أرضى عن نفسى حتى أجئ بشىء يحل ، فى بضعة أيام ، محل آخر قصة عصرية عن الشابات » . وقد نجح فى إصدار كتاب استرعى أنظار عالم المتكلمين بالإنجليزية ، كتاب لم يتضاءل الإقبال عليه طوال القرن الماضى .

ونحن ، فى النهاية ، نرى أن التاريخ مزاج من الحقيقة والخيال يصور الحقائق يلفها كما قد يلف البحر الصخور التى تعلو الشاطئ . ومجال الذهن تفسير الوقائع

وتذليلها حتى يسهل تناولها وتستخلص أهميتها ، وسنعود إلى ذلك فيما بعد . ولكن كما قال تريفليان: «الأصل فى جاذبية التاريخ أنه خيالى فخيالنا يصبو إلى النظر إلى أسلافنا كما كانوا فى الواقع يمارسون أعمالهم اليومية ومسراتهم اليومية ... ودراسة التاريخ تفصيلا هى التى تحدونا على الشعور بأن الماضى حقيقى كالحاضر . . . فبالدراسة وحدها نستطيع أن نرى من سبقونا ، من قدامى وحديثين ، بعاداتهم كما جروا عليها فى حياتهم : منكبّين على أعمالهم طوال يوم طال ثم انقضى ، وخارجين راكبين لإبداء ولاء أو للإدلاء بصوت انتخابى ، أو مغتصبين منزلاً لجار لهم واضعين إياه تحت حراستهم ، أو تاركين بطاقات لسيدات يلبسن التنورات . . . والصدق هو مقياس الدراسة التاريخية . ولكن الدافع إليه ذو طبيعة شاعرية ».

ومن حسن الحظ أن المؤرخين استشعروا ذلك ، هذا وإن لم يكن يستطيع أغلبهم — أو ربما لم يرد أغلبهم — أن يعبر عن ذلك . والحقيقة أن تجربة أحاسيسنا القلبية بالتاريخ أقرب إلى الشعر مما نظن وإن كنت أعتقد ، فى الواقع ، أن جوهرهما واحد . ولحظة التجلى التى عبر عنها وودسورث فى « دير تلترن » وفى أنشودة «إيماء إلى الأخــلاق » والتى تكررت مراراً فى « التمهيد » لا تختلف فى جوهرها عن لحظة المناجاة والإدراك الحسى فى لب تجربة المؤرخين ، ولقد عبر عن ذلك المؤرخون ، ولكنى أعلم أن الكثيرين ممن ليسوا مؤرخين يشاركون فى هذه الأحاسيس ويعترفون بها . وقد سجلها فرود فى فقرة من كتابه (التاريخ) اشتهرت بحق ، قال :

« ذلك أن تغييراً يوشك ، بالتأكيد ، أن يقبل على العالم ، تغييراً معناه واتجاهه ما يزالان مستخفيين علينا ، إنه تغيير من عصر لعصر فلقد دمرت المسالك التى وطئتها

أقدام الحقب ، واتخذت الأشياء القديمة طريقها إلى الزوال ، وأخذت مذاهب عشرة قرون وحياتهم تذوب كأنها حلم ، كما أخذت الفروسية تموت . وقد حق على الدير والحصن أن يلحقهما الدمار فى وقت معاً ، واتخذت صور الدنيا القديمة ورغباتها ومعتقداتها سبلها إلى العفاء إلى غير رجعة ، وبزغت شمس قارة جديدة وراء البحر الغربى ، وتردى سطح السماء المرصعة بالنجوم فى مهواة غير محدودة لا يحاط بحداها ، والدنيا الوطيدة ذاتها استرخت من أساسها وبدت كأنها ذرة لا تراها العين فى رحب الكون المريع ، ولم يعد الجنس البشرى قادراً على البقاء فى مصنع العادات الذى درج مثابراً على بنائه لنفسه .

« والآن ذهب كل شىء كما قد يذهب عرض وهمى زائل وأمسى بيننا وبين الإنجليز القدامى خليج من الألغاز لن يستطيع نثر المؤرخ أبداً أن يقيم عليه جسراً متيناً . إنهم لا يستطيعون أن يأتوا إلينا كما أن خيالنا لا يستطيع أن ينفذ إليهم إلا هوناً ما . وكل ما هنالك أننا — بين الأجنحة الخاصة فى كنائسنا ، وقتما نشخص بأبصارنا إلى أبدانهم الراقدة على مقابرها — تطفو أمام أخيلتنا فكرة هائلة عن أولئك الناس عندما كانوا على قيد الحياة . وربما بعث فينا مثل تلك الأخيلة رنين أجراس الكنائس ، التى وجدت فكرتها فى القرون الوسطى ، ذلك الرنين الذى يطن فى آذاننا كأنه صدى عالم مغيب » .

ولقد تأخذنا التجربة فجاءة عندما يذكرنا بالماضى شىء ما . ولا يتحتم أن يكون ذلك الشىء هو نثر كبار المؤرخين الواعى . بل قد يكون تاجراً بسوق بعيدة فى كاليه فى القرن الخامس عشر يكتب لعزوسه فى مقاطعة أكسفورد :

« أكثرى من أكل اللحم دائماً حتى تقوى وتسمنى وتكونى امرأة ... وحيى خرسى تحيات طيبة واطلبى إليه أن يعطيك من عمره أربع سنين ليساعدك كذلك

وسأعطيه أنا لدى عودتى من خبز الخيل أربعة أرغفة تعويضاً له. قولى له إننى أتوسل إليه أن يحقق رجائي هذا . . . وليجعلك الله القادر على كل شيء امرأة صالحة ويزيد عمرك أعواماً عديدة سعيدة ويطيل بقاءك فى صحة وفى فضيلة ابتغاء مرضاته . كتب فى كاليه أول يونيو وقتما ذهب الجميع لتناول غدائهم وعندما دقت الساعة الظهر ونادانى كل من بالمنزل لأنزل « انزل حالاً لتتغدى » أما جوابى لهم فتعرفينه من زمان » .

إن قلب المرء ليقف بلا حراك : إنها إحدى اللحظات التى فيها ينتقص الزمن ولاءه لنا ، وإن شعورنا نحو ذاك الرجل المتوفى منذ قرون لهو شعور نحو أنفسنا ، إذ نحس بأن حياتنا نحن آخذة فى الإفلات كحياته . وحب التاريخ تعبير عن حب الحياة . إنه تعبير لا يقل جمالاً بل يزيد توقداً لأنه يتحول عن حب الحياة تحولاً مستتراً .

الباب الثالث

موضوع التاريخ

يمكن التفكير في التاريخ من وجهتي نظر . الوجهة الأولى على أنه وسيلة للنظر إلى الأشياء الأخرى، من أول الجانب الدنيوى المحض لأى شيء ، أى من الكون إلى سن القلم الذى أكتب به . ولكل شيء تاريخه . هناك تاريخ الكون لو توفرنا على معرفته ، ونحن إنما نعرف منه القليل دون الكثير . على أنك عندما تنعم النظر فى المقارنة بين الكون وسن القلم لا تجد فرقاً هائلا . فسن القلم ، على صغر شأنه ، له تاريخ طويل . هناك أولاً ما كتب به وقد يكون شيئاً بالغ الأهمية . وعلى أية حال فربما صح أن هملت كتبت بقلم واحد من ريش الطير أو بقلمين . وكل ما كتب بسن القلم يكون جزءاً من التاريخ . وهناك ، فوق ذلك ، تاريخ صنعه . فهذا السن بالذات شعاره التجارى ريليف (أى إسعاف) رقم ٣١٤ ومن صنع د . إستربروك وشركائه بانجلترا . وأنا لست واقفاً على مراحل تطور هـــذه الصناعة ولكن فى استطاعة المرء أن يتعلمها وبذلك يلم بتمهيد لتاريخ الثورة الصناعية . وهناك بعد ذلك المعادن المختلفة التى دخلت صناعة سن القلم ، هناك الحديد والقصدير والنحاس . ولنقل إن الحديد جاء من السويد والنحاس من إسبانيا والقصدير من الملايو . وعلى أية حال يرى المرء أن تاريخ سن القلم الصغير الشأن يجر إلى تطور الصناعة وإلى معلومات جغرافية وجيولوجية ، ولا علم لنا بما يجر إليه غير ذلك . وفى الواقع أن سن القلم يتضمن العالم وقصته تتضمن قصة الكون .

ولنا أن ندخل فى الاعتبار هذه الوجهة وهى النظر إلى التاريخ على أنه مظهر وقتى لكل شيء : لسن القلم ، للكون للحقل الماثل أمامى إذ أكتب ، لشخص (ربما كان شخصك الذى يقرأنى الآن) ، لمجمع ـــ للكنيسة التى تتبعها أو للبلد الذى تأتى منه ـــ لنا أن نفكر فى تلك الأشياء على أنها تصور نسبى للتاريخ .

وهناك ، ثانياً ، ما قد نسميه النظر إلى التاريخ من ناحية الكيان ، ومعناه

المعتاد ، التاريخ نفسه بوصفه موضوعاً يدرس لذاته .

فما التاريخ إذن بوصفه موضوعاً يدرس لذاته ؟

لقد قدم لنا السير تشارلز فيرث شيئاً نبنى عليه : «التاريخ شىء لا يسهل تعريفه ولكن يبدو لى أنه سجل لحياة المجتمعات الإنسانية وللتغيرات التى اجتازتها تلك المجتمعات والأفكار التى تحكمت فى توجيه نشاط تلك المجتمعات وللظروف المادية التى ساعدت أو عاقت تطورها » .

وهذا يعطينا تعريفاً عملياً فعالا ، ليس جامعاً مانعاً بالضرورة ولكنه محور للموضوع على أية حال . ولنلاحظ أنه أوسع بكثير مما قد تنتظره من مؤرخ قديم الطراز من القرن التاسع عشر. لقد كان فيرث مؤرخاً أكاديمياً نهل من أصفى الموارد ولم يبد أى إذعان للقارىء أو لأى شخص آخر. وقد توفر على أدق مقاييس التضلع وكان له نظرة احساس متفحص ناقد ونصل فكرى بتار . وهذا — بالإضافة إلى القليل من العيب الذى يشوب طبيعته الانفعالية ، وهو صلابة الرأى التى يتصف بها أهل الشمال — وهذا العيب كبت مقدرته بوصفه كاتباً . وكان من نساك اللاشخصية (أى من غلاة عدم التحيز) فى التاريخ وكأنما يسعك أن تنزع عنك شخصيتك) مهما حاولت أن تكون لا شخصياً ! ونجم من هذا أنه أمسى أروع مثل للمؤرخ المنقب فى زمانه وليس بالضبط أروع مؤرخ . لقد كان ، حقاً ، مؤرخ المؤرخين بقدر ما كان شاعر مثل سبنسر وصفوة أترابه بلا منازع أو بقدر ما كان فلوبير قصاص القصصيين . ولقد جعل فيرث من نفسه قدوة مذهبه الكاثوليكى فى التضلع العلمى . ولم يتح لأحد قط فى زمانه ، فى القرن السابع عشر ، أن يعرف أكثر مما عرف . نعم لقد عرف أكثر مما عرف ماكولى ، وقد امتدت تلك المعلومات المفصلة المدهشة إلى الأمام حتى شملت ردحاً طويلاً من القرن الثامن عشر وامتدت إلى الوراء حتى شملت ردحاً طويلاً من القرن السادس عشر . وقد أعد نفسه ليعرف

كل ما يمكن معرفته عن عصره ، لا عن الوثائق المطبوعة والمخطوطة وحسب ولكن من الأدب كذلك .

ومع أن فيرث كان من طراز المؤرخين الأكاديميين فقد كان في واقع أمره كاثوليكياً وجامعاً مانعاً أكثر من الكتاب الماركسيين الذين ينتقدون الطراز دون أن يستطيعوا تقديم أنموذج أفضل منه . وقد شملت كتاباته كثيراً من مناحي المعرفة في عصره وجال لا في ميدان واحد من ميادين التاريخ لا يتعداه بل في ميادين عديدة . ويدخل أكبر كتبه (أخريات سني الحماية) الذي جعله امتداداً لتاريخ جاردنر — يدخل في دائرة التاريخ السياسي . و (مجلس اللوردات في أثناء الحرب الأهلية) مدد هام للتاريخ الدستوري . وكتابه (جيش كرومويل) معيار قياسي للتاريخ . وتعد « حياة أوليفر كرومويل التي أوردها » تعد من أوثق السير . وله كثير من المقالات والدراسات والنشرات التي لا تعد فقط إمدادات لتاريخ الأدب بل التاريخ الاجتماعي كذلك . ومع أنه لم يكتب في التاريخ الاقتصادي بوجه خاص فإن بحثه (لندن في الحرب الأهلية) يشهد على تقديره لأهمية العامل الاقتصادي .

وكانت ليورك بوويل — سلف فيرث في أكسفورد — فكرة مماثلة واسعة المدى عما يجب أن يشمله موضوع التاريخ ، هذا وإن لم ينجزه في الكتابة الهزيلة التي قال فيها : « إنه يتناول أحوال الجموع البشرية التي تعيش في وضع اجتماعي معين ويعمل على تعرف القوانين (أو النواميس) التي تحكم تلك الأحوال والتي تحدث التغيرات التي نسميها الارتقاء والاضمحلال ، والتطور والانحلال — وذلك لفهم النسق الذي يكون أو يعوق ، تدريجاً أو فجاءة ، تلك التكتلات الاقتصادية والسياسية التي نسميها الدول — كما يحاول تعرف العوامل التي تؤثر في النزعات المتباينة التي تبدي قوتها أوقات مختلفة » .

وقد تطورت هذه الآراء التعاطفية الواسعة المدى — ربما متأثرة بانعكاس واع — لقصر دائرة التاريخ على التاريخ السياسى . وكان رسول هذا الرأى سيلى الذى اعتاد على أن يؤكد لتلاميذه أن (تاريخ خزف مقاطعة ستافورد « ليس » تاريخاً) . ولم يكن يهتم إلا بحياة الدولة وإلا بالمنازعات التى تحدث بين الدول على السيطرة والسلطان ، وذلك لتأثره بالنماذج الألمانية . وبما أنه لم يكن كاتباً ألمعياً فإنه لم يدخل التاريخ فى دائرة الأدب . وقد دون تريفليان اعتراضاً عندما علم فى رزانة ، وهو بعدُ طالب فى كمبردج ، من مؤلف « إكوهومو » (أى هوذا التجانس) أن ماكولى وكارليل لم يعرفا عن ما كانا يكتبان وأن « التاريخ الأدبى شىء لاطائل تحته » . ولم يجن تريفليان من رد الفعل إلا خيراً ، إذ حفزه لإنجاز إنتاج ضخم لا يعد تاريخاً وحسب بل أدباً كذلك .

وعلى هذا يكون التاريخ ، بوجه أخص ، سجلاً لحياة الناس فى المجتمعات فى بيئاتها الجغرافية والطبيعية . وإنما تتشكل بيئاتهم الاجتماعية والثقافية نتيجة التشابك بين البيئتين : المجتمع والأحوال الجغرافية .

وهذا يعد المرء بأساس التاريخ . وهو لا يكوّن الخلفية وإنما يكون القصة نفسها ، قصة المجتمع البشرى أو قصص المجتمعات البشرية . وعلى هذا الأساس يقوم كل ما فى التاريخ من تنوع وتفصيل . والفرد إنتاج اجتماعى : فالابن الذى يولد لوالدين معينين فى ظروف معيشية معينة ويصبح عضواً فى أسرة معينة بخصائصها المعينة ، هذا الطفل الذى ينسب إلى طبقة من المجتمع معينة تصيغه وتشكله المدرسة والأصحاب والكنيسة والجامعة . والعكس صحيح أيضاً : يتكون المجتمع من أفراد ويتكون التاريخ من ملايين من الحوادث والفرص المعينة . ويؤمن بعض المدارس الفكرية بالنظرية الأولى بينما يؤمن البعض الآخر بالثانية . وعندى أنه لا يوجد ، فى مفهوم التاريخ الصادق ، صراع حقيقى بين الجمهور والفرد . فكل منهما متمم

للآخر . والجمهور أهم فى تحديد مجرى الحوادث الطويل المدى . وفهم حركات الجماهير فى المجتمع أهم من « فهم » التاريخ . أما الفرد فهو أهم من حيث القيم ، إذ إن مستوياته هى التى تحدد قيمة تلك الحركات . وحياة الفرد هى أهم الأمور فى التجارب البشرية ولعل فى وسعنا القول بأن أهمية الأول ثقافية وعلمية وأهمية الثانى روحية جمالية . والعبرة بالزاوية التى تنظر منها إلى الموضوع وبالناحية التى تكون أنسب وأحق بالأولوية .

وصلنا إلى فهم التاريخ على أنه تاريخ المجتمع بصفة شاملة ولكن لا فيرث ولا يورك بوول التزم رأيه . بل إن الأخير لم يحاول ذلك قط . والسبب فى هذا يمكن إدراكه وهو الصعوبة الفطرية التى تحول دون ذلك . وأنا أقدر تلك الصعوبات بعد ما حاولت عمل أنموذج للتاريخ الشامل فى كتابى (كورنوول فى عهد آل تيودور) واتبعته بعد ذلك بكتابى (إنجلترا فى عهد إليزابيث) . ووصف مجتمع كامل من شتى الوجوه — كبيئته الجغرافية وأساسه الاقتصادى ونظام الأرض والصناعة والبناء والإجتماعى والأحداث السياسية والحياة الاجتماعية والدينية والثقافية — يحتمل إنجازه إطلاقاً وعلى الوجه الأكمل بالنسبة لمجتمع صغير وعلى مقياس مصغر . فإذا اتسع المقياس إلى درجة كبيرة فإن إنجازه مع التوفر على البحث المادى التصورى يكاد يكون مستحيلا . وربما يصبح مثل هـذا العمل تجميعاً ويفقد وضوح الشخصية . ومع ذلك فالدافع إلى هذا النوع من التاريخ الشامل الذى يبين عن كل نواحى المجتمع لا يحتمل الخطأ فيه ، والفكرة التى وراء تاريخ اكسفورد الجديد لانجلترا تعكس ذلك الدافع ، هذا وإن صعب على سلسلة من الكتب المدرسية أن تشجع المؤلفين على السير على هذا المنوال . وأنك لتجد مثلاً أوفى وأشمل فى الجزء الأول من كتاب هاليفى (تاريخ الشعب الإنجليزى فى القرن التاسع عشر) الذى تخصص

فى وصف أحوال انجلترا فى سنة ١٨١٥ . ثم إن تريفليان قدم تحفة بكتابه (انجلترا فى عهد الملكة آن) .

والآن وقد أعلنت عطفى على حركة كتابة التاريخ الشامل أعود إلى التاريخ السياسى . وبما أننا متفقون على أننا إنما نصور حياة المجتمع كله — بحركاته ومنازعاته وأخطائه ومآثره وعشائره وأفراده — فقد أصبح واضحاً أن السياسة تتبوّأ مركزاً ممتازاً ، إذ على مستواها ترسم كل هذه الأمور وتنفذ . وتتألف السياسة من سلوك الناس العام بين الجماعات . إنه مجال العمل فى المجتمع وله الأهمية الكبرى فى حياته . وعلى هذا المنوال ينبغى أن يكون التاريخ السياسى هو العمود الفقرى للتاريخ . والتواريخ الكبرى — مثل ثيوديديز وجيبون ومكولى — كلها تواريخ سياسية .. وبين طيات الانعكاس المعاصر ضد التفسير السياسى البالغ الضيق يتعرض التاريخ لخطر النسيان ولهذا أرحب بقول السير جورج كلارك : « وأتجاسر على القول بأنه ما يزال ينبغى لنا أن نتناول حياة كل مجتمع تناولاً إجمالياً . وكثيرون من المؤرخين ساخطون على الطريقة القديمة التى تحسب أن التاريخ السياسى الدستورى هو الخيط الذى يتوسط التنوع . وقد أثبت التاريخ الاقتصادى حقه فى تبوّئ مكانة سامية . والتاريخ الاجتماعى يلح فى إثبات مكانته . ولكن الناس لا يعبرون عن إرادتهم للتحكم فى الحوادث إلا فى المجتمعات العامة . ولهذا يبدو لى أن المؤرخين يخطئون إن هم حاولوا أن يحللوا التاريخ السياسى والدستورى إلى عناصر أخرى كما أن رجال الخبرة عندنا يخطئون إذا هم تأثروا بتيار النمط الجارى الذى يتناول الصالح ووجوه النشاط « الثقافى » كما لو كان ممكناً فصلها فصلاً كلياً عن شئون الدول . فيجب أن يكون تاريخ المجتمعات مركزياً على صورة ما » .

وهذه العبارة الأخيرة تفتح أمامنا الباب لتعاريف أخرى . والتاريخ السياسى

والتاريخ الدستورى متقاربان أيما تقارب : فالتاريخ السياسى سجل الأحداث العامة الجارية فى حياة المجتمع . والتاريخ الدستورى يقـــدم لك حكاية نظمة وشرائعه والقالب السياسى والإدارى الذى يضم المجتمع بعضه إلى بعض ويؤهله للعمل . ويضيف البعض فروقاً أخرى بين التاريخين الدستورى والإدارى ولـكن لا داعى لأن يشغل المرء باله فى هذا الصدد لأنهما واحد فى واقع الأمر . وقد حدث فى القرن التاسع عشر — بسبب التغيرات السياسية التى أخذت تجرى إذ ذاك — أن دراسة التاريخ الدستورى خطيت بقوة دافعة هائلة . وفى هذا المضمار تخصص مؤرخان وهما ستبز الذى ألف كتاباً شهيراً فى (تاريخ انجلترا الدستورى) وميتلند . ثم عمد الجيل الذى جاء بعـدهما ، وعلى رأسه توت ، إلى التركيز على الأنظمة والشرائع التى كانت أقل شأناً وإلى ملء الثغرات وإعادة تفسير بعض الشواهد . وعلى هذا يسع المرء أن يقول ، غير جائر ، أن التاريخ الإدارى نوع من التاريخ الدستورى ولـكنه أقل منه أهمية وإنه أهل لأن يكون أقل استرعاء للنظر .

وربما كان أشهر الأمريكيين الذين كتبوا فى التاريخ الدستورى هو ك . ه . ماك إلوين الذى اشتهر بين العلماء بروح فلسفية قوية . ولنا أن نستشهد ، على سبيل المثال ، بمؤلفات ج . ب . آدامز — و — ج . ف . بلدوين فى الأنظمة والقوانين الإنجليزية . وفى صدد القوانين النورمندية هناك الـكتاب الخالد الذى ألفه مؤرخ القرون الوسطى الممتاز ك . ه . هاسكينز وهو مصدر وحى للـكثيرين من المؤرخين فى ذلك النوع من الدراسة . وفى شأن المصادر الدستورية . التى عرضت للثورة الأمريكية يصح أن تقرأ الجزء الحادى عشر من تاريخ الإمبراطورية البريطانية الأولى الفخم الذى كتبه لورنس . ه . جيبسون . وعن الجيل الذى

يصغره سناً كتاب وضعه ميريل جنسين و ا . س . مورجان فى موضوع النزاع الدستورى الذى أدىٰ إلى الثورة .

وبما أن التاريخ السياسى هو سجل الأحداث العامة فإن تاريخ حياة الزعماء الذين شاركوا فيها والذين كثيراً ما صنعوها هو نهج يمهد لدراسة تلك الأحداث ، نهج لا يمتاز بالجاذبية الذاتية وحسب بل ربما كان أنسب للموضوع من كثير من أية دراسة أخرى فى التاريخ . وسيكون لتاريخ حياة أولئك الذين توسطوا الأحداث – أولئك الذين كان لهم أكبر الأثر فى توجيهها – سيكون لهذا التاريخ أكبر الفائدة وأعظم التبيين . ويمكن أن تكون سيرة لينين تقدمة مفيدة لتاريخ الثورة الروسية ، وسيرة كرومويل تقدمة لتاريخنا عن الحرب الأهلية والثورة فى القرن السابع عشر . ومن أمثال سيرَ (هنرى الثامن) و (ولزى) لبولارد ، و (الملكة إليزابيث) لنيل ، من أمثال تلك السير قد يتعلم المرء قدرا كبيراً من التاريخ السياسى فى عهد أسرة تيودور . ومن سير « رسميته » كهذى — أى السير التى يعتمدها أناس هم حجة فى الموضوع والتى استمدت من وثائق شخصية ، مثل (جلادستون) لمورلى و (ذررائيلى) لمونى بنى وبا كل — من سير كهذى قد يتاح للمرء أن يتعلم أكثر وأكثر عن سياسة القرن التاسع عشر .

والتاريخ الدستورى أقل تعرضاً للأشخاص بدرجة كبيرة . ومع أنه يتضمن سير الزعماء — وقد يلقي على سيرهم ضوءاً كبيراً — فإن دراسته عن طريق السير ليست هى الدراسة المناسبة . فموضوعه تاريخ الأنظمة والشرائع . والنظام (أو الشريعة) له سيرة خاصة به . وفى ظنى أن من المستطاع مقارنته بتاريخ نوع أو فصيلة فى العلوم الطبيعية . وأولئك الذين يحبون مثل هذه الأشياء أهل لأن يحبوه حباً جماً . ولكنى فى هذا المجال أحب أن أسوق كلة تحذير واحدة . درج كتاب التاريخ الدستورى فى القرن التاسع عشر — أمثال

هلام وكورنيوول لويس وإرسكين وماى وستبز وميتلند — درج هؤلاء على أن لا يقطعوا أبداً صلتهم بالحياة وبنوع الشئون التى كانوا يكتبون عنها كالشئون العامة والمصادر الدستورية . كان كورنوول لويس وزيراً وأتيحت له التجاريب فى وظائف عديدة ، وكان إرسكين ماى كاتباً فى مجلس العموم وكان ستبز أسقفاً ، وحتى ميتلند — وهو أخلص العلماء — مارس وظائف سياسية حال دون متابعتها سوء صحته . ولهذا تنبض كتبهم بالإحساس بالشئون العامة وبمعنى الأنظمة والقوانين وطريقة سريانها . وكثير جداً مما كتب فى أيامنا هذى عن التاريخ الدستورى يكتبه أناس لا صلة لهم بالشئون الجارية ، أناس يرابطون فى خزانات الكتب لا فى مجالس الوزراء . وهم أهل لأن يجعلوا الأنظمة والشرائع غاية لا وسيلة وأن يجعلوا بيانهم عنها بعيداً جداً عن واقع الحياة بحيث يصبح فى بعض الأحيان جسماً لا قوام له ويمسى فاقد الحياة . وذلك يخالف كل المخالفة (التاريخ الدستورى) لهلام الذى ينبض بالإحساس بأحداث العصر الحية ويخالف ما كتبه ستبز وإن لم يتعد العصور الوسطى فى أجزائه الثلاثة . لقد اغترف ستبز من ذخيرة موفورة من حسن الإدراك ومن تجربة للحياة زاخرة بالحيوية الدافقة والتحليق الرائع . بل إن ميتلاند نفسه — الذى كان قدوة المتخصصين النقبين — كان يفيض حياة وإشراقاً . إنه عبقرى كانت لاستقصاءاته والتجارب الجديدة التى تكشفت له ، فى أغلب الأحيان ، إثارة كإثارة القصص الجاشوشية للمؤرخ وإن ميتلند ليأتى بنا إلى أرض الحدود الخلابة التى تفصل بين التاريخ الدستورى والقانون — وقد تمرّس بالمحاماة — وبين التاريخ الاقتصادى . وهذه الدراسات يقرب بعضها من بعض وينير بعضها البعض ولا سيما فى العصور الوسطى . ذلك أن قدراً كبيراً من تاريخ العصور الوساطى الاقتصادى مصدره وثائق رسمية . مثال ذلك : نجد كثيراً من معلومات التاريخ الزراعى فى سجلى منازل الضيعات .

كيف نعرف التاريخ الاقتصادى ؟ بل أكثر من ذلك : كيف نميز بينه وبين التاريخ الاجتماعى ؟

يمكننا أن نسوق تعريفاً تقريبياً جاهزاً للعمل بمقتضاه إذا قلنا إن التاريخ الاقتصادى يريك كيف يصيب مجتمع رزقه بينما يريك التاريخ الاجتماعى كيف يستهلكه . يُعنى التاريخ الاقتصادى بالطرق والوسائل التى بها يكسب مجتمع معاشه : نظام الأرض وأساليب الزراعة وصناعته وتجارته وأعماله ومنظماته المالية ومواصلاته وظروف العمل وطرق تنظيمه وهكذا .

وربما كان هذا هو الميدان الذى تحطم فيه معظم الاعتبارات الجديدة فى عشرات السنين الأخيرة . ومثلما انعكست الارتقائية السياسية فى القرن التاسع عشر انعكاساً زاد من الاهتمام بالتاريخ الدستورى كذلك أدى الوعى بالثورة الصناعية إلى توسع هائل فى التاريخ الاقتصادى . وعبارة « الثورة الصناعية » قربها إلى أذهان الجماهير كتاب آرنولد توينبى فى السنوات التى تلت ١٨٨٠ . وإنك لتجد رهن الإنجاز بعضاً من أكثر المؤلفات العصرية استرعاء للنظر فى هذا الميدان كما أن بعض المؤرخين الحديثين المتفوقين هم مؤرخون اقتصاديون . كان هناك ب . هـ . تاونى الذى كتب كما قد يكتب ملاك أو نبى من أنبياء العهد القديم ، والسير جورج كلارك الذى يكتب كما قد يكتب رجل حصيف مدهش من رجال القرن الثامن عشر ، وأيلين بووار التى كتبت كامرأة ذكية كيسة وكذلك كانت ، وهناك ك . ر . فاى شيطان الوحى الذى تكلم عنه كبلنج فى سيرته الذاتية والذى تربع على سن قلمه . بل نقول إن أينع الثمار هى الطريقة التى بها وصل تقدير أهمية العوامل الاقتصادية إلى دائرة نظر المؤرخين بصفة عامة .

يقول لنا السير وليم آشلى إن « التاريخ الاقتصادى ـ تاريخ النشاط الإنسانى ـ

هو تاريخ استفادة الإنسان من بيئته يستخدمها فى معاشه وفى توفير المطالب المادية التى ترتبط بذلك المعاش . ولكن نشاط الإنسان فى هـذا المضمار ، من بداية فجر التاريخ ، لم تكن قط فردية محضة ، لم تكن قط عملية أفراد منعزلين كل الانعزال . ويبدو أن نوعاً من أنواع الترابط وجد منذ أصبح الإنسان إنساناً . وقد اقتضى هذا نوعاً من توزيع الخدمات كيفما كان هذا التوزيع بدائياً ، وعلى الجملة اقتضى نوعاً من التنظيم » . وبعد أن قال آشلى هذا عمد إلى وضع كتاب صغير (تنظيم إنجلترا الاقتصادى) هو من أحسن الكتب التى تتناول هذا الموضوع وأكثرها تنويراً للأذهان .

وهناك أيضاً تنوع فى التاريخ الاقتصادى فى حد ذاته يلفت نظرنا إليه السير جورج كلارك : « هناك مثلا تاريخ التكنولوجيا (أى العلوم التطبيقية) تاريخ العـــدد والآلات وتاريخ تطور العمليـــات الكيماوية وغيرها من وسائل الإنتاج والنقل ... ومن المبادىء السياسية فى تطور الصناعة أن التغيير فى العدد أو الآلات يستتبع تغييراً فى تنظيم الأعمـــال التجارية وفى العلاقات الإنسانية التى يحتمها هذا . ومع ذلك فإننـــا ـــ عندما نتتبع تطور التطبيق الفنى فى الصناعة ـــ ينبغى لنا أن ننأى عن دروب البحوث التاريخية المطروقة . ويجب أن نرى تلك الدلائل المادية مصونة لنا فى المتاحف كما يجب أن ننقب عن الماديات فى المطاحن ومطارق الحدادة التى أقيمت فى القرون الباكرة والتى أسدل عليها ستار الهجر أو النسيان فى أغلب الحالات . وينبغى لنا أن نزور الجديد من المناجم والمصانع ومحلات التشغيل (أى الورش) والضيعات . ويجب أن نجمع معلومات وأفكاراً من المهندسين والكيمائيين والجيولوجيين (أى علماء طبقات الأرض) . وقد بقى للتكنولوجيا (أى العلوم التطبيقية) تاريخها الخاص أزماناً طويلة ... » . ثم يستطرد السير جورج كلارك إلى البحث فى أحدث أنماط

« تاريخ البيوت التجارية » الذى يعنى «أحياناً تاريخ البيوت التجارية كلا على حدة وأحياناً تاريخ التجارة بشكل أوسع قليلا ، تاريخ أساليب التجارة وأنظمتها ... ويحوى تاريخ الأعمال، المكتوب على نسق سير الأبطال ، حكايات عن كيفية وصول الرجل الجد إلى الثروة . وهناك تواريخ أخرى — كتاريخ أحد مصارفنا المالية (أي بنوكنا) الوحدة — تواريخ تختص بسلسلة تكوينها إلى حد كبير وتمدنا بمعلومات مفيدة عن تكوين طبقات رجال الأعمال فى الثلاثمائة عام الأخيرة » .

ولا يخفى على أحد ميدان البحث الجديد الذى يفتحه هذا الموضوع . لقد أتاح لنا السير جون كلافام معرفة التاريخ الأساسى لبنك إنجلترا . وهناك تاريخ نفيس للسكة الحديدية الغربية العظيمة كتبه أ . ت . ماك دورموت . وإن المرء ليستمد معلومات إنسانية من كتاب الآنسة سذرلند (تاجر من تجار القرن الثامن عشر) أو من كتاب رتشردز بيرز (ثروة من غرب الهند) .

ولا شك فى أن تناول السير يقدم من الاحتمالات العديدة فى حقل التاريخ الاقتصادى بقدر ما يقدم غيرها بل أنها تلقى إقبالا أوسع لدى جمهرة القراء . ولكن الكاتب يلقى عنتاً أكبر لأن عليه أن يكون حاذقاً أريباً أو على الأقل واسع الاطلاع فى الصناعة التطبيقية وعليه كذلك أن يبرز شخصية الموضوع ، وهاتان الطاقتان قلما تجتمعان لشخص واحد . وكثيراً ما يعثر المرء على تاريخ رجل من رجال التطبيق الفنى — مثل كتاب ديكنسون وتايتلى عن سيرة تريفيثيك — تاريخ واف من الناحية الفنية ولكنه هزيل من الناحية الشخصيه . فينبغى المرء أن يجمع بين الأمرين معاً كما فعل ك . ر . فاى فى كتابه (بريطانيا العظمى من أدم سميث إلى اليوم) أو فى كتابة (التاريخ الاقتصادى الانجليزى) وفى الكتاب الثانى نحل شائق ومضونه متطلبات سير رجال الصناعة . (وإنها لفكرة حسنة أن يعد الباحثون أنفسهم لملء هذه الثغرات فهناك بحوث مجزية) . إنه يحلل أنواعاً عديدة

من أمثال هذه السيرة سواء منها ألفه أناس ينزعون إلى إحياء ذكرى أسرهم أو ما ألفه أناس من محترفى كتابة السير الذين لاعمل لهم غير ذلك . ومن حسن الحظ أن الكتاب السيء التاعس لايلقى إقبالاً كتلك الكتب التى ألفها المتخصصون والتى كتبها مؤرخون محترفون . وهو يقدم لنامثلاً لكل من النوعين الأخيرين : كتاب « حكاية تلفورد للسير الكسندر جيب ورجل من رجال الصناعة فى القرن الثامن عشر ، بيتر ستبز من وارنجتون » لمؤلفه ت . س . آشتون . وهو يوصى بالكتابين خيراً لأنهما « سيرتان ممتازتان أياً كانت وجهة النظر إليهما » . ولأن منهما « قد نرى الميدان الذى يسع سيرة واحدة أن تشمله ونرى كيف تتداخل فى منوال التاريخ الاقتصادى » .

وإنك لترى شخصيات تستحق الإعجاب وحياتهم العمليــة يملأ جوانبها النشاط والعبقرية والمـآثر ـــ أحياناً من الانفعال النفسى وغالباً من الاستثارة والتخيل ـــ ترى كل هذا فى سير أولئك المخترعين ومشيدى الجسور وممهدى الطرق والمهندسين والرأسماليين . وقد توفر كيلنج على قوة الاستثارة وخلق سيرهم . وإنك لتجد ثروة عظيمة من سير عظماء من هذا النوع فى التاريخ الإنجليزى وحده : روبرت هوك ونيوكرمين ، وكوك من مواطنى هولـكهام ، وبرندلى ، ودوق بروچوونز ، وجوسيا ودجوود ، وأركـرايت ، وبولتون ووات وميردوخ وآل ستيفنسون ، وهدسون ملك السكك الحديدية ، وتيلفورد ، وماك أدام ، ورنى وآل برونيل وسبسل رودز ولورد نافيلد ، والسير تشارلز بارسونز ، ومخترعى قاذفات اللهب والهاريكين والإعصار والرادار والطيارات النفاثة . إن فتنة هؤلاء الرجال والنساء وسيرهم وأعمالهم لاتقف عند حد ، ولا محل لأن يكون أى شيء خاملاً أو كليلا .

يعرف لنا تريفليان التاريخ الاجتماعي على أنه «الحياة اليومية لسكان اليابسة في العصور الحالية . ويشمل هذا ، العلاقات الإنسانية والاقتصادية بين بعض الطبقات المختلفة بعضها وطبيعة حياة الأسرة والحياة المنزلية وظروف العمل والفراغ وموقف الناس من الطبيعة وثقافة كل عصر عندما انبثقت من ظروف الحياة تلك واتخذت أنواناً دائمة التغير من الديانة والأدب والموسيقى وهندسة البناء والعلم والفكر» . ويقول إجمالاً « بدون التاريخ الاجتماعي يصبح التاريخ الاقتصادي عقيماً ويصبح التاريخ السياسي غير قابل للاستيعاب » . وهذا توكيد فى الاتجاه الصحيح مصدره أكثر مؤرخى عصرنا السياسيين مثالية . وهذا يبين قوة الاتجاه صوب ناحية التاريخ الاجتماعية . ويستطيع المرء أن يدرك الدافع إلى ناحيته فى عصرنا ، هذا العصر الذى فيه هددت أسس المدنية وأصبحت تقاليدنا الاجتماعية محل ريب وأمسى المجتمع نفسه فى كثير من الأرجاء على حافة الهاوية . ولقد أضحت مشاكل المجتمع فى مقدمة الأمور التى تشغل بال القرن العشرين بقدر ما فعلت مشاكل التنظيم السياسى فى القرن التاسع عشر . وإن وعى المجتمع — بمشاكله المتعلقة العميقة — ليرسب فى مقدمة أذهاننا . وإن محصولاً ثانوياً واحداً لهو تعميق لمفهومنا التاريخى وتقويم لما كان يعد زخرفياً محضاً بصورة تجعله نوعاً نافعاً قائماً بذاته .

وللتاريخ الاجتماعى معوقاته وإن لذت قراءته : تواصله الدائم والبطء والتعقيد الذى يكتنف تغيراته وبهذه المعوقات يعرفنا تريفليان إذ يقول : «يتحرك التغير الاجتماعى كما قد يتحرك نهر تحت الأرض يتبع سننه أو سنن التغيرات الاقتصادية أكثر مما يتبع اتجاه الأحداث السياسية التى تتحرك فوق سطح الحياة . والسياسة هى مصدر التغيير الاجتماعى أكثر مما هى ثمرته . فملك جديد أو رئيس وزارة جديد أو برلمان جديد كثيراً ما يميز عهداً جديداً فى السياسة ولكنه قلما يؤثر فى حياة الناس . وإذن فكيف تحكى القصة ؟ وفى أى العصور ينقسم التاريخ الاجتماعى

إلى شعب ؟ إننا — عندما نعاود النظر إليه — نرى مجرى حياة مستمراً متواصلاً يتأثر بتغيرات تدريجية دائمة تتخللها كوارث قليلة.. إننا — فى التاريخ الاجتماعى — نرى فى كل عصر ألواناً مختلفة من التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية تحدث فى وقت معاً فى البلد نفسه ، وفى القاطعة نفسها ، وفى البلدة نفسها .. ثم إن كل إنسان وديع هين فى أبسط حركات ذهابه وجيأته — يخضع لمجموعة من العادات والسنن وتقاليد المجتمع والسياسة ومن الأحداث الداخلية والخارجية وبعضها لايكاد يعرفه أو يفهمه على أن محاولتنا لاتستهدف فقط القليل من اللمحات الخاطفة التى قد نظفر بها من شخصيته المألوفة بل تستهدف كذلك إعادة بناء هيكل كل عصر يمر ومعرفة كيفية تأثره به ، بل إن محاولتنا لتستهدف — فى نواح معينة — الإلمام بأكثر مما عرفه ، فى الماضى أهل ، تلك المنطقة بالذات من الأحوال التى أحاطت بحياته ونحا كمت فيها » . وبعد أن عدد تريفليان كل العقبات استطرد لخلق تحفة وعرض علينا جميعاً أنموذجاً فى كيفية كتابة التاريخ الاجتماعى ، عرضه علينا فى كتابه « تاريخ انجلترا الاجتماعى » .

ويتنوع الموضوع كل أنواع التنوع ويعطى كل منها نماذج بسيطة مجردة أو ملونة ، غريبة أوجذابة تتجاوب والروح السائدة . والمجال لايتسع إلا لقليل من الأمثلة . هناك تاريخ الآداب والفنون . وقليل من تواريخ الآداب هى التحف التى لايدخلها الخطأ . مثال ذلك : تاريخ دى سانكتى للأدب الإيطالى وتاريخ (تين) فى الأدب الإنجليزى . والكتاب النموذجى الذى وضعه كورثوب فى (تاريخ الشعر الإنجليزى) حتى ينادى كل شىء فيه بأهمية الأحوال الاجتماعية . إنه ينظر إلى الأدب على أنه التعبير الاجتماعى ، وهذا صحيح ، ثم إنه متنبه أيما تنبه إلى الطريقة التى بها يعكس الشكل السهل والتطبيق الفنى السهل — وناهيك بالاكتفاء — الظروف الاجتماعية والتأثير الأدبى لحقبة معينة . وهذا صحيح أيضاً بالقياس إلى مؤرخى الأدب الذين ينتزعون

الإعجاب مثل السير ليزلى ستيفين ومثل و . ب كير . فاقرأ كتابين جديرين بالاعتبار وهما : « الأدب والمجتمع فى القرن الثامن عشر » لستيفين ، و « الشكل والأسلوب فى الشعر » لكير .

وهذا صحيح أيضاً بالقياس إلى جميع الفنون والعلوم : هناك طريقتان للنظر إلى تاريخهم يجب أن تبقيا تحت الأضواء : هناك تاريخ الفن أو العلم بوصفه نظاماً تطبيقياً ذاتياً — سواء فى هندسة البناء أو الموسيقى أو الطب أو الكيمياء — وهناك تاريخه بوصفه إنتاج مجتمع بعينه يعكس مطالبته وحاجاته وظروفه . وقد ترى هذا إذا قرأت أى تاريخ جيد لهندسة البناء . وربما كان الفن الذى يمس الناحية الاجتماعية أكثر من غيره والذي تسمو فيه العناصر الاجتماعية إلى أعلى حد ، ربما كان ذلك الفن مفصلا فى كتاب « حكاية فن هندسة البناء الإنجليزى » للمؤرخ و . ه . جودفراى أو فى تاريخ لكثير من الحرف ككتاب « حفار القرون الوسطى » للمؤرخ م . د . أندرسون . والكنوز التى تتصل بمثل هذا لا آخر لها . فينبغى للمرء أن يحتفر قليلا وأن يتتبع العرق المعدنى . وإن كتاب « جبل القديس ميخائيل وشارتر » لينقلك إلى قلب القرون الوسطى . وكذلك شأن كتاب « العلماء الجوالين » لهيلين وادل .

وهذه الظاهرة لم تبد ، فى الفترة الأخيرة ، أوضح للرؤية مما بدت فى صدد العلوم . وقد يكون السبب أن العلوم انحرفت انحرافاً شديداً عليها أن تصلحه . وإن موقف جماعة من أحب من كتبوا فى عصرنا عن العلم — من أمثال ج . ب س . هالدين ، ج . د . بيرنال ولا نسيلوت هوجبين وجوليان هكسلى — ليخضع لفكرتهم فى الموضوع وهى العلم بوصفه تعبيراً اجتماعياً . ومن المحتمل جداً أن يكونوا قد غالوا فى التحزب لفكرتهم على حساب الاتجاه الذى ينظر إلى العلم على

ضوء تطوره الداخلى . وفى الواقع أن التعارض بينهما ليس محتوماً . ولكن مغالاة هؤلاء الكتاب يمكن فهمها نوعاً على ضوء سلامة نية العلماء السابقين بالنسبة للمجتمع الذى تأثر بنظرياتهم . وعلى هذا الأساس يكون عميد تاريخ العلوم فى بريطانيا هو تشارلز سنجر الذى لاتعد تواريخه لعلم الأحياء والتشريح والطب والعلوم بصفة عامة قياسية فى أبوابها وحسب بل إنها تعد كذلك تعريفاً بها يوائم غير المشتغلين بالعلوم .

وسيحظى تاريخ العلوم قريباً باهتمام الجامعات ، إذ يشهد عدد الكتب المتزايد بازدياد الاهتمام بالموضوع وقيمته بوصفه جسراً بين الحكاية وبين المجتمع وحاجاته واستجابة الناس لتطور المعرفة العلمية . ولنا أن نبدأ بكتاب « أصول التفكير العلمى من ٦٠٠ قبل الميلاد إلى ١٥٠٠ ميلادية لمؤلفه ج . دى سانتيلانا وأن نتبعه بكتاب « طب القرون الوسطى وبداية طب العصر الحديث » الذى ألفه أ . س . كرومبى فى جزئين . وإنك لتجد تخطيطاً يبشر بالخير فى كتاب « نهضة العلوم الحديثة » الذى يزجى تفصيلا مدروساً للقارئ العادى ولطالب العلم على السواء . وفى هذا الباب ينتظر الجزء الأول من كتاب « النهضة العلمية من ١٤٥٠ إلى ١٦٣٠ » لمؤلفته مارى بوواز إلى العلوم والإيمان بالإنسانية على أنهما وجهان توأمان للثورة الفكرية نفسها صوب المعرفة . وثمة مثل فذ لما ينبغى لنا معرفته فى هذا الباب فى زمان ومكان معينين تجده فى « كتاب ف . ر . جونسون : التفكير الفلكى فى انجلترة إبان عصر ، النهضة » وهو كتاب جد مبتكر يسهم كثيراً فى تزويدنا بالمعلومات عن عصر إليزابيث .

ونحن نعد الفروع الصغيرة التى نقطفها من تلك الشجرة المثمرة الظليلة تاريخاً للأخلاق والعادات والتربية والثقافة . وقد قدم لنا م . — و —ك . ه . ب كوينيل

سلسلة مبهجة من كتب التاريخ عنوانها « الشئون اليومية فى انجلترا » : الوظائف والمهن والأشياء المستعملة والأدوات المنزلية . ويقدم لنا جيمس ، ليفر كتيبات فى تاريخ الملابس والأزياء . ومن المواد التى تفوق ما سلف فى الجوهر والحجم مجلدات اكسفورد التى تشمل بحوث المجتمع فى حقب شتى : «انجلترة شيكبير » و «وانجلترة وجونسون » و « انجلترة عهد فكتوريا الباكر » .

ولنا أن نحسب أن هذه الأشياء تضيف إلى الثقافة باباً لم يسهم فيه المؤرخون الإنجليز بالشىء الكثير . ففى « تاريخ الحضارة » Kulthvrgeschichte ندين للألمان بقدر أكبر . ويرد ذلك جزئياً إلى أن إخفاقهم زماناً طويلا فى تحقيق وحدتهم السياسية جعلهم يتحولون إلىوحدة اللغة والثقافة «الألمانية» Dentschtum للشعور بالتعويض وإننا فى واحدة من تحف «تاريخ الحضارة» Kulturgeslichte لندين بالشىء الكثير لكتاب «مدنية النهضة العلمية فى إيطاليا» الذى ألفه بوركارت السويسرى . ونجد فى عصرنا كتاباً من هذا الطراز عنوانه « اضمحلال القرون الوسطى » لمؤلفه هويزنجان . ثم إن عالماً هولاندياً يقيم على حدود الثقافات الأهلية ، مثل بوركارت فى بازل ، يقيم فى مكان يشجعه على ملاحظة خصائص أصحاب تلك الثقافات والصفات المشتركة بينهم ، وإن المدنية لتتخطى الحدود لأنها نبت قوى الأرومة يبقى على قيد الحياة أحقاباً طويلة . وربما جاز لنا أن نحسب أن التاريخ الثقافى تلقى أولى نبضات حياته عن كتاب فولتير « عهـــد لويس الرابع عشر » .

وليس فى وسعنا أن نعد كتاب سبنجلر « انحلال الغرب » ، الذى اتسع انتشاره كثيراً بعد حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ، نموذجاً صادقاً لذلك النوع من التاريخ . وبصرف النظر عن زعمه — الذى لا شك فى زيفه — بأنه يستعرض التشكيل

العضوى للثقافة فإنه منحرف بشكل لا يمكن استئصاله مستوحى من العبقرية الحزينة لـ « الشماتة » الألمانية . ولما كان الألمان فى طريقهم إلى الهزيمة كان معنى هذا أن المدنية الغربية ستأتى إلى نهايتها ، هذا هو الدافع الرابض خلف تلك الواجهة المعتمة. وليس فى وسعنا كذلك أن ننظر إلى كتاب توينبى المتعدد الأجزاء « بحث فى التاريخ » الذى تأثر كثيراً فى بدايته بسبنجلر — على أنه مثل صحيح للتاريخ الثقافى . وقد ذاع بحق ، صيت هذا الكتاب بسبب مجال معلوماته الجدير بالاعتبار وشجاعته المحاولة وطاقتها السامية المدارك ولذا تجده يفرض قالباً اجتماعياً محبوكاً — كالقميص الذى يشد فيه المجنون — على ما يكتنف التاريخ من التنوع والتغير الكبير والتماسك وصعوبة التنبؤ . وإن توينبى ليفرض نماذجه على الوضوع ويحاول التنبؤ ويجيب عن المعضلات التى تحيرنا ، وهذا هو مصدر نجاحه غير المحدود ولاسيما فى أمريكا . ولكن هذا المأرب ليس مجال التاريخ ولا هو وظيفته بل هو على التحقيق ضد طبيعته . وإنما يكمن كل قيمة التاريخ على وجه التحديد فى أن يتعرف كيف كانت الأحوال وفى أن يحاول أن يتعرف — تبعاً لذلك — كيف ولماذا وقعت . وفرض منهج معين على الحقائق يناقض طبيعة التاريخ الحقة التى تحتم علينا أن نتقصى الحقائق فى دقة وصبر وعدم تحامل . أما التاريخ التأكدى فتاريخ مزيف . والمؤرخ الصادق هو الذى يرتاب ويحاذر . راجع نقد رتشارد بيرز لتوينبى فى « هوية المؤرخين » و ب . جيل فى « المعارك فى التاريخ » .

وخير وسيلة لقراءة تاريخ أمة ما هو قراءتها على أنها جزء من المدنية التى تنتمى إليها . اقرأ مثلاً تاريخ بريطانيا وفرنسا على أنهما جزء من أوربا مع جميع الأعمال والتفاعلات الكثيرة لكل دولة بالنسبة للأخرى . وهناك كتب تبين لك القطاع العرضى النفيس للتاريخ على هذه الصورة . مثال ذلك كتاب « انجلترا وفرنسا فى حرب المائة عام » للمؤرخ توت و « النورمنديين فى أوربا » للمؤرخ ك . ه .

هاسكنز . وقراءة التاريخ عبر الحدود تتطلب مزيداً من المعلومات فضلاً عن أنها فكرة سفسطائية . إنها شيء يستهدفه المرء وينتهى إليه ولا يبدأ به . وإن القارىء المادى ليجد من الأسهل عليه أن يقرأ تاريخاً أجنبياً على أنه شيء أجنبى غريب عنا . وهو على هذا النحو يكون أطوع لنا ، إن لم يكن أكثر قابلية للاستيعاب . أما التاريخ الدبلوماسى فهو على الجملة نوع ، أقل بعثاً للارتياح ، إنه عرضة لنقص كبير هو أنه تاريخ ليس له غير بعد واحد وهو المبادلات الدبلوماسية بين الدول من حيث علاقاتها ومواضع النزاع بينها . وتتألف مواده ، إلى حد كبير ، من المذكرات التى تبلغ والمذكرات التفسيرية . وهذا ، بطبيعة الحال ، يخرج من الحساب القوى والعوامل الحقيقية التى تقف من الخلف . وقراءة التاريخ من تلك المصادر عرضة لأن يفضى إلى انحراف ذى بال . مثال ذلك كتاب « بواعث الحرب العالمية الثانية » . السيء السمعة لمؤلفه أ . ج . ب تيلور الذى كان الاعتبار الفنى التطبيقى فيه — أما الاعتبارات الأخرى فنفسانية — سبباً فى رسم صورة وهمية ، لا يمكن التسليم بها ، لمنهج تاريخى بالغ الخطورة . وقد حدثت تلفيقات وتحريفات من هذا النوع بين « المنقحين » من المؤرخين الأمريكيين بعد الحرب العالمية الأولى . وكان لهؤلاء تأثير شيء على الرأى العام ونتائج سياسية سيئة : تأثير خبيث لأهمية التاريخ وفائدته فى الشئون العملية .

وعلى هذا ينبغى أن لا يدرس التاريخ الدبلوماسى للطلبة فى الجامعات إلا فى ندرة وتحفظ لأنهم لا يعرفون الحقائق ولا يستطيعون أن يراجعو صحتها ولأن من اليسير الهين أن يضللهم علماء الاجتماع والمؤرخون الصحفيون عندما يعمدون إلى كسب عطف الجماهير دون مراعاة ضمائرهم .

وهنا أيضاً نجد أن السير تساعد على إجمال الموضوع وعلى جعله أكثر إنسانية

وأكثر صدقاً وأدعى إلى الوثوق به ؛ وعلى هذا النحو يضيف التاريخ أبعاد الحياة كاملة إلى التصرفات الدبلوماسية التى ليس لها غير بعد واحد والتى لا يتيسر استيعابها بغير ذلك . وخير للطالب أن يبدأ مثلاً بسيرة كاستلرى أو كاننج أو بالماريستون. أو السير إدوارد جراى أو كتاب كالكتاب الذى ألفه صمويل ف . بيميس عن « جون كوينسى آدامز وأسس السياسة الخارجية الأمريكية » وعندئذ يكون الطالب فى وضع أحسن يمكنه من أن ينتقل إلى موضوعات أعم مثل «تاريخ كمبردج للسياسة الخارجية » أو كتاب هـ . ك . ألين « بريطانيا العظمى والولايات المتحدة : تاريخ العلاقات الإنجليزية الأمريكية من ١٧٨٣ إلى ١٩٥٢ » . ولدراسة مهام بنيامين فرانسكلين فى انجلترا وفرنسا اقرأ سيرته الباهرة التى كتبها كارل فان دورين .

وثمة رابطة أمتن بين بلد وبلد أو عصر وعصر وموضوع واسع فى حد ذاته هو تاريخ الكنيسة . فأين محله من منهجنا ؟ الإجابة صعبة لأنه يمس ، أو قل إنه يشمل ، سائر أنواع التاريخ : السياسى والدستورى والاقتصادى والمحلى والسيرى (أى المختص بكتابة السير) والعقلى والثقافى . وهو شائق إلى أبعد مدى . وعظماء المؤرخين ، جميعاً على وجه التقريب ، كتبوا عنه رأساً أو تناولوه فى خلال كتاباتهم: جيبون ، هيوم ، مكولى ، ستابز ، فرولا ، ميتلاند ، وزد عليهم المؤرخين الذين كتبوا موضوعات تخصصهم. والواقع أن الدين لم يكن فقط مرتبطاً بالمجتمع ارتباطاً وثيقاً ولكنه كان ، عادة ، واحداً من أقوى الروابط جميعاً التى كانت ، فى وقت من الأوقات ، تشد المجتمع بعضه إلى بعض كما قد تشده الدولة نفسها . وله فائدة أخرى مزدوجة إذ إنك إذا نظرت إليه من ناحية المجتمع وجدت أنه يصل ما بين نشاط الإنسان الزمنى الدنيوى وبين العالم الآخر وهو نسق ذو أجل غير مسمى ينعكس من الروح الإنسانية . وكيف يستطيع تاريخ الدين ، تاريخ الكنيسة ، أن يكون إلا خلاباً ؟ أنه يتصل بحياة أكثر النفوس روعة بين الرجال . ومن بين

الذين وردوا فى تاريخنا من هؤلاء : بيد ، توماس مور ، المحافظ برادفور ، وروچر وليامز ، ريتشارد هوكر وچورج هربرت ، باكستر ، آن ويسلى ، ونيومان . ومجاله أوسع مجال : فى أزمان معينة كالقرون الوسطى : إنه فى تقديرنا تاريخ المدنية : وهو من ناحية أخرى ، فى أصغر الوحدات، نصف تاريخ الأبرشيات، ذلك لأنه فى الماضى العظيم كان يتاخم حياة الإنسان .

وثمة جسر من نوع آخر بين تاريخنا والعالم الخارجى وهو الجسر الذي أقامه امتداد شعبنا إلى ما وراء البحار تصحبه أنظمتنا ومميزاتنا ، والذين هاجروا من بلادنا ليسوا أقل منا استحقاقاً فى ميراث تاريخنا كما أنهم ليسوا أقل تأثراً بهذا التاريخ . فلقد تولدت الثورة الأمريكية نتيجة لما تمخضت عنه أجيال من النضال ابتغاء الحرية والحكم الذاتي داخل بلادنا . والأفكار التى أوحت بها تتصل بسلسلة طويلة من النسب للمحامين والمفكرين السياسيين فى القرن السابع عشر وما قبله . ومع أن الولايات المتحدة — عندما نجحت ثورتها — صارت إلي دولة مستقلة فإن أحداً فى بريطانيا لا يحسب تاريخها تاريخ دولة أجنبية كما أن الأمريكيين لا يعدون أجانب فى بريطانيا . ولقد أخذت التواريخ الخاصة لكل شعب من الشعوب المتكلمة الإنجليزية البعيدة عن بعضها البعض — تحت ضغط المجاهدات والمخاطر — أخذت تلك التواريخ الخاصة تنغمر ، ككتلة موحدة ، فى مصير مشترك . وأنموذج تلك الفكرة البعيد النظر أزجاه ، بعد الحرب ، السير ونستن تشرشل فى كتابه ذى الأربعة الأجزاء « تاريخ الشعوب المتكلمة بالإنجليزية » . وفى هذا التحول يجب أن يتبوأ التاريخ الأمريكى دائماً — بوصفه قصة أقوى تلك الشعوب — مكاناً أوسع . وإذا ابتغيت تعريفاً تعاطفياً حكيماً فلن تجد خيراً من أن تبدأ بكتاب ألان نيفن « تاريخ الولايات المتحدة » وعليك أن تتبع هذا بأحسن تخطيط عام وهو كتاب نماء الجمهورية الأمريكية » لمؤلفيه موريسون وكوميجر . وفى صدد

الفترة السابقة على تلك الحقبة تجد أحسن ما كتب فى « حقبة الاستعمار فى التاريخ الأمريكى » الذى وضعه س. م أندوز . وفى تواريخ الأقسام المستقلة تجد أحسن أنموذجين فى كتاب ج . ت. آدامز عن نيو إنجلند (إنجلترا الجديدة) المكون من ثلاثة أجزاء وفى كتاب « تاريخ الجنوب » ذى الاثنى عشر جزءاً الذى يسير من نجاح إلى نجاح. أما القارئ العادى فعليه بكتاب ج . ت . آدامز « سير البطولة الأمريكية » الذى ما يزال يؤدى رسالته .

وفى باب تاريخ الإمبراطورية البريطانية ومجموعة الأمم البريطانية فإن عشرات السنين الأخيرة شهدت توسعاً ضخماً . وقد ألقى لنا الدكتور ج . ا. وليمسون ضوءاً جديداً على مراحل التوسع الباكرة عبر البحار وعلى قصة تاريخ المخاطرات فى البحار والملاحين فى العهد التيودرى وعلى المستعمرات الباكرة وتاريخ المحيطات عامة . وكتابه طريف مبهج مستوحي من إحساس خيالى جميل . وقد ظهرت فى حيز الوجود مجموعة شهيرة صدرت عن مدرسة أكسفورد الفكرية . وهناك كتاب سير ريجنالد كوبلاند عن أصقاع كثيرة من الإمبراطورية ولكن أهم ما ورد فيه يتكلم عن أفريقيا . وكتابه الصغير « اللعب بالنرد » وكتابه الذى ظهر بعد ذلك « رحلة ليفنجستون الأخيرة » أحسن تعريف بتاريخ الملايو البريطانية وأفريقيا الوسطى على التوالى. وسيجد القارئ فى كتابيه « مقاومة بريطانيا لتجارة الرقيق» و «ولبرفورس» جاذبية ومعلومات مفيدة . وقد قدم لنا السير كيث هانوك كتاباً فذاً أسماه « تخطيط لشئون مجموعة الأمم البريطانية » وهو أحسن أنموذج للتاريخ المعاصر ، وهو من الدراسات الصعبة . ويذكرنا كتابه — وهو الاسترالى — بأن إمدادات هامة لذلك الموضوع أخذت تتدفق من كندا واستراليا وجنوب أفريقيا ونيوزيلندا .

والآن وقد انتهى حكم بريطانيا للهند فإن ما أنجزته من أعمـال مدهشة أخذ يحظى بالإنصاف ، وإنه لحكاية فذة فى تاريخ العالم من الناحيتين . ولك أن تستشهد بكتاب فيليب ميسون « الرجال الذين حكموا الهند : المؤسسون » وبتكملته « الحكام » وبكتاب ب . ب . مسرا « الإدارة المركزية لشركة شرق الهنـد البريطانية من ١٧٧٣ إلى ١٨٣٤ » . وإذا ابتغيت بحثاً جذاباً لتاريخ حياة عملية حاسمة فاقرأ للسير بنديرال مون كتابه « وارن هيستنجز والهند البريطانية » . وتجد أحسن تعريف لتاريخ كندا فى كتاب دونالد كريتون « مستعمرة الشمال المستقلة » . وللجنوب إفريقيا كتاب إريك ووكر « تاريخ إفريقيا الجنوبية » . ولأستراليا كتاب دوجلاس بايك «أستراليا : القارة الهادئة ». واقرأ كتاب كيث سنكلير طبعه البنجوين : « تاريخ نيوزيلندة » .

لقد جرنا الـكلام إلى ذكر تاريخ العالم . وهـذا نوع لا يطمع المؤرخون البريطانيون ــ باستثناء توينبى فى كتابه «تخطيط التاريخ » ــ فى أن يتفوقوا فيه . وينبغى لنا ، على أية حال ، أن لا ننسى أن أشهر تاريخ للعالم فى القرون الوسطى « الموجز العام » هو من عمل راهب إنجليزى اسمه هدجن ، هذا بينما « تاريخ العالم » للسير وولتر رالى ظل على المسرح أكثر من قرن وسيظل أبداً منهلاً للنثر الإنجليزى .

وفى القرن التاسع عشر كتب رانكى « تاريخ العالم » . وفى عصرنا أصدر هـ . ج . ولز كتاباً ممتازاً أسماه « موجز التاريخ » وهذا جهد يستحق التقدير . وهو يظهر مميزات ذلك الـكاتب وعيوبه : خيال عظيم واسع ، طاقة جبارة قوية ، عواطف ذهنية مترامية ، ويصاحب هذا سطحية وسوء تقدير وجهل قلق بشئون الروح . إنه سيد موسوعيي عصرنا . ومع ما سبق ذكره كان غرضه نبيلاً ، إذ هو على حد قوله : (ليظهر أن التاريخ « بوصفه وحدة » مطلوب منه عرض أوسع

وأشمل من التاريخ الخاص بالأمم والعصور ، عرض أوسع يطوعه فى دائرة الوقت والجهد المتاحين للقراءة لدى المواطن العادى . وهذا الموجز يعرض للأجناس والأمم بينما التاريخ العادى يعرض للسيادات وأشجار النسب والغزوات . . . والتاريخ ليس استثناء بين العلوم . فعندما تملأ الثغرات يبسط الموجز . وعندما تتسع دائرة استطلاع المستقبل تذوب أكداس التفاصيل فى القوانين العامة) .

ولكن هل التاريخ علم ؟ وهل يظهرنا على القوانين العامة التى تؤثر فى الشئون الإنسانية ؟ هذان سؤالان يعوزهما البحث ، وكل ما نستطيع ذكره الآن هو أن الدافع الطبيعى للمؤرخ هو الاتجاه صوب الأمور الثابتة والخاصة « لكى ترى الدنيا فى حبة رمل والفردوس فى زهرة برية احمل الأبدية فى راحة كفة والأزلية فى ساعة من الزمان » .

الباب الرابع

التاريخ بوصفه علماً وفناً

لدى محول هذا القرن احتدم جدل عظيم فى : هل التاريخ علم أو أدب . وكان الجدل قد ظل زماناً محتدماً فى القارة وبخاصة فى ألمانيا حيث أمسى جزءاً من مناهضة شهيرة بين الفـــلاسفة والمؤرخين ، « النظاميين » . ونقلها إلى انجلترا (برى) بتحديه الذائع الصيت فى محاضرته الافتتاحية بـكمبردج : « التاريخ علم ، لا أقل ولا أكثر» . وأتبع هذه العبارة بقوله : «مابقى التاريخ يعد أدباً فليس فى الإمكان التثبت جدياً من الصدق ومن الدقة » ، ثم أورد عبارة أكثر جزماً قال : « وأحب أن أذكركم بأن التاريخ ليس فرعاً من الأدب » وكان يورك پوويل فى أكسفورد له رأى يماثل هذا الرأى كل المماثلة ؛ وإذن فالتاريخ الحديث اليوم سوف يعنى ما قد يسمى بالتاريخ الجديد وذلك لـكى يتيسر التمييز بينه وبين التاريخ القديم ، فالتاريخ الجديد تاريخ يـكتبه أولئك الذين يعتقدون أنه ليس قسماً من « العلوم الأدبية » وأنه ليس مجرد قصة ظريفة مفيدة مسلية بل هو «فرع من العلوم » . وهذا العلم ـــ كـكثير من العلوم الأخرى ـــ هو من خلق القرن التاسع عشر إلى حد كبير . وهو يتناول أحوال الجماهير البشرية التى تعيش فى بيئة اجتماعية واحدة . وهو ينشد الوقوف على السنن التى تتحكم فى تلك الظروف ، ويمهد السبيل للتغيرات التى نسميها التقدم والاضمحلال أو التطور والانحلال ، وإلى فهم العملية التى تولد ـــ تدريجاً أو فجاءة ـــ تأليف أو تعطيل تلك التـكتلات السياسية والاقتصادية التى نسميها الدول ، كما ينشد معرفة الظروف التى تؤثر فى الاتجاهات المختلفة التى تظهر قوتها فى أوقات شتى . أما الأسلوب ومتطلبات المستمعين الشعبيين فعلاقتها بالتاريخ ليست أكبر من علاقتها بالقانون أو الفلك .

وأصبحت هذه النظرية ، فى ذلك القرن ، هى السائدة فى الجامعات وتمخضت عن نتائج هامة طيبة وسيئة أيضاً .

ولنبدأ بذكر بعض النتائج الطيبة . وقد أفضى الإصرار على أن التاريخ علم « ذو معايير ومناهج صارمة ، إلى بذل عناية أكبر لتثبيت الحق وتقريره وإلى التأكد اليقظ من الدقة فى كل نقطة عند تفحص الحجة واستخلاص نتائج منها وإلى وعى متواصل بأخطار التعرض للانحياز ولمحاولات إحباطها من كل جانب . وكل هذا زاد فى صعوبة كتابة التاريخ — وهذا حسن على أية حال — كما قلل من الإقبال على قراءته . ومن الناحية الأخرى ، بما أن هذه النظرية لم تول المقدرة الأدبية اهتماماً كبيراً فقد أدت إلى زيادة كبيرة فى عدد الكتب التاريخية التى يصدرها أناس لم يعرفوا كيف يكتبون . ولم يحدث قط صدور مثل هذا القدر الكبير من كتل البحث التاريخى غير الناضجة المشوهة غير المهضومة وغير القابلة للهضم التى تندفق من المطابع . وإن المرء ليذكر امتهان سويفت — الذى كان دون ما يستحقه — لمؤلفات مادوكس المشتغل بالعاديات ، تلك المؤلفات التى رفعته إلى وظيفة مؤرخ ملكى .

وكانت هناك مزية أخرى لنظرية التعلم التاريخى والامتحان بالجامعات . فالتاريخ « الغير العلمى » ، التاريخ « الأدبى » — وهو القراءة المثالية لدى السيد الريفى الذى لا عمل له — هذا النوع من التاريخ كان عرضة لأن يكون عملية خيارية وثيرة (أى لينة) . وعدو القارئ بين جيبون وهيوم ومكولى وكارليل — وهو غاطس بين ذراعى كرسى مريح ومسند قدميه على رف المدفأة — لم تكن طريقة لرياضة العقل . وكان الأجدى شيئاً أكثر صلابة وطرفة ، شيئاً يستطيع أن يحل محل تهذيب النحو والدراسات القديمة ولاسيما الآن بعد أن أخذ التاريخ يحل محل العلوم القديمة بوصفه أكثر موضوعات التعلم الأدبية جاذبية ، وحدث أن فرود ، فى حقبة باكرة ترجع إلى سنة ١٨٥٣ — وكان إذ ذاك فى بداية عمله وقد آذن بأن يكون مؤرخاً « أديباً » ممتازاً يمقت مدرسة الفكر العملية خاصة — حدث عندئذ

بأن فرود تشدد فى إبراز هذه الفكرة فى منشور له فى « رسائل أكسفورد » . وقد أسهم باقتراح « مدرسة تاريخ » تجد فى دراسة قوانين الدولة والوثائق والنصوص التى يرجع إليها فى كتابة التاريخ . وتحت إشراف ستبز ـــ وهو واحد من أقدر محررى النصوص ـــ تحقق هذا فى أكسفورد وتبعتها جامعات أخرى . وكان تقدم مدارس التاريخ أحد المعالم الشهيرة فى التعليم الجامعى منذ ذلك الوقت ، وقد تخرج فيها آلاف من الطلبة . ولا مراء فى أن التدريب الذى تلقوه فى الدقة وفى تقويم الحجة وفى استنباط النتائج منها عند إبداء الرأى المبنى على القريحة فى الشئون العامة ، لا مراء فى أن هذا التدريب يجب أن يكون له وزنه فى حياة المجتمع .

ولكن ، ماذا عن الكتابات التاريخية ؟ يظن تريفليان أنه ربما كان من الممكن لماكولى وكارليل بالذات أن يصبحا خيراً مما كانا لو أتيحت لهما دراسة تاريخية أكاديمية كما قد يحدث لو أنهما عاشا فى أواخر القرن التاسع عشر بدلاً عن أوله . يا للعجب . ربما كانا يصبحان أقل انحيازاً وأكثر دقة . ولكنهما عندئذ كانا يمسيان أقل صبراً وأقل مبالغة وأقل جلاء . ربما كان أى شىء لايستطيع أن يحول شخصيته كشخصيتيهما إلى اللون الرمادى المحايد الدقيق كجاردنر وإلى التشريح الجاف المكبوت كفيرث . ومع هذا ففيرث شخصياً كا ممعناً فى العنف والمجون . ولاشك فى أن رد الفعل انعكس إلى مدى جد بعيد .

وقد أحدثت النتائج الوبيلة التى ترتبت على ذلك إنفصالاً بين التاريخ الأكاديمى ضرب المثل للناس بمعايير من التفقه طيبة ولكنه لم يحظ من قارئيه بالإقبال الذى يتوق إليه . وإذا لم يرد أو إذا لم يستطع النابهون من خريجى الجامعات أن يكتبوا بطريقة تشجع الإقبال على قراءة كتبهم فستقع الجماهير العامة بين أيدى الدجالين من أمثال تشسترتن وبيلوك أو قل إن أمثال تشسترتن وبيلوك هم الذين وقعوا بين أيدى

الجماهير . ولا يمكن أن يحدث ماهوأسوأ من ذلك : فلقد قرأ الجمهور رأياً عن ماضى البلاد مشوهاً كل التشويه أوكلا ماً كله هراء : جيمس الثانى صور بصورة البطل ، ثورة ١٦٨٨ كانت غلطة ، إليزابيث ألعوبة مريضة بين يدى سيسل ، حركة الإصلاح الدينى التى سارت بالشعب إلى طريق التوفيق ـ نكبة . وقد يقول أحد المتشككين إن التقاليد التى سادت تاريخنا قوية إلى درجة تعيننا على إحتمال الآراء المعارضة التى تجابهنا . ولكن حتى ولو كانت بالغة السخافة ؟ وإن واجبى ليقتضينى أن أقول إن الهدف الحقيقى من دراسة التاريخ هو بلوغ أقرب مكان إلى الحق نستطيع الوصول إليه،وسردماقد يقال لصلحة حركةالإصلاح الدينىأوالثورةالفرنسيةأوالثورة الروسية أو الإمبراطورية البريطانية وماقد يقال ضدها،وبما أنى كنتواحداً من الذين أتيح لهم بضعة سنين ، قراءة أوراق منح الطلاب الدراسين لدخول الجامعة فإنى أعرف نوع الضرر الذى يمكن أن تحدثه قراءة التاريخ من كتب كتلك . (وما أنا بقائل شيئاً ضد بيلوك وتشسترتن بوصفهما شاعرين وكاتبى مقالات وقصصيين لأنى معجب بما كتبا فى تلك الأبواب إذ هما عبقريان . ولكنهما لم يكونا مؤرخين) .

وقد حدث فى عصرنا رد فعل مفيدضد التزمت فىالأسلوب الأكاديمى و «العلمى» لكتابة التاريخ . إذ إن التاريخ لم يعد يكتب لنفسه حتى فى الجامعات . ثم إن أقدر الكتاب الأكاديميين إنما يكتبون لشتى مستويات الجماهير . والمؤرخ الذى حازقصب السبق فى هذا المضمار هو تريفليان الذى وقف كل حياته علىهذا الرأى. وقد أخبرنا كيف أن (الانعكاس ضد « التاريخ الأدبى » ـــ كما كان يقال فى إزدراء ـــ كان عاصفاً منذ خمسين سنة وقتما بدأت أكتب التاريخ) . وقد اقتفت أثره مدرسة فكرية كاملة من الكتاب : جون بوكان بسيره التاريخية ، وآرثر برايانت ، ومؤرخون محترفون من أمثال السيرجون نيل الذى ألف كتاب « الملكة إليزابيث» ـــ و ـــ ج . ا. وليمون،ـــ ورك . ف ودجـــوود والدكتور ج . هـ . تلوم . وقد

توفروا كلهم علي خلفية جامعية ومعايير أكاديمية ، ولكن جمهوراً عظيما ينعم بقراءة كتبهم مع ذلك . وفى الولايات المتحدة أمثلة مشرفة مثل صمويل أليوت موريسون ، وهو مؤرخ عظيم حقاً ، ومثل الآن نيفنن وجارتت ماتنجلى اللذين يعززان هذا المنهج .

ومن السهل الآن أن نرى الدوافع الرئيسية التى حدت المؤرخين الأكاديميين على أن يصرو على الطابع العلمى لموضوعهم . فلقد كان هناك إصرار متزايد من عصر علمى على الإتقان والدقة والموضوعية . وكان هناك — وفى هذا مايشبه التناقض على ضوء تلك المعايير — تأثير المفكرين الألمان . وكان أهم دافع هو جلال العلوم الطبيعية بمنجزاتها النظريه والعملية التى أكسبتها وجاهة . وعلى حد قول تريفليان : « لقد بدل العلم حياة البشر الاقتصادية والاجتماعية . وقد أحدث ثورة فى العالم المتعلم إلى المستقبل من الناحيتين الدينية والكونية . وقد حملت منجزات العلم الطبيعى تلك منذ خمسين سنة حملت مؤرخين كثيرين على الزعم بأن قيمة التاريخ وأهميته يعظم قدرها كثيراً إذسمى التاريخ علماً وإذا اتخذ لنفسه مناهج علمية ومثلاً عليا ولا شىء غير ذلك » . ثم يستطرد ويعلن وجهة نظره الخاصة : « أعتقد أن هذه المشابهة غير مكتملة لأن دراسة البشر لاتشبه الخصائص الطبيعية للذرات أوتاريخ حياة الحيوانات فإذا وقفت على خاصية ذرة واحدة وقفت على خواص الذرات جميعاً . ومايصدق على سجايا هزار[1] واحد يصدق إجمالاً على كل أفراد ذلك النوع . ولكن تاريخ حياة رجل واحد ، أو حتى كثير من الأفراد لا ينبئك بتاريخ حياة رجال أخر . وأنت ، إلى هذا لاتستطيع أن تظفر بتحليل علمى كامل لحياة رجل واحد . فالناس أكثر تعقيداً ونفسانية وتنوعاً من أن يستجيبوا لتحليل علمى صحيح . وحياة الملايين لا يمكن

---

(١) الهزار طائر حسن التغريد .

الاستدلال عليها من تاريخ فرد واحد . والتاريخ ، فى الواقع ، يغلب فيه أن يكون تخميناً إجمالياً من واقع جميع الحقائق المتاحة . وهو يتناول القوى الذهنية والروحية التى يتعذر إخضاعها لأى تحليل يمكن وصفه بأنه علمى » .

لقد توفر لنا الآن وجهتا النظر المتعارضتان : « التاريخ علم » لاأقل ولا أكثر (برى) . و « التاريخ ليس فرعاً نظامياً من فروع المعرفة » (إدوارد ماير) . فكيف نميز بينهما ؟ وماحقيقة الأمر ؟

ومن الناسب أن نشير إلى أن كلمة « العلوم » فى العرف الحديث قد أخذت تزداد إقتصاراً على العلوم المضبوطة تلك العلوم التى إذا بنيت على أساس الحقائق القابلة للتثبت منها وعلى الوقائع المشاهدة المنسقة تنسيقاً منظماً إذا بنيت على هذا الأساس أضحت تستهدف قوانين عامة تساعد فى الاستدلال على نتائج يركن إليها من المقدمات المتماثلة . ومن المثل البارزة ، من بين تلك النظم ، العلوم الطبيعية . وكلمة « العلوم » فى الأصل كانت تطلق على المعرفة أو العلم أو على أى فرع من فروعها وعلى نحو ماجرى من العرف فى العلوم العقلية (العلوم الأدبية والأخلاقية) أو علم أياً كانت مقدماتها ، لا تكاد تعد مما يركن إليه أو على أية حال لا تكاد اللاهوت ، وإن كانت النتائج المستخلصة من عـــلم اللاهوت ، تعد مضبوطة . فهل يكون أنه جميع العلوم حتى المضبوط منها ، ليست دائماً تامة الضبط ؟ واستكشاف ظاهرات جديدة يستتبع دائماً إعادة سبك النظريات . فماذا عن العلوم الاجتماعية كالاقتصاد وعلم البشرية وعلم النفس ؟ كل ماأستطيع قوله هنا هو أن من غير المرغوب فيه قصر استعمال كلمة « العلوم » على معنى بالغ الضيق : فالعلوم الاجتماعية لا يطرد قياسها اطراداً محكماً كالعلوم الطبيعية فى القرن التاسع عشر بل إن هذه العلوم الطبيعية لم تحظ بمثل ذلك الاطراد فى القرن العشرين . فما الذى يدور فى خلد المؤرخين عندما يدعون أو ينكرون أن التاريخ علم « بين العلوم ؟ أظن أنهم يفكرون فى مؤخرة أذهانهم ، فى الدقة والموضوعية التى يركن إليها (وإن

تساءلنا فى النهاية : أية موضوعية توجد حتى فى العلوم الطبيعية ؟) وهى قابليتها للتنسيق كما قد يلسق العلم .

وقد يتفق معظمنا على أن البحث والدرس التاريخيين يستفيدان من أن يكون منهجهما علمياً إلى أبعد حد ممكن أى مضبوطاً دقيقاً منظماً . وقد زاد ، فى البحث التاريخى الحديث ، الاهتمام بالتعمق فى تحليل المصادر وتغير كلية تناسق الارتباط بين البراهين . فالمعلومات التى لم تزد على أن تكون أدوات لبضاعة المؤرخ أصبحت مواضيع قائمة بذاتها . مثال ذلك : قراءة الكتابات القديمة والشئون الدبلوماسية ودراسة المخطوطات وأنواع الوثائق . وقد أصبح علم العاديات عالم معرفة قائم بذاته ، وله مناهجه العلمية الخاصة به بحيث يضيف إلى التاريخ ميادين إعلامية جديدة لا ينضب معينها . والتصوير الفوتوغرافى من الجو يفيد فى الحرب التى يشنها المؤرخ على الماضى ويكشف كل كسرة يتاح له كشفها منقباً عن آثار الثقافات القديمة تحت التراب وفى القرى والمدائن البائدة والمخيمات والمتاريس وآثار المدنيات القديمة . وهناك الفوائد الأخرى التى تجنيها من الإحصاء والاقتصاد وبخاصة من الجغرافيا .

وحتى مع ذلك ، هناك ، فى المنهج التاريخى ، عنصر غير علمى يعد له أهمية . وهناك الحنين إلى أنواع معينة من المواد وهى الأنواع التى ينبغى للصانع الماهر أن يتوفر عليها كى يمارس مهنته : مثلا حنين الفخارى للصلصال والبناء للحجر والخياطة لنسيج قماشها . وهناك الجاذبية العقلية أو حب الموضوع فى ذاته ومن أجل ذاته وهو ذاك النوع من الإدراك الذى ينبئ المرء بما يحسن التحرز منه وما يحسن التطلع إليه . والمرء يستخلص ، من ممارسة مهنته ، معاضدات لا يستشعرها كما هى الحال فى الشعر وفلاحة البساتين . وهناك ، آخر الأمر ،

البديهة أو الحدس ، تلك الطفرة الذهنية التى توعز بالتأويل أو التعليل . وليس فى وسع المرء أن يحللها هنا نفسياً حتى ولو أمكن تحليلها تحليلاً مرضياً على الإطلاق. ولكن مجيئها محتمل ، على أن المرء يتعذر عليه التنبؤ باللحظة التى فيها يكون العقل فى حالة تهيىء له التقبل وهو فى حالة توقف ذهنى تام . وربما كانت تلك مجانسة « طاقة » كيتس « السلبية » وهذه هى حالة التقبل عنـــدما يتنبه ويضطلع بالعمل جهاز ذاتى لا شعورى أكثر حذقاً وتلقائية — فى لحظة تجلى فيلوور ما كان مشوشاً ملتبساً . فهل هذا يختلف أى اختلاف جوهرى عن طريقة تولد أية نظرية علمية ؟ تلك الأمور معقدة ، وعندما يتطرق إليها المرء يتضاءل الفرق بين أمر وأمر . فإذا انتهت إلى أن تتشابه تشابهاً عجيباً فى أساسها فهناك — فى مقابل الصعوبة التى نجدها فى شرح — الفـكرة المؤسية فـكرة وحدة المعرفة الإنسانية .

ويعود الموقف إلى التعقد عندما نتكلم عن « محتويات » التاريخ ، عن المادة فى ذاتها . وما أنا ممن يتقبلون الاحتـكارية ، لا من برى من ناحية ولا من تريفليان من الناحية الأخرى ، فالتاريخ يحوى « قطعاً » عنصراً علمياً . والمهم هنا هو أن نعزله ، المهم أن نعرف ما يكونه وما لا يكونه . والتاريخ ، على أية حال ، ليس حشد أحداث فردية دون ربطها بعضها بالبعض ، وليس كيس خرق بالية يضم أشيـــاء حدثت على أى وجه كان . وقد خلص كل المؤرخين ، أياً كانت مدرستهم الفـكرية ، إلى استخلاص نتائج وصياغة نواميس عامة مما كانوا يصفون . وهذه الحقيقة ترشدنا إلى ما يجب أن تـكون عليه طبيعة الموضوع . إنها وصفية كغيرها من العلوم الاجتماعية ، كعلم البشرية مثلا . ولـكن هناك نواميس عامة تستخلص من الوقائع التى تبدو نتيجة لذلك . إن وقائع التاريخ ليست مفردة وليست صلبة كالحصى على شاطىء البحر بل إنها تتصل فى كل اتجاه بحصل من النتائج . فحالة مسائل معينة تولد حالة أخرى ، وتتولد من حالة سابقة

وهى تتصل بعضها بالبعض اتصالاً عرضياً . وكون السبب يغلب فيه أنه ليس بسيطاً وليس ذا بعد واحد لا يعنى أنه ليس قائماً وإنما يعنى فقط أن من الأصعب فكه (أو تخليصه) وتقدير قيمته . وهذه ، مرة أخرى ، واحدة من مزايا العلوم الاجتماعية ، إذ إنها ليست صلبة ولا منهاجية ، وهى تنطوى على حذق الحياة نفسها وليونتها ومرونتها . وكل ما تزجيه يجب أن ينظر إليه من ناحية تعبيرات الحياة . تلك هى الحقيقة القصوى والزعم الأخير . والحياة هى الهدف النهائى للتاريخ وليست شيئاً خارج دائرته ، وإنما هى شرود ذهنى يتمخض ، مع ذلك ، عن مزاعم تفوق العقل ، أو عن شىء مخترع .

ومع ذلك فهذا لا يعنى أن التاريخ لا يتضمن عناصر تسير وفق قواعد ثابتة بسبب أنه ، فى حد ذاته ، لا يتبع نظاماً ثابتاً ، شأنه شأن الحياة . إن فيه عناصر تحتمل التحليل العلمى : فسكان بلد من البلاد وعددهم وصفاتهم موضوع لا أهمية جلية بالنسبة لتاريخه ولأى مؤرخ يكتبه . فكيف يمضى فى الموضوع ؟ جوابى أن هناك منهاجين يتداخل كل منهما الآخر : الأول عقلى وعلمى والآخر وجدانى وجمالى ، والاثنان لا يتعارضان بل يتكاملان وينير كل منهما السبيل للآخر . وهنالك جماع سر التاريخ وسر الكتابة والبحث التاريخيين . ومصدر السر زاوية نظر التاريخ المثناة وهى ازدواج فى التفكير ثابت أو إذا شئت ازدواج عقلى . وهو لا يفحص عن العالم بمجهر (ميكروسكوب) أو بمرصد (تلسكوب) . إنه يركز على الموضوع دائماً بعينين اثنتين ؛ الواحدة تحليلية وعلمية والثانية انتقائية جمالية . وجيبون يهتم بالإحصاء والقواعد العامة ولكنه مع ذلك قدم للمرء صورة الحياة والشعور بالشىء . وتغلب أحد العنصرين يتوقف على الموضوع وعلى ما يريد المرء أن يستهدفه منه . والعنصر النظامى العلمى يمتد إلى غاية مداه فى دراسة الإنسان الباكر وما قبل التاريخ . وهو فى الظواهر الجماعية

أهم منه فى الفردية . وحتى فى الظواهر الجماعية يستخدم عنصر علمى ، وإلا ففيم يستخدم علم النفس إن لم يكن لمثل ذلك ؟ وفى التحدث عن الجماعات ، على العكس ، يستخدم عنصر القيمة . وإلا فكيف بغير ذلك يتكلم عن الوطنية والولاء وتضحية النفس ؟ وهذه الأشياء لا يسهل تخليص بعضها من بعض ولكن ذلك لا يقوم سبباً ليأسنا من تنظيمها وللارتداد إلى ريبة لا تميز ولا تفقه نتائج الأمور . كما أنه ، من الناحية الأخرى ، لا يقوم سبباً لأن نندفع يائسين مرتمين فى أحضان واحدة من الطريقتين دون النظر إلى الأخرى بتة . وإذا أردنا أن نفهم التاريخ فينبغى لنا أن نضع الاثنتين نصب عيوننا طوال الوقت . وعندئذ نجنى ثمرات لا حصر لها من تكافؤ الضدين .

ولنعد إلى الشعب بالمثل الذى ضربناه . إذا أردنا أن نفهم ذلك العامل التاريخى الذي نتناوله بالبحث فنحن فى حاجة إلى بعض الإحصائيات وإلى قبس من علم الأجيال . والقليل من كل منهما قد يستخدمه المؤرخ شوطاً بعيداً . ومهما يكن فهو أفيد من مجرد الانطباع وإن تكن للانطباعات فائدتها كذلك . فانطباعات هيرووت — كما خلص إليه الآن علماء علم البشر — تنطوى على قدر كبير من القيمة التاريخية . ويخبرنا السير جون مايرز أن « التاريخ — بمعناه الدارج الذى يألفه الشعب أكثر من غيره — هو بحث تصرفات المرء مع غيره من الناس ومواءمة علاقات التعامل بين المجموعات البشرية . ولكن هناك معنى أوسع يجعل التاريخ البشرى يتداخل فى التاريخ الطبيعى ويبحث سلوك الناس إزاء الطبيعة ... وسجل الإنسان ، قبل التاريخ ، غارق فى موكب دنيا الحيوان وفى حلبة الكوكب الواسع الذى ما انفك يتقدم فوق سطحه . والجبال وأحواض البحار لها تاريخها كذلك . وقد تبدل توزيعها الجغرافى فى السنين البائدة السحيقة ... ولكى نرى كيف أعد المسرح لذلك المشهد التاريخى ينبغى لنا أن نرجع البصر

إلى ما قبل اللحظة التى فيها دخلت الشخصية الأولى ، إذ كانت الطبيعة — وليس الإنسان ، حتى ذاك الوقت ، وفى كل مكان تقريباً — إذ كانت الطبيعة هى التى تحدد أين يجرى العمل . وواضح أن العنصر العلمى هنا فى أعلى أوجه . ولا جدال فى أنه لا سبيل إلى فهم كل تلك الحقبة من التاريخ إلا عن طريق العلوم إذ إنها جميعاً ، من الناحية العملية ، تنتهى عند نقطة واحدة . وتاريخ الإنسان ، فى تلك الحقب الباكرة ، يحدده علما طبقات الأرض والجغرافيا . ونحن نرجع رويداً رويداً حتى نصل إلى « مقارنات أكثر وضوحاً فى تكوين وتركيب صخور تلك الحقب التى أثرت أعمق تأثير فى الصلاحية للسكنى وسعادة الإنسان فى كل منطقة مركبة من عناصر مختلفة عن طريق التوزيع العجيب للنبات والحيوان وفى آخر الأمر عن طريق سلالاتها البشرية » .

فالتاريخ إذن لا يقتصر على « التخمين التقريبى » . فهناك مجالات لا نستطيع فيها إلا أن نخمن ، وذلك لانعدام الأدلة . وهناك مجالات أخرى يصبح فيها التخمين أو التفسير التصورى هو التطبيق الفنى المناسب . وفوق تلك المجالات وبعدها ، هناك مجالات يقتصر الصواب فيها على جمع شخصيات . وتقرير أحكام عامة وعلى ملاحظة الاتجاهات التى يبدو فيها شىء من التنظيم القانونى . وليس أفيد لطالب التاريخ الإنجليزى الحسن الإدراك من دراسة ازدواج مقومات الشعبين الإنجليزى والكلتى : التطرف والحيوية وحدة المزاج فى الواحد ، والثقة والخشونة والخيال وروح الاعتدال فى الآخر . ومن حسن الحظ أنه لا يوجد محل للشك فى أيهما المتفوق . وكل من أوتى إدراكاً حسناً يستطيع أن يلاحظ بروز هذا التوتر فى شعبنا وفى تاريخه وهذا نستطيع قوله من دون أن نتورط فى مساوىء العنصرية أو الرابطة الجنسيه . فالأصول لها وزنها ، وعلم الأجيال هو طريق تقدير قيمتها .

وفى وسعنا — دون أن نزايل الغور الذى وصلنا إليه أن نتبين أنه ، فى بعض الحقب التاريخية البالغة البساطه ، يمكن استنباط بعض الأحكام العامة . ولنضرب مثلا تأثير التضخم أو الانكماش[1] على الظروف الاقتصادية لأحد المجتمعات وعلى العلاقات الاجتماعية للطبقات . وهنا يمكننا أن نلاحظ ، مع شىء من القياسية التاريخية ، نتائج التضخم وأن نتنبأ — فى شىء من الاحتمال — بمصايرها ، فالتضخم يخل بنظام الاستحقاقات التى تعودت أن تؤديه طبقة لأخرى كما أنه يخرجها من الأموال المنقولة: فإن ذلك الذى يتوقف على مدفوعات محددة يخسر وينخفض اقتصادياً . والجماعات التى تتكون ممتلكاتها من عقار ثابت ، ومن الأرض بصفة غالبة — وبخاصة إذا كان هذا العقار تام الملكية وكان رأس المال تحت تصرفهم وبذلك يصبح مرناً — تلك الجماعات تكسب مكاسب سريعة فى وقت كهذا . وفى وسعنا أن نرى العواقب: بإنجلترا فى أثناء فترة الإصلاح الدينى ، أو بفرنسا فى أثناء الثورة . أما نتائج الانكماش فما زالت أكثر انتظاماً وأجدر بالملاحظة : ربح لأصحاب الدخل ولأصحاب ما تحدد من التأمينات والأقساط والإنتاج المقيد وللمتعطلين . وتخفيض قيمة العملة سبيل مطروقة ، فى التاريخ ، ونتائجه يمكن التنبؤ بها تنبؤاً منصفاً . ويبدو أنه لا سبب يمنعنا من أن نعد قانون جريشام قانوناً تاريخياً بقدر ما هو قانون اقتصادى .

وهناك نزعات عامة أخرى تمكن ملاحظتها فى التاريخ لا فى التاريخ الاقتصادى وحده — وإن جاز أن تكون فى تلك الحالة ، كما قال برى ، فى أدق سيرها — يقول هناك نزعات عامة تشابه القوانين شبهاً كبيراً . وعندما تبلغ الشعوب درجة معينة من الترابط والقوة وحسن الوعى عندئذ يبدو متعذراً على شعوب أخرى أن تتحكم

---

(١) الانكماش سحب جزء من العملة المتداولة لمنع التضخم .

فيهم إلى الأبد . واستحالة تغلب الغير على قومية شعب هى نتيجة نستبدلها من التاريخ ؛ أنا لأود أن أقول إن التاريخ ينتهى دائماً إلى نهاية واحدة محددة فى تلك مكابدة من ضيق أفق بعض الناس . ولقد كان هذا شأن هيجل الذى زعم أن خير نموذج لتحقق الذاتية فى العالم هو الدولة البروسية . وفى الحق أن هذا النوع من العقلية إنما هو ارتداد تخلف من طريقة التفكير اللاهوتية فى العصر الذى سبقه ، مع صرف النظر عن الفلسفة اللاهوتية الخاصة بالله.ومع ذلك فإن هيجل نفسه زعم أن تحقق الذاتية متجدد فى التاريخ دون انقطاع . ويبدو — مع كل ألوان خيبة الأمل والمعوقات — يبدو بوضوح أن هناك دافع لا يقاوم ، يستهدف الحكم الذاتى فى المجتمع الإنسانى .

وقد سارت إنجلترا فى سبيل تخالف اتجاه سير التاريخ عندما ظلت تحاول حكم إيرلندا فى القرن التاسع عشر . وكان من الخطأ التشبث بالمستعمرات الأمريكية فى القرن الثامن عشر . فإن تلك المستعمرات كانت قد نضجت فعلا ، بل بلغت غاية النضوج ، بدرجة تجعلها أهلاً للحكم الذاتى وإن لم يفطن إلى هذا فى ذاك الوقت إلا القليلون . وقد وضح ذلك جلياً من السرعة الفائقة والجدارة اللتين بهما أبرزت الولايات المتحدة كل مقومات الدول العظمى . ولم يسبق لها إذ ذاك قط أن بلغت مثل هذه المرتبة الساحقة من العبقرية السياسية وحسن الإدراك . ومهما يكن فإن المستعمرات الأمريكية أخذت على عواتقها أن تحصل على الاستقلال الناجز ، وحدث ذلك بعد عشر سنوات وقتما تورطت إنجلترا فى نزاع على كيانها مع الثورة الفرنسية ونابليون . ومما يرثى له أن الطبقة الحاكمة البريطانية لم تفطن إلى سمات الوقت ولم تدرك الاتجاه المحتوم صوب الاستقلال والحكم الذاتى . ولكنها فى هذا القرن الحالى عمدت إلى تصرف أحسن مع الهند وتقبلت حركة الشعب الهندى صوب الحكم الذاتى. وربما يكون الشعب قد انتهى إلى حكم أقل كفاية ولكنهم قد يكونون أسعد حالاً

بحكم أنفسهم لأنفسهم . ومثل هذا الاتجاه لايقاوم . ولـكن النقطة الوحيدة التى تستحق البحث هى كيف وفى أية ظروف نستطيع أن ننقل الحـكم إلى الشعوب على أحسن وجه .

ويبدو أن التاريخ يشير إلى أن الوقت المناسب هو الوقت الذى فيه يبلغ شعب ما نضجه السياسى بدرجة تمـكنه من إدارة شئونه بنفسه . وهذا الناموس العام هو نفسه الذى جعـل محاولات ناپوليون وهتلر لحـكم أوربا كلها تنتهى إلى لا شىء ، ونرجو أن يبوء بالعاقبة نفسها كل من يحاول أن يصنع مثل ما صنعا . والنتيجة العامة التى يمـكن استخلاصها من التاريخ الأوربى هى أن أية دولة واحدة ليست قوية بدرجة تمـكنها من حكم سائر الأخريات . « وعلى ذلك » يـكون الأمر المعقول (أى الذى يشير إليه روح التاريخ) نوعاً من النظام الاتحادى قد يمـكننا من العمل معاً متضامنين . وعلى أساس معرفتنا بالتاريخ يمكننا أن نطل إلى قلب المستقبل القريب جداً ونرى قبساً من صور الأمور الطارئة . وهذه المعرفة هى خير معين على معرفة ما يسعنا بدورنا ، إنجازه إنجازاً نافعاً .

وهنا ندنو من الموضوع الأسـاسى وهو مذهب الحتميـة وحرية التصرف ذلك المذهب الذى يتولد بغـتة على صورة ما فى كل عصر ومع كل عقليـة وإن جرت العادة أن يلبس مسوح اللاهوت فى فترات تخصص للتأمل اللاهوتى . ونرجو فى البـاب التالى أن نتنـاوله على أنه يؤثر فى التـاريخ . وحسبنـا فى الوقت الحاضر أن نشير أن نجاح المرء ـــ وهذا مؤكد لانتصار الإنسان فى كل مجـال إذا قورن بالحيوان ـــ مرده إلى كيفيـة امتثـاله لضرورات الطبيعة . ففى خدمة الطبيعة حريتـــه ، وإن كان من الصعب أن ندنو من الحرية الـكاملة . (وربما كانت الحرية الـكاملة لا تتوافر إلا فى سبيل خدمة فـكرة ، فـكرة غير الـكائن) . والأمر على حدقول جون مايرز : إن قوة استمرار الإنسان

أكثر من قوة أى إبداع ، وامتناعه الشديد عن نبذ أسلوب حياة تعوده يوماً ، ولجوءه إلى أى نوع من أنواع المصالحة — فضلاً — تحمله الشرور المحيطة بنا على هروبه إلى شرور أخرى لا نعرف عنها شيئاً وفى النهاية : إن قدرته الفذة على قهر الطبيعة بمواءمة نفسه لأساليبها ، إن هذه الأشياء هى التى تميزه عن جميع الحيوانات اللهم إلا أمثال الحصان والكلب من الحيوانات التى كشف فيها الإنسان خصائص تماثل من قديم خصائصه . (وأسف على أن السير جون لم يذكر القط وهو الحيوان الفطين المتبصر) .

والتمييز بين الجماعة والفرد مهم فى معرفة إلى أى حد يوجد فى التاريخ العنصر العلمى , والتحليلى والعقلى ، ويقابل هذا فى الأدب العنصر الوصفى والحدسى . ويطبق التحليل العلمى ، غالباً ، فى الظاهرات الجماعية . أما الظاهرات الفردية فالتنبؤ بها صعب فى الغالب ، وإلا لما دعت الحاجة إلى علم النفس ، وإلا فأين تستخدم « معرفة الطبيعة البشرية » المعترف بفائدتها فى العالم ؟ وإذا تأتى لنا الإلمام بشىء من رغبات الفرد ونزعاته وخصائصه الخلقية ، بل إذا عرفنا شيئاً عن عقده النفسية إذ إنها تظهر تأثيرات العقل الباطن — إذا تأتى لنا ذلك عرفنا إلى حد كبير كيف يمكنه أن يتصرف . أما فى حالة الجماعة فمعلوماتنا أكثر يقينية إلى حد كبير إذ فى حالة مجموعة كبيرة من الناس تمهد الفروق والأمزجة الذاتية ويتصرف الناس تبعاً للقوى التى تعتدى عليهم أو تحتك بهم . وإذا هددت بقاء شعب، تحرك كرجل واحد . والتاريخ مشحون بأمثلة من هذا النوع . فالهولنديون جاهدوا استبداد فيليب الثانى بهم وتهديد لويس الرابع عشر بقهرهم ، والفرنسيون جاهدوا أوربا الرجعية فى ١٧٩٢ . وإذا أذللت شعباً توقعت رد فعل عادلاً لاشك فيه . وإذا خفضت أجور طائفة من العمال أو إذا حاولت أن تستولى على ممتلكات عشيرة اجتماعية معينة

بات رد الفعل أكيداً . هذا ولو أن تصرف أهلها وفاعليتهم بجريان تبعاً للظروف . لقوة العشيرة وللمقاومة التى تلقاها أهل العشيرة وهكذا .

والأمر الذى يعالجه الباحث بصفة خاصة فى محيط العمل الجماعى فى التاريخ — والذى يحظى بأكبر اهتمام فى التاريخ السياسى الاقتصادى والاجتماعى والدستورى، فى العلاقات بين الدول — هذا الأمر هو المظهر العام لسلوك الشعب . وليس للباحث أن يهتم بسلوكهم بوصفهم آباء أو أبناء ، لا بوصفهم أناساً رياضيين أو أعضاء فى ندوة ، ولا بوصفهم فنانين أو مشتغلين بالعناية بحدائقهم . فكل هذا يدخل فى دائرة تصرفاتهم الخاصة ولا يكاد يمس التاريخ بحال . وربما يستثنى من ذلك التاريخ الاجتماعى . وحتى فى هذه الحالة يجتزأ بما قد يضيفه إلى التاريخ . والسلوك الجماعى بالضبط هو المجال الذى فيه يستطيع المرء أن يحسن التعميم وربما أمكنه التكهن إلى حد ما . ولئن زودتنا الجيولوجيا (علم طبقات الأرض) والتاريخ بخلفية لتاريخ البشر فقد يكون لنا أن نعير الاستعارة لكى نشبه العمل الجماعى بسداة النسيج (أى خطوطه الطولية) ولحمته (بضم اللام أى خطوطه العرضية) ونشبه تصرفات الفرد بالخيوط المفردة التى تدخل النسيج . وقد تكون تلك الخيوط ذات ألوان مختلفة بل قد تتبع سبيلاً خاطئاً فى القماش ولكنها تبقى مع ذلك جزءاً منه . ولكى نشرح الصورة بتعبير آخر نقول إن الأفراد لايستطيعون أن يزعموا أنهم خارج مجتمعهم وقد يتراءى لهم أن يزعموا أنهم خارجه (وقد فعل ذلك الكثيرون بدافع من مصالحهم الفلسفية والدنيوية) ولكنهم مع هذا يبقون جزءاً منه . وبيئتهم الاجتماعية هى التى تكيفهم بل ترسمهم . والإنسان مركب اجتماعى . وهو الكائن الذى يصنعه الجنس والبلد والأسرة والكنيسة والمدرسة والمجتمع الاقتصادى . وهو على هذا النحو قابل للتحليل بل لقدر سوى من التكهن بالنسبة لخطة سيره العامة وإن جاز أن تكون الخطوط العامة لينة مرنة داخل الإطار .

هذا إذن ، هو المنظور المناسب للتاريخ الذى فيه يهتم بتصرفات الفرد . وهناك خطر من المبالغة فى التفكير فى التاريخ نظرياً ، إذ إن « نظرية تاريخية » معينة عرضة لأن تكون منهاجية أكثر مما ينبغى لها . وتلوح الأهمية عند ما تدفع الأحداث الإنسانية الموفورة غير المنظمة ليحتويها قالب صلب لباحث فى النظريات غير معصوم على الإطلاق . وهذا يخالف تماماً طبيعة التاريخ الأصيلة . ومن جهة أخرى يجب ألا نقع فى أساليب الشك التاريخية الفسيحة المريحة ونقول إنه لا سبيل إلى العلم بكيفية تصرف وتأثر بنى الإنسان فى المستقبل وإنها لا يجمعها مطابقة ولا منطق وإنه لاوجود لنزعات أو قواعد محكمة وإنه لامحل للتعميم .

والتاريخ شىء من النظام . وهذا النظام يبلغ مداه عند مايرقب المرء حركات الجماهير . وحتى هيوم ، وهو أكثر الفلاسفة شكية زعم أن : الشىء الذى يتوقف على أشخاص قلائل يعزى فى أغلب الحالات إلى الصدفة أو إلى أسباب مكنونة لا علم لنا بها . أما الذى يصدر عن مجموعة كبيرة العدد فقد يعلل غالباً بأسباب محتومة ومعروفة . وعلى ذلك تكون « قوانين » التاريخ لها طبيعة التعميم الإحصائى : فلدى دراسة فرد واحد يكفى القليل من الحساب ، أما عند دراسة مجموعة كبيرة فقد يضطر المرء إلى عمل رسوم — كما فى العلوم الاقتصادية — بشرط أن يستخدم المرء فى عمله قبضة من حسن الإدراك .

وقد عقد دلثى ، وهو الفيلسوف العصرى الذى يجانس المؤرخ كل المجانسة — بعد أن استثنى هيوم إلى حد ما — مقارنة بينه وبين العلوم الطبيعية والدراسات الإنسانية . وزعم أن أصحاب المذهب التجريبي والقائلين بالفلسفة اليقينية (أو الوضعية) فى القرن التاسع عشر — مل وسبنسر وكونت — أخطأوا عندما افترضوا أن مناهج التخمين فى العلوم الطبيعية يمكن نقلها — دون أن يعتورها تغيير ذاتى (من حيث الوجود الحقيقى) — إلى الدراسات الإنسانية . ويخبرنا

هودجيس أن دلثى اعتقد أن «الدراسات الإنسانية معلومات بمعنى يستبعد فيه العلوم الطبيعية ، ذلك لأن المواد الطبيعية نعرفها على أنها ظواهر مجردة بينما العقول «حقائق واقعية» (أو كائنة) نعرفها كما هى فى ذاتها» . وهذه ليست محاولة لإنكار حقيقة العالم الخارجى ولا لإنكار انتصارات العلوم الطبيعية فى استقصائها . وهناك أساليب واضحة تعرفنا الطبيعة الفطرية على وجه أفضل من معرفتنا بالإنسان أو المجتمع . ففى وسعنا أن نصف ونحلل ونشرح ونتنبأ فى دقة تتفوق كثيراً فى الأولى عليها فى الثانية . ثم إن معلوماتنا عن الطبيعة لاتتوقف بأية درجة على الدلائل الإنسانية التى توجد بغير شواهد علمية . ومن جهة أخرى ليس فى مقدورنا أن نتناول وجود الأشياء الطبيعية ونتدرج فى البحث بقدر ما يسعنا أن نفعل بالنسبة للمخلوقات والمجتمعات الإنسانية حيث تمكننا الفراسة التعاطفية — المبنية على مواءمة الطبيعة بيننا وبين ما نتقصاه — من أن نزن الحركات والتغيرات الخارجية ، بل كذلك الدوافع التى تولدها ومعناها فى نظر الشعب المعنى .وهذا هو الذى يحدو دلثى على أن يسمى الدراسات الإنسانية معلومات عن الواقع أو الحقيقة بمعنى تستبعد فيه العلوم الطبيعية .

« ومدلولات التاريخ ليست فقط استكشافات عقلية بل إنها تدرك بالحواس على هذا الوجه ، وهذا يشكل فارقا — خاصاً بفلسفة المعرفة والمنطق — بين الدراسات التاريخية والعلوم الطبيعية . ويلاحظ المشتغل بالعلوم أشياء وعمليات ولكنه لايدرك فيها فاعلية ولا علاقات دافعة .

وإذا عرف شيئاً عن علاقاتها العرضية فإنما يعرفه عن طريق الافتراض والتجربة ، ويتخذ هذا الشىء دائماً شكل القانون المعنوى . ولكن المظاهر العقلية غريزية بالنسبة للحياة التى تولدها والتى تغدأ كلها تنعكس عليها . وليس فى وسعنا إطلاقاً أن

نلاحظها دون أن ننظر إليها على أنها جزء من عملية دافعة ، وهذا بالذات هو الذى قصد إليه بتسميتها « تاريخية » . والعقل لايفهم إلا ما خلقه هو . والطبيعة — وهى هدف العلوم الطبيعية — تشمل تلك الحقيقة التى تتولد مستقلة عن فاعلية العقل . وكل شىء يضع عليه الإنسان طابعه عن طريق العمل يكون هدفاً للدراسات الإنسانية » .

وفى ظنى أن دلثى يجرى مقارنة صادقة بين مناهج العلوم الطبيعية وبين الدراسات الإنسانية . إذ ينبغى لنا أن نذكر أنك إذا نظرت إلى المنهج التاريخى والمنهج العلمى — على أبسط الوجوه وأكثرها أصالة — وجدتها واحداً يتجزأ . فأنت فى كليهما تنتقل من تجميع الحقائق الخاصة إلى التعميم ثم ترتد من التعميم إلى الحقائق . وأنت — فى العلوم وفى التاريخ — لاتبدأ من لا شىء : إنك تبدأ بالتفكير المنطقى وبمنهاج عملى . وكلما تقدمت عدلت منهاجك تبعاً للأدلة . وهكذا تبنى النوامس العامة والنظريات التى تلقى ضوءاً على الحقائق . وعلى هذا الضوء يستطاع تفسيرها وتحظى بالأهمية . غير أن التعميم فى العلوم وفى التاريخ عرضة دائماً للمراجعة على ضوء الدلائل الجديدة ، إنه يظل أبداً يصاغ المرة بعد المرة مع مراعاة الحقائق والأدلة .

وهذا هو الذى يهيء لنا المدافعة عن البحث التفصيلى الذى يثيره الكثيرون فى صدد التاريخ . إنهم يسألون ما الفائدة من البحث المستفيض المحكم فى خزانة ثياب ادوارد الثانى . أو من معرفة الفرق بين خاتم وخاتم : الخاتم الكبير . . . خاتم مجلس شورى الملك . . . الخاتم العادى . . . خاتم الملك : أو بين نوع من الأمر القضائى ونوع آخر ؟ ومن المهم مراعاة الإدراك النسبى ، فهناك مؤرخون ليس عندهم منه الشىء الكثير ، تماماً كما أن هناك أناساً من المشتغلين بالعلوم ليس عندهم منه شىء أو عندهم منه قدر قليل ضئيل . ولكن لا يبدو أن رجل الشارع

يعنيه أن يسائل عن فائدة النوع نفسه من البحث المفصل المحكم الذى قد لا يؤدى إلى شىء بوجه خاص فى صدد العلوم : هذا بينما الموضوع برمته — والدافعة التى تقتضيها — هوهو فى صدد التاريخ وفى صدد العلوم . ومن المهم بصفة عامة أن نكفل الدقة التامة والمعلومات المكتملة أو ما يقرب منها جهد الطاقة فى صدد التفصيل وكل جزء من أجزاء الموضوع . وتلك عملية يجب أن تستمر دواماً وأن تلاحق ، وإلا كان التعميم غير مكتمل وكان الخطأ لزاماً بصفة عامة .

وعندى أن هذه إجابة كاملة لأولئك الذين يتساءلون عن فائدة البحث التاريخى أو عن موضوع البحث العلمى . والأمر سيان فى الحالين . ونحن نعرف أن بعض الباحثين ينظرون إلى الأشياء بوجهات نظر متفاوتة . وهذه هى طبيعة الأشياء إلى حد ما . فالعاملون المشغولون ببحث مركز لموضوع ضيق المجال قد ينظرون إلى هذا الموضوع على أنه أهم مما هو فى الواقع . ولكن المرء لا يستطيع أن يتنبأ بما قد يظهر بعد ذلك . وإلا فلا سبيل إلى مضيهم فى استقصاءاتهم ، والعلاج بين الأولى أن ينظر إلى المرء إلى موضوعه نظرة عامة طيبة وأن ينجز بحثاً مفصلاً لجزء منه . فهو فى حاجة إلى الاحتفاظ بالاثنين معاً تحت المجهر ، وبذا يؤثر كل منهما فى الآخر أثراً ناجحاً : البحث المفصل لأنه يرى فى أفق أوسع والبحث الإجمالى لأنه ينطوى على الحذر والدقة والضبط فى النتيجة التى تولدها خبرة البحث . وأنا أحبذ كل التحبيذ أن يصبح المؤرخ الأكاديمى القدير قادراً على الكتابة للقارئ العادى من ناحية وللجمهور المتخصص من الناحية الأخرى .

ولنعد أدراجنا : هناك من جهة أخرى بعض من فروع العلوم ، مناهج البحث فيها تاريخية إلى حد بعيد : خذ مثلاً علم طبقات الأرض ، تجد أن منهج التثبت من الفترات الجيولوجية المتعاقبة يتبع إلى حد بعيد منهج التثبت من الوثائق التاريخية

هذا فماعدا أن الوثائق هنا هى صخور وحجارة . وخذ مثلاً كذلك دراسة التركيب العضوى الأولى فى البقايا النباتية والحيوانية القديمة نجد أن الغرض منها تقرير تتابع السياق أو النسق بأساليب ينبغى لها أن تكون تاريخية . وهكذا ندخل دائرة ما قبل التاريخ ثم ندخل التاريخ الأصيل .

وقد رأينا فى هذا الباب أن دراسة التاريخ تنطوى على عنصر من عناصر العلوم الطبيعية . ومعنى هذا أن بعض قطاعات الموضوع يناسبها التناول العلمى وذلك فى دراسة البيئة الطبيعية والجغرافية وتأثيرها على قصة الإنسان وأيضاً فى تحليل القوى الاقتصادية والاجتماعية وتأثيرها على تكوين الناس وسلوكهم فى المجتمع وكذلك فهم وجوه كثيرة من تصرفات الجماهير بل حق فى التفسير النفسانى للفرد .

وكل هذه المعاضدات ليست إلا خارجية . أما المغزى البعيد الغور فى التاريخ وأما سمو إدراكه فكانهما غير ذلك ، مكانهما إنما هو روح الإنسان التى هى جذوة الحياة نفسها. والبطانة المناسبة لهذا لاتستمد إلا من الفن. وداتى نفسه يسلم إلى حد بعيد بالعنصر العقلى والتحليلى البحت فى الاجتهاد التاريخى « تفحص معنى المصادر وقيمتها وملء الثغرات وتحليل المتناقضات إلى عناصر أولية وتحسس الارتباطات القرضية وبذلك تبنى حكاية مترابطة ذات أساس متين . ولكنه إنما يصنع على مقياس مكبر ما نصنعه جميعاً عند ما نفهم أقوال جيراننا وأفعالهم » . ومعنى هذا أن عمل المؤرخ يشابه عمل الروائى فى رد الحيـــاة إلى أوصافها الصحيحة [وذلك بالمنطق والتأويل ومعرفة طبيعة البشر من التجربة ومن حسن الإدراك ومن الفراسة التعاطفية والخيال . ومع ذلك فـ « حيث يستطاع تحويل الإدراك التخيلى إلى تفسير عرضى أو حيث يستطاع إحلال هذا التفسير محله ينبغى اللجوء إلى ذلك . وإذا كان هناك معنى للكلام عن تطور التاريخ صوب مرتبة العلوم فلابد من أن

يعنى فى الأغلب ذلك التطور نفسه من الإدراك التخيلى إلى الإدراك العقلى ، من رؤية ماهو طبيعى إلى الاعتراف بما هو نسقى . وفيما يخص سير هذه العملية ستضيق الثغرة بين التاريخ وعلم الاجتماع وسيعبر حلم أصحاب الفلسفة الوضعية أو الوضعية — القائل بأن التاريخ يمكن أن ينقلب إلى علم اجتماع تطبيقى — يعبر هـــذا الحلم عن هدف ارتقاء كهذا وهو هدف لا يقل أصالة ، مع ذلك ، إذ إنه لن يدرك أبداً على الوجه الأكمل .

وهى فى النهاية — كما فكر دلثى — عملية إدراك تخيلية تزود سائر الأهداف بالحياة والمغزى . وتلك هى طريقة فهم الحياة . والتاريخ يسجل لنا الحياة كما عاشها الإنسان . وإذن فجوهرها يكمن فى الحقائق الثابتة وفى الوقائع والأحداث المنوعة المتعددة التى جرت يوماً فى الدنيا الحقيقية . وعمل المؤرخ هو أن يحكيها ويعيد خلقها وهو — لكى يفعل هذا — لابد له من أن يكون ، فناناً . وعملية إعادة الخلق التاريخية لا تخالف بالضرورة عملية الشاعر أو الروائى اللهم إلا فى أن خياله يجب أن يخضع للحقائق خضوعاً قلقاً . ويجب أن يرضى بحكم الشواهد وألا يحيد عنها أبداً فهى فن صارم جاد .

ولم يكن هباء لجوء المؤرخين فى النهاية إلى الإدراك الحسى وإلى الفراسة التخيلية . فلقد كان هيرودوت وثيوسيديديز ، وتاسيتاس إوليفى ، وكلارندون ، وهيوم وجيبون ، وماكولى وكارليل ، كان كل هؤلاء فنانين وكانوا فى مقدمة عصرهم . ومهما جاز أن تــكمل عملهم إلى حد كبير مناهج وتحصيلات علمية — مع العلم بأن ما أسهموا به لابد من أن يزهر مهما جاز ذلك فسيبقى التاريخ أبداً بوصفه فناً .

الباب الخامس

التفكير التاريخي

يشهد القرن التاسع عشر ثورة ثقافية عميقة الأثر لم يفطن الناس إلى آثارها الكاملة إلا فى عصرنا هذا ، وكانت هذه الثورة الثقافية تتصل بالتاريخ فى الصميم ، وكان التاريخ هو موضوعها فى أغلب الأمر . ولنا أن نقول إن صيغتها تاريخية . فلقد أتاحت منوالاً جديداً للنظر إلى الأشياء ، منوالاً ثورياً بالطبيعة ، أى أنها عدتها متطورة بعملية تبدل مستديم . وعملية التبدل المستديم لم تفهم فهماً كاملا . فلقد كانت نظرية دارون بالذات ، الخاصة بالتطور عن طريق الانتقاء الطبيعى ، كانت افتراضاً علمياً لكيفية التغير فى محيط العلوم الطبيعية . وكان أهم تقدم هو التفكير فى التغير بصفة مطلقة ، وليس الأمر مقصوراً على ذلك بل تعداه إلى التفكير فى أن التغير لابد من أن يكون وليد أسباب . وكانت محاولة تحليل كنه تلك الأسباب من الأهداف الرئيسية فى الجهد الذهنى سواء فى العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ، منذ ذلك الوقت . ومن المستحيل المبالغة فى الاختلافات التى أتى بها هذا الجهد فى كل محيط . وإنك لتستطيع أن تراه فى صورة بالغة البساطة إذا تناولت كتاباً تاريخياً من كتب القرن الثامن عشر ووازنت بينه وبين البحث الحديث . فإذا اتخذت مثلاً كتاب لورد بولينجبروك « رسائل فى التاريخ » — الذى يمثل عقلية عصره أحسن تمثيل — وجدت أنه يفكر فى عهود متعاقبة على أنها سلسلة من أقسام منفصلة متماسكة لا ينضح الماء منها دون أن يسوق تعليلاً للانتقال من قسم إلى قسم اللهم إلا الكوارث والانهيار ودون أى أثر للتطور أو التبدل المتجدد على الإطلاق (وأنا أستعمل كلمة « المتجدد » بمعنى الأمر الذى ينتج شيئاً مغايراً أو متحدثاً ، وليس بمعنى القرن التاسع عشر الذى يتضمن الشىء الأحسن بالضرورة أو الذى يتحرك صوب نهاية من النهايات محتومة) . أما الآن فنحن نفكر فى الأشياء على أنها فيضان متدفق . ومع أن هذا يجعلها أصعب منالاً فإنا على أية حال أقرب إلى فهمها أو على الأقل إلى وصفها على علاتها .

وقد ذهب تأثير نظرية التطور إلى أبعد من ذلك بكثير . فلقد كان من شأنها أن تغير تغييراً كلياً آراءنا عن الكون ،وعن الإنسان ومكانه فيه وعن أصل الإنسان . وكان الجدل الذى أثير حول هذا الأمر الأخير أكثر وجوه المناقشة استرعاء للنظر ، كما كان الموضوع الذى فاز بأوسع قسط من النشر فى ذاك الوقت وإن لم يتحتم أن يكون أهم موضوع . وكان من آثاره الهدم البحت لدعاوى الدين وما وراء الطبيعة وعلم الأخلاق والقانون . ويبدو أنه فى دنيا غير مستقرة ، لا يبقى إلا إطلاق فلسفة الجمال دون قيد ، وقد يبقى إطلاق القضايا الحسابية والمنطقية . وقد جعلت فكرة الله فكرة زائدة عما يلزم . وأصبح قصارى أمر من يبتغون أن يبقوا على شىء من إطار الفكر القديم أن يخلدوا إما إلى فكرة مبهمة جداً رهفة جداً سيقت إلى دنيا لا تهتم بشئون البشر إلا بالنزر اليسير فيها ، وإما إلى التمييز بين صورة الإنسان الحقيقية ، التى يتعذر تمييزها ، وبين الطبيعة البشرية من الناحية العملية . (وبطبيعة الحال تتخلف مجرد خرافات) ولقد دفعتنا النظرية الثورية للكون إلى النظر إلى الأشياء نظرة تكاد تطابق كل المطابقة مذهب المعرفة النسبى . فهل يمكن أن توجد فى أى مكان أية حقيقة مطلقة ، وإن كان فأين توجد ؟

ونحن لا نجنى نفعاً من الهروب من الحقائق أو محاولة صقل المذاهب القديمة صقلاً جديداً عن طريق شرحها شرحاً جزئياً من ناحية وجلوها جزئياً من ناحية حتى تظهر كأنها جديدة . لا ، لا فائدة لنا من شىء كهذا .

وكل ما نستطيعه هو مجابهة مشكلاتنا ومحاولة التفكير فيها من وجهة نظرتنا الخاصة . فهناك كتاب كثيرون يبدو أن أكبر همهم الحرص على ألا يفرطوا فيما تكنه صدورهم من آراء وتكون النتيجة عدم استفادتنا منهم . فهم يقتصرون على تكرار الآراء المأمونة العواقب إذ قد سبق قولها . ولكننا لا علم لنا بما يظنون ،

إن فرض أنهم يظنون شيئاً على الإطلاق . إن قصارى جهدي أن أقدم لك رأيي الصريح فى تلك المشكلات العويصة مهما كان غير كاف ومهما كان وقتياً . وهنالك أمر يشد من عزيمق وهو أن أحداً ، على أية حال ، لم يقنعنى فى تلك المسائل ولم يقل عنها الـكلمة الأخيرة . وعلى هذا تنبغى لى شخصياً محاولة الإجابة عنها .

ولنعد إلى التطور وعلاقته بالتاريخ ! يبدو أن أناساً يزعمون أن دراسة التاريخ أو مفهوم التاريخ كله ، حدث فيه انقلاب كلى بعد أن تأثروا بالأفكار التى استحدثها العلماء ، وبخاصة دارون ، فى مجال العلوم الطبيعية . ويزعم د. ج كولنجوود ، من الجانب الآخر ، أن الأفـكار الثورية فى العلوم تطورت متأثرة بالتاريخ . وطد التاريخ نفسه ، حتى الآن على أنه من العلوم أى على أنه بحث علمى متتابع التجدد تثبت فيه النتائج ثبوتاً راسخاً أكيداً وعلى هذا النحو ثبت بالتجربة أن المعرفة العلمية كانت ممكنة فى حالة الأشياء الدائمة التغير . وتقول مرة أخرى إن الوعى الإنسانى — وفى هذه الحالة الوعى الإنسانى الشائع المسئولية ووعيه التاريخى بأعماله التضامنية — هذا الوعى يقدم له مرشداً لأفـكاره عن الطبيعة .

وينطوى إطناب كولنجوور هذا على معنى أكبر مما يدرك عادة وإن لم أذهب معه إلى نهاية الطريق . وقد اعتاد الماركسيون على أن يشيروا فى إزدهاء إلى أن ماركس — بأفـكاره فى صدد التطور الاجتماعى — كان على أقل تقدير ، يعاصر دارون ويشاركه رأيه ، واعتقد أنه فى العلوم الاجتماعية صنو له . فلقد ظهر « أصل الأنواع » فى ١٨٥٩ وظهر «رأس المال » فى ١٨٦٧ . ولـكن كتاب ينومان الهام « بحث في تطور العقيدة المسيحية » — الذى ضمنه « مذهب التطور » — وإن يكن قيده بقيود تعسفية — هذا الـكتاب طبع ١٨٤٥ . ولـكن هذا سبقه كوليردج وذاك سبقه هيردر . وأنا لا أذكر تلك الأمور إلا لأبين أننا لا نجنى فائدة كبيرة من محاولة التعقب والاستقصاء لمعرفة من الذى بدأ بالتعبير عن فـكرة جديدة . فـكل

مؤرخ يعلم أن آراء جديدة تنبثق فى جهات مختلفة فى وقت واحد تقريبا كما لو كان ذلك استجابة لمطالب جديدة تتفتق عنها حاجة الناس .

والواقع أن نظرية التطور فى العلوم وما أطلق عليه فى إنجلترا ، فى اعتدال وفطنة ، اسم « المنهاج التاريخى » (وما اتخذ فى ألمانيا اسماً مشابهاً) إنما هما تطوران توأمان لحركة الفكر الجوهرية ذاتها التى ميزت شخصية « المناخ الذهنى » للقرن التاسع عشر . وقد رأى (برى) ذلك جلياً . « إن نمو الدراسات التاريخية فى القرن التاسع عشر قد حددها وميز شخصيتها المبدأ العام نفسه الذى وقع تحت التطورات المتعاصرة لدراسة الطبيعة وهى فكرة النظام التناسلى الوراثى . فالفكرة « التاريخية » للطبيعة — التى ولدت تاريخ النظام الشمسى ، أى حكاية الكرة الأرضية وتسلسل التركيب العضوى الناشئ فى الأرض والتى طورت العلوم الطبيعية تطوراً ثورياً — هذه الفكرة « التاريخية» للطبيعة تنتمى إلى النسق الفكرى الذى ينتمى إليه التصور الفكرى للتاريخ الإنسانى بوصفه عملية عرضية أو تسلسلية دائمة . وتلك فكرة طورت البحث التاريخى تطوراً ثورياً وأكسبتها الصفة العلمية » ثم يستطرد بشرح ذلك فيقول : « وهذا يعنى ، بالنسبة إلى التاريخ ، أن حالة الجنس البشرى الحاضرة ليست — على وجه الدقة — إلا نتيجة لسلسلة عرضية (أو لمجموعة من السلاسل العرضية) من تبدلات دائمة التعاقب تتولد بمقتضاها — عرضاً — كل حالة من سابقتها . وهذا يعنى كذلك أن واجب المؤرخين أن يتعقبوا هذه العملية التولدية المتسلسلة وأن يوضحوا كل تبدل وأن يضعوا أيديهم ، فى آخر الأمر ، على تطور الإنسانية الكامل» . وهو يذكر أن « أهمية الجماهير السائدة كانت الافتراض الذى يسر تطبيق المبادئ التطورية على التاريخ ... إذ إنه بدون تحرك الجماهير إلى الأمام لا يمكن تصور الاطراد والتناسق والقانون على أنها قابلة للتطبيق » .

وسوف تتذكرون أن تلك هى النقطة نفسها التى سعيت إلى إبرازها فى الباب السابق . ومن دواعى السرور أن (برى) يدين بالفكرة نفسها .

ولقد كانت أبرز محاولة لتفسير الأفكار التطورية فى محيط العلوم الاجتماعية هى المحاولة الماركسية ، وكان لها — يقيناً — أكبر الأثر فى كثير من النواحى : فى السياسة والاقتصادوالتاريخ والاجتماع والنقد الأدبى وحتى — مع بعض الكتاب — فى العلوم الطبيعية ذاتها ، تلك التى أتعب تطبيقها عقل لينين أشد التعب . فكتب فى الموضوع كتاباً يحتاج إلى جهد فى قراءته « المذهب المادى والنقد الاختبارى أو التجريبى » وهو كتاب أقرب إلى مذهب اليقينية واللباقة الذهنية منه إلى الإسهام فى نشر المعرفة .

وإذا أردنا أن نقص الكلام على التاريخ من وجهة النظر الماركسية نقول إن ماركس وإنجلز لم يقدما قط عرضاً لرأيهما فى هذا الموضوع بل إنهما لم يفردا له مقالاً كاملا ومع ذلك فأعمالهما تظهر بجلاء رأيهما فى السياسة وفى المجتمع . وليس بين أيدينا سوى فقرات مختلفة فى كتب مختلفة لماركس تعهدها إنجلز فيما بعد بشىء من الصقل . وهذه تكفى لجلاء رأيهما . ومهما يكن فكتبهما بالذات تصوير وتطوير لذاك الرأى .

وأول نقطة نلمسها هى أن رأى ماركس ظهر إلى حيز الوجود على أنه رد فعل مباشر ضد « مثالية » هيجل . فلقد فكر هيجل فى الكون فى أسلوب تطورى ولكن على أنه تطور ذاتى وتحقيق ذاتية « الفكرة » الأولية أى الأولى فى طبقات العصر القديم . وكان أسلوبه أسلوباً فلسفياً مثالياً فى النظر إلى الأشياء . ولم ترد قبل ذلك فلسفة أكثر من هذه استعلائية ولا أكثره إطلاقاً فى صفاتها ولا أقرب إلى المذهب الجماعى فى الحكم ، ولقد تساءل ماركس فى وقت مبكر جداً وبالطريقة

الخشنة التي بها قد ينقلب تلميذ على أستاذه ، قال : « هل يظن هؤلاء السادة أن في وسعهم أن يفهموا أول كلمة في التاريخ ما داموا يستثنون صلات الإنسان بالطبيعة وبالعلوم الطبيعية وبالصناعة ؟ هل يعتقدون أن في وسعهم أن يفهموا أي عصر دون أن يفقهوا صناعة ذلك العصر وأساليب الإنتاج المباشرة في الحياة الواقعية ؟ .. وإنهم مثلما يفصلون الروح عن الجسد وأنفسهم عن الدنيا ، يفصلون التاريخ عن التاريخ الطبيعي والصناعة : وهكذا يجدون مسقط رأس التاريخ لا في إنتاج المواد الضخمة على سطح الأرض ولكن في السحب القائمة في السماء .

وكان هذا توكيداً عكسياً ناجماً . وهو يبين كيف أن رأي ماركس انتهى إلى أن يوصف بأنه « التصور المادي للتاريخ ، أو المادية التاريخية » . وقد خالف ماركس فعلاً مادية فويرباخ اللاإرادية (أو الميكانيكية) ، خالف قوله المأثور (الرجل هو الطعام الذي يأكله) وانتقد نظرة الدين المادية على أساس سليم وهو أنه أخفق في إدراك أن الإنسان هو وليد صلاته الاجتماعية وأن الدين نفسه نتاج اجتماعي . ويقترح ماركس — ولا يخلق تطويراً أكثر شمولاً لرأيه فيما يلي : « بتغيير وسائل الإنتاج يغير الإنسان كل صلاته الاجتماعية فالمصنع الذي يدار بالأيدي يخلق مجتمعاً مع السيد الإقطاعي والمصنع الذي يدار بالبخار مع الصناعي . والناس أنفسهم الذين ينشئون صلاة اجتماعية وفقاً لإنتاجهم المادي يخلقون أيضاً مبادئ وأفكار وفئات وفقاً لصلاتهم الاجتماعية .. وإذن فكل الأفكار والفئات التي من هذا النوع منتجات تاريخية وعابرة متحولة » .

وهذا يفتح باباً لبعض الأسئلة المتفحصة التي ينبغي لنا أن نعود إليها فيما بعد : هل الأفكار والمعايير التي تبرزها إلى الوجود مجموعة معينة من الظروف التاريخية في زمن معين تقتصر صلاحيتها على تلك الظروف وذلك الزمن ؟ وهل نحن مضطرون إلى التزام بالشكية التاريخية ؟ لقد اتجه تأثير الماركسية في الشئون العملية صوب نوع

من العدمية من ناحية وصوب ماتولده الشكية بالنسبة للمعايير المطلقة والتعصب الدينى من ناحية أخرى . والاثنان ليسا منفصلين كما تستطاع رؤيته فى الفاشية : وماركس نفسه لم يقل شيئاً قط فى صدد هذه النتيجة النهائية وإن تصرف على عكس ما قد يتصرفه رجل ينكر المعايير المطلقة . هذا بينما يظهر مثل هذه الدرجة من الجلاء أنه ، فى إدراكه لم يكن من المتشككين . ومع ذلك فصمته يدعو إلى القلق وإن أي تلميذ نابه من تلاميذ ماركس ليساق إلى الاعتقاد بأنه هو نفسه كان قلقاً وأنه لهذا إلتزم الصمت فى هذا الموضوع .

ولنكتف فى الوقت الحاضر بأن نورد مجملاً كاملاً مما قاله هو : « بتغيير العلاقات الاجتماعية التى بها ينتج الأفراد — أى بتغيير العلاقات الاجتماعية للإنتاج — وبتغيير وسائل الإنتاج المادية وتطويرها ، بهذا وذاك تتغير أيضاً القدرة على الإنتاج . والعلاقات الإنتاجية تكون ، مجتمعة ، تلك العلاقات الاجتماعية التى نسميها المجتمع؛ مجتمع على درجات معينة من التطور التاريخى ... وما المجتمع القديم والمجتمع الإقطاعى والمجتمع البورجوازى (الطبقة المتوسطة) إلا أمثلة لتلك النتيجة الجماعية لعقد العلاقات الإنتاجية ، وكل منها يرسم خطوة هامة فى التطور التاريخى للجنس البشرى » .

هذه هى الطريقة التى بها يفكر ويكتب الألمان . على أن هيجل أسوأ من هذا بكثير . وفى وسع المرء أن يرى ، على الأقل ، ذلك الذى يقوله ماركس ويخطو خطوة نحوه : « فوق الأشكال المختلفة للملكية وفوق أحوال البقاء الاجتماعى يعلو بناء علوى كامل من المشاعر المختلفة الغريبة التركيب والصور الخداعة ومناهج الفكر ووجهات النظر إلى الحياة. والطبقة فى مجموعها تتشكل وتتكيف من خارج أساسها المادى والعلاقات الاجتماعية المواثمة بالنسبة لها . الواحد والفرد الذى تلتقى عنده

وتتجمع عن طريق التقاليد والتربية معرض لأن يتخيل أنها تشكل الأسباب الفاصلة ونقطة تحول عمله » .

وفى صدد هذه النقطة الأخيرة يمكن أن نتفق فى الحـــال . فالناس العاديون لا ينظرون إلى أنفسهم أبداً على أنهم منتجات اجتماعية نجمت عما هم عليه وعما يعملون ويفكرون — فى هذا المجال — إنهم لا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم خاضعون إلى حد كبير للظروف التى تحتم أن يرتبطوا بها وللقوى والعوامل ، البيئية منها والموروثة ، التى صيرتهم إلى ما هم عليه الآن . وكلما غفلوا عن هذا تقيد اتجاه سلوكهم وما يجول بخواطرهم . وكلما زادت درايتهم بأنفسهم زادت مقدرتهم على التمتع بقدر معين من الحرية . وحرية المرء تتضمن تنبهه إلى مدى خضوعه للقيود واختياره سبيله تبعاً لذلك. ولـكن هناك حداً يقيد اختيارنا فى كل أمر . وهنا يقول ماركس : « يشكل الناس تاريخهم غير أنهم يشكلونه لا عن تراض مع أنفسهم ولا فى ظروف يختارونها هم بل تحت ظروف معينة نافذة المفعول . وتقاليد كل الأجيال البائدة تربض كالجبل على أذهان الأجيال المتمتعة بالحياة » .

وفـكرة ماركس يمكن أن تصبح صالحة إذا أصابت بعض التوسع . إنه يذهب إلى أن الأفراد ينظرون إلى أنفسهم وإلى أفكارهم على أنهم الفاعلون بدلاً عن أن يكونوا مسيرين أو حتى مجرد محركين عبر المسالك التى أتت منها تلك الفاعلية. ولقد زعم أحد متطهرى[1] القرن السابع عشر أن ثورة المتطهرين وقعت لأن الملك وأتباعه كانوا أشراراً أثمة، نفذ فيهم العدالة أولئك الذين اصطفاهم الله . ولـكن هذه الصورة ليست كاملة الدقة والوضوح . ذلك أن فـكرة « الذين اصطفاهم الله » تتضمن عنصراً من عناصر القدر وأن المتطهرين[2] حسبوا أنفسهم معابر لقوة أعظم تنفذ فاعليتها عن طريقهم.

---

(1) Puritans. (2) Puritans.

وكان هذا مجرد أنانية إنسانية من النوع المعتاد معناها أنهم أحلوا أنفسهم محل الله وأن إرادتهم هى قضاؤه المحتوم . ولاشك فى أنهم لم تكن لديهم فكرة ماعن القوى الاقتصادية والاجتماعية السائدة إذ ذاك ، تلك القوى التى جرفتهم ورفعتهم كما قد يفعل التيار الذى يدفع صوب النجاح والتى كانت العوامل التى جعلت انتصارهم محتوماً . ولم يكن ليدرك ذلك غير عقل حصيف لا تعوقه العقبات . وكان هذا فى الواقع شأن جيمز هارنجتون . غير أنه كان عندئذ جمهورياً نظرياً (أى غير عملى فى السياسة والاقتصاد) ولذا حدث أن فكره المستقل خلب وخفف عن الملك الذى اختاره فى الأشهر الأخيرة من حياته . ولم يرتح الطرفان ، كلاهما ، إلى هارنجتون . فلقد كانوا يتضاءلون أمام ذكائه ، وقد رأى هارنجتون من خلال جلسات رجال الطرفين أنهم جميعا وصوليون . وكان رجلاً لايدانيه أحد فى العمل الإنسانى ، وكثيراً مايصفه الناس فى هذه الأيام بأنه الرائد الذى بشر بماركس ، حتى لكأنما كان هذا كل همه ! وكان عقله ذا قوة مبتكرة لا مقلدة ينشد الخير من أجل الخير .

لقد نظر ماركس إلى الاختراعات الصناعية الآلية بالنسبة للإنتاج على أنها عامل من أهم عوامل التبدل الاجتماعى وعلى أن لها أهمية التكييف بالمواءمة فى العلوم الطبيعية . ويقول فى مذكرة عن «رأس المال» : « قد يبين التاريخ الانتقادى للعلوم الصناعية كيف أن أية اختراعات من اختراعات القرن الثامن عشر لم تكن من عمل فرد واحد إلا فى القليل النادر . ولم يصدر كتاب من هذا النوع حتى الآن . وقد أثار دارون اهتمامنا بتاريخ الفنية الصناعية للطبيعة (التكنولوجية الطبيعية) أى بتكوين أعضاء النباتات والحيوانات ، تلك الأعضاء التى تستخدم أدوات للإنتـــاج لتقويم صلبنا . أليس تاريخ أعضاء الإنسان المنتجة ، أى الأعضاء التى تعد الأساس الاجتماعى لكل التنظيمات الاجتماعية ، أليس هذا التاريخ يستأهل مثل ذاك القدر من الاهتمام ؟ أولا يكون تاريخ كهـــذا أسهل فى التصنيف بما أن التاريخ البشرى — كما يقول

فيكو — يخالف التاريخ الطبيعى فى أننا صنعنا الأول لا الثانى ؟ إن العلوم الصناعية تكشف عن طريقة تصرف الإنسان إزاء الطبيعة أى عملية الإنتاج التى بها يقيم صلبه ويكشف لهذا السبب عن أسلوب تكوين علاقاته الاجتماعيه وعن التصور العقلى الذى يتدفق منها . وكل تاريخ دينى — حتى التاريخ الذى يقصر عن مراعاة القاعدة المادية — لا يمكن أن يكون محكماً وإن اللجوء إلى التحليل فى الكشف عن اللب الدنيوي للبدع الدينية المبهمة لأسهل بكثير من العملية العكسية وهى أن نطور من الروابط الواقعية للحياة ما يقابلها من أوضاع تلك الروابط التى ينسبها الناس إلى السماء» . وأحب أن أدرج هنا أن تلك الأوضاع الأخيرة إنما هى من صنع الخيال واللاشعور وليست من المركبات العقلية بحال . انظر إلى إيمان العصور الوسطى وقارنه بالدرجات الكهنوتية الملائكية التى عكست لهم درجات الحياة الإقطاعية على الأرض . إن هذا لم يخط بالتفكير الواعى اليقظ ، وكان هذا مصدر قوته ، فقد نمت جذوره فى حياة الخيال والإيمان ولا يأمل أن يصل إليه عن طريق التفكير إلا مفكر حر من طراز ماركس :

« هذا الأخير هو المنهاج المادى الوحيد فهو — بناء على ذلك — المنهاج العلمى الوحيد» وهو يعنى أن تنتقل من الدنيا الموضوعية الخارجية إلى دنيا العقل الداخلية العميقة .

« ونقط الضعف فى المادية المجردة فى العلوم الطبيعية — تلك المادية التى تستبعد التاريخ ومنواله — تظهر تلقائياً من الأفكار المجردة وأفكار البحث التصورية لأصحاب هذا الرأى وذلك كلما جازفوا بالخوض فى غير تخصصهم » . وهذا توفيق أريب لم يفقد أهميته فى زمن اهتم فيه الناس كثيراً بتوافه جينز وإدنجتون وبالكتاب ذوى العقول الغامضة الذين بسطوا العلوم .

والأمر الذى نستطيع إدراكه فى هذا المجال هو أن ماركس لم ينظر للإنسان على أنه عامل مستكين سلبى . ولقد أصر على أن المرء يصنع تاريخ نفسه ولكن

تحت ظروف معينة تقيد تصرفه . فهل نستطيع أن نقول : إن ظروفه تقيد تصرفه إلى درجة أنها تجعل هذا التاريخ قدراً محتوما ؟ إلى حد ما ، نعم . أو ربما يجوز لنا أن نقول : بعد حد ما . ولنضرب مثلاً . لنا أن نقول مثلا إنه إذا لم تكن حوادث معينة قد وقعت فى تاريخنا ــ لو أن رتشارد الثانى لم يقهر ويخلع ، ولو أن أدوارد الرابع عاش ، أو إدوارد السادس أو هنرى ولى عهد بريطانيا ، ولو أن الملكة (آن) كان لها ولد يرثها ــ لو لم يحدث ذلك لكان وجه تاريخنا كله قد تغير . ومع ذلك فقد كان محتملاً إذ ذاك أن حكاية إنجلترا من هذه الناحية تشابه ما وقع بالفعل إلى حد كبير ، أى بدون تغيير كبير . فذلك يتوقف على التأثر بقوى أكثر عمقاً مثل موقعها الجغرافى وطبيعتها ومثل القدرات الاقتصادية للجزيرة وطبيعة أهلها وبنائهم الاجتماعى وهكذا . تلك هى النتيجة أوردتها على أبسط وجه . والمهم هو : هل نحن نقصد بـ « التاريخ » التاريخ السطحى الذى يجوز عليه التبدل بشكل لا نهاية له أو أننا نقصد الحكاية التى تكمن خلف ذلك والتى تقيدها ظروف قاهرة [1]

ولست أدرى هل هذا التمييز أمكنت الاستفادة منه قبلاً . وعلى أية حال فإن عدم الاستفادة منه قد خلف مجادلات لا نهاية لها ، وسبب ذلك فى الأغلب هو هذه البلبلة . وإن كل امرئ ليجد نفسه مدفوعاً إلى التسليم بأن هناك احتمالاً غير محدود بتغيير فى ظاهر الحوادث التاريخية ، أو قل إن هذا الاحتمال يكاد يكون غير محدود . غير أن كل امرئ يجد نفسه مدفوعاً كذلك إلى التسليم بأن جوهر حكاية بلد من البلاد ــ أى ما يمكن لهذا البلد عمله وما لا يمكنه ، على سبيل المثال ــ تتحكم فيه

---

(١) يستطيع القارئ الأمريكى ، على سبيل التمرين ، أن يهيئ لنفسه سلسلة مماثلة من التغييرات والمصادفات أو الوقائع العرضية ، سلسلة من (لو) و (ولكن) بالنسبة للحرب الأهلية . ومع ذلك لا يسع المرء إلا أن يزعم صورة القوى التاريخية التى تكمن خلف ذلك فى الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر كان يمكن أن تكون لها النتائج التى حدثت فعلا .

الظروف إلى حد بعيد . ففي العصر الصناعي الحديث ، مثلا ، تعذر على إيطاليا — مع كل ما بذلت من جهد — أن تصبح دولة كبرى . والسبب أنه ليس لديها ما يكفي من موارد الثروة الطبيعية . وعلى هذا كانت الجهود عديمة الجدوى . فلقد سارت إيطاليا على عكس اتجاه التاريخ فتحتم عليها لذلك السبب أن ترجع القهقرى .

« وللنظرة التاريخية أهمية حاسمة في السياسة . وإنا لنرى دواماً في التاريخ الإنساني ، قوة ما ، تنتزع لنفسها مكاناً أكبر مما تهيئه لها مواردها الطبيعية ثم لا تلبث أن تعود إلى مكانها الطبيعي المحدود أي إلى ما يناسب مواردها الطبيعية . ويحدث هذا عادة نتيجة لكارثة أو هزيمة . وقد رأينا ذلك يحدث في العالم الحديث في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، في إسبانيا التي توسعت أكثر من طاقتها لتسيطر على أوروبا ولهذا منيت بضعف لازمها حتى الآن . وقد توسعت فرنسا في عهد لويس الرابع عشر أكثر من طاقتها فمنيت بهزائم وبكثير من المعاناة . ثم عادت مرة ثانية ، تحت وطأة الثورة وقيادة نابليون ، وانتهزت فرصة الفرق بين الدول الأوروبية وبسطت نفوذها على أوروبا . ولم يكن هذا ليدوم وفقاً لطبائع الأشياء . ففيم سيحاول أناس مثل هذه المحاولات ثم ينتهون بجلب الكوارث على أنفسهم ؟ ومع هذا فقد أجرت ألمانيا في عصرنا محاولتين وجلبت على نفسها في تلك العملية كارثة ، وأية كارثة . وبطبيعة الأحوال لم يقدر لهذا النجاح إلا أن يكون وقتياً . لم يقدر لهذا النجاح البقاء إلا في الفترة التي استمر فيها تفكك أوروبا وانقسامها في مقاومة فرنسا . ولم تكن فرنسا في واقع أمرها ، من القوة بحيث تحكم العالم الغربي بأكثر مما كانت قوة اليابان لا تسعفها في حكم الشرق كله . فلماذا يحاول الناس المستحيل ؟

الجواب أنهم لايعرفون الظروف التي تعين ما يسعهم عمله ، إذ ليس لديهم

الإدراك التاريخى فالأشياء والأفعال هى ما هى عليه ، ونتائجها ستكون ما ستكون عليه . ففيم إذن نسعى إلى أن نخدع » ؟ هذه هى أحكم حكمة نطق بها فيلسوف ظهر بين رجال الكهنوت إسمه الأسقف بتلر .

وهذا يفتح الباب لمعضلات أخرى : لو أن الناس فقهوا كيف تحدد أفعالهم وتخضع لظروف معينة ، فهل يفعلون شيئاً على الإطلاق ؟ إن المعرفة الزائدة عن اللزوم تثبيط للعمل. وكثير مما يعمله الإنسان يخالف المنطق ويدعو إلى التلف ويخلو من الغاية والهدف . وإذا لم يكتنف الناس قدر كبير من شماع اللاعقلية والتظاهر بالشجاعة ومحاولة المستحيل والإخلاد إلى المجازفة فقد تعسر عليهم ممارسة الحياة كلية وتلك هى طبيعة الطبيعة البشرية . والشىء الذى ننكره — فى عصر لم يعد يقف جهوده العقلية الجادة على تحليل طبيعة الله — هذا الشىء هو طبيعة الإنسان . وإذا وهن الناس عن متابعة الجهود رجعوا (ما وسعهم الرجوع) عن المشاركة فى الأحداث بصورة فعالة فالصورة متغيرة لا محالة . وليس فى وسع المرء فى هذا المجال أن يذهب إلى أبعد مما هو عليه . وكل ما نستطيع قوله من الناحية العملية هو أن الناس يسعهم أن يحسنوا التصرف إذا توافر لهم من الإدراك التاريخى قدر أكبر مما لديهم . وإن زيادة قليلة من الإدراك التاريخى لتمنعهم من أن يتصرفوا تصرفات سخيفة أو من أن يستنزلوا على أنفسهم — نجباء كانوا أو غير نجباء — النكبات والبلايا والآلام التى تسببوا فيها .

والنقطة التى كنت أحاول شرحها هى أن الأمر يتوقف على مذهبك : هل تقصد بـ « التاريخ » مجرى الأحداث السطحى وتكون فى هذه الحالة من المجندين لمذهب التفكير الاختيارى ، أو هل تقصد بـ « التاريخ » تيارات المد والجزر العميقة وتكون فى هذه الحالة من مجندى مذهب الجبرية أو الحتمية ؟ على أن هاتين المدرستين

الفكريتين ليستا متضادتين ولا متناقضتين . وقد انتهينا إلى أن كثيراً من الجدل التاريخى بين الطرفين غير محدود الهدف . وكل هذا لأن كل فريق لم يحدد الفرق بين ما يجول بذهنه هو وما يجول بذهن الفريق الآخر .

ولم يكن لدى ماركس ما يقوله فى هذا لأنه لم يستطع أن يميز بين الرأيين فخلف رأيه عن التاريخ غير مكتمل(١) ومؤلفاً من معلومات صغيرة متناثرة . وقد منعه إدراكه التاريخى عن أن يسلم نفسه لأى تطوير لنظريته التى كانت تناقض ما تنتهى إليه الأشياء من الناحية العملية (« وعلى أية حال فأنا لست ماركاسياً » . هذا ما صرح به فى أخريات حياته) . وهكذا أشار إلى حقيقة رأيه بصفة إجمالية فى الفقرة التى استشهدت بها وترك الموضوع عند هذا الحد وقضى بقية حياته يطبقها وينفذها فى الاقتصاد وفى السياسة ، نظرياً وعلمياً . غير أن رأيه فى التاريخ ، مع ذلك ، كان يتغلغل فى كل كتاباته وتصرفاته . وبعد وفاته حاول إنجلز ، عن طريق إحصاء تفسيرات متطرفة ، أن يوضح ما عناه هو وماركس . وقال إنهما لم يعنيا أن يجعلا الاعتبارات الاقتصادية السيادة على سائر العوامل وأن الشكل الحقيقى للتنظيم الاجتماعى غالباً ما تصوغه النظريات السياسية أو القانونية أو الفلسفية أو الدينية . « الواقع أن الوضع الاقتصادى ليس هو السبب بمعنى أن يكون هو العامل المؤثر الوحيد وأن كل ما عداه ما هو إلا نتيجة سلبية . والصحيح هو العكس ، إنها حالة تفاعل متبادل على أساس الضرورة الاقتصادية التى — كما فى المثال السابق — تحل نفسها بنفسها » .

---

(١) ما يقول المؤلف حول تناقض نظرية ماركس مع التطور التاريخى لا يحمل سوى وجه نظره هو — ومن المؤكد أن هذا تعبير غير دقيق — فعلى الرغم من أنه كانت هناك انحناءات التطور العام للمجتمعات البشرية تختلف مع النظرية الماركسيه إلا أن الماركسية كانت على صواب فى تفهمها للخط العام للتطور التاريخى (المراجع)

ويمكن طرح الموضوع على النحو الآتى : على أساس البيئة الطبيعية ، من جغرافية واقتصادية ، يتصرف الإنسان وهو يصنع بيئته الاجتماعية وإن حددت طبيعتها ، آخر الأمر ، البيئة الطبيعية التى يتعذر على المرء ــ غالباً ــ أن يجتازها وإن استطاع أن يقلب مظاهرا إلى حد ما . وعلى هــذا الأساس يتمخض الفعل والتفاعل اللذان يتبادلان فى مجتمع يطرد تعقيده مع تطور المجتمع ، يتمخض عن طرز أخرى من حياة الناس الاجتماعية ، طرز دينية وثقافية وإدراكية وجمالية . ولكن سوف يتبقى دائماً عنصر مستمر من البيئة الطبيعية الأصيلة لايتسامى إليها . وليس فى وسع المرء أن يقفز بعيداً عن الكوكب أو حتى عن الجزيرة ، وبهذا يظل عاملا مقيداً طوال العمليات اللاحقة فى تاريخ الإنسان . ولا شىء غير هذا .

ولنا أن نميز ناحيتين أساسيتين فى تطور اتجاه الماركسية نحو التاريخ ، تميزاً يتناسب مع تأثيرها على الشيوعية فى السياسة العالمية المعاصرة . وينصب التوكيد كله فى الناحية الأولى على أهمية الظروف . ولنا أن نسميها الناحية الحتمية أو الجبرية . وفى الناحية الثانية انصب التوكيد كله على الإنسان بوصفه العامل المحرك فى العملية التاريخية . وهذه هى الناحية المنطقية المتصلة بعلوم الكلام أو اللهجات . وكل هذا طبيعى جداً وليس فى الطاقة شرحه بحال . ولقد كان الماركسيون فى المرحلة الباكرة واقعين تحت ضغط الظروف الاجتماعية . وأهداف الفاعلية ولم يستطيعوا أن يصوغوا ظروفهم وأن يصبحوا عناصر مؤثرة فى التبدل التاريخى إلا بعد الثورة الروسية. وقد وجدوا الناحية الثانية أكثر تمشياً مع مبتغاهم ، وذلك وفقاً لما كتبه لينين فى كتابه « الدولة والثورة » الذى لم يتسع وقته لإتمامه : « إن مكابدة الأعباء الثورية لأبعث للرضى والفائدة من الكتابة عنها » . (وفى وسعنا على الأقل أن نتفق فيما يخص أولئك الذين وثبوا إلى القمــة . أما فيما يخص الآخرين حتى الذين ساعدوا فى صنع الثورة مثل بوخارين وإدك وزينوا فييف وكامينيف وريكوف

وسميرنوف ــ فإن قائمة الرجال الذين تمت تصفيتهم تستطيل إلى ما لا نهاية) . وعلى كل حال فقد انعكس التبدل على تغير واضح فى توكيد النظرية .

فما الصلة بين الإنسان ، المحرك ، وبين البيئة ؟ لقد أشرت فى الصفحة السابقة إلى رأى ماركس وإنجلز فى هذا الموضوع . لقد تصورا عملية الفعل والتفاعل بين ناحية وناحية وفقاً لمنطق هيجل . وقد يوصف هذا بأنه لا يعدو أن يكون أسلوب تصور هيجل للتطور فى عالم المذاهب . إذا اتخذت أية قضية «لتكون موضوع بحثك » فإن عكسها هو الطباق (أى نقيضها) والخلاف بين الاثنين والناتج يوفق من كليهما قضية جديدة هى الأسلوب أو البحث التركيبي . انظر إلى الأرنب وهو يخرج من القبعة ؟ هذا هو وترهيجل الثلاثى الأنغام المشهور . وأخشى ألا يكون شىء ــ أو أشياء قليلة ــ أدعى إلى الضجر أكثر من هذا . على أن أشد ما نكبت به الماركسية هو ارتباطها بمنطق هيجل . وربما يكون هذا المنطق قد أفاد بعض الفائدة فى عصره لأنه قدم نهجاً يمكن بمقتضاه إدراك عملية التطور إدراكاً ميسراً . ولقد كان هذا النهج أكثر تعقيداً من تطور مطرد اطراداً منسقاً فقد حسب حساب التيارات المتماكسة والمناقضات التى تعترض العملية فى سيرها إلى الأمام . وهو لم يخطىء فى صدد « عدم حتمية التدرج».(وبما أن الغابيين [1] إنجليز ، فقد أفلتوا من تأثير هيجل وماركس لقد كانوا دراوينيين) . وكان ما صنعه ماركس هو اقتباس فكرة العملية المنطقية من هيجل ــ التى استخدمها لشرح تطور المبادىء ــ وتطبيقها على دنيا الأحداث الواقعية ، وبالاختصار على التاريخ .

لقد كان كل هذا حسناً جداً بالنسبة لوقته ولكن هذا الوقت أتى قبل مائة سنة على وجه التحديد . ولقد جاء الوقت الذى ينبغى فيه للماركسيين ــ كما يحدث مع سائر

---

(١) نسبة إلى فابيوس المصلح الرومانى الحذر الحريص .

الناس ــ أن يتوفروا على قليل من التفكير الجديد . نعم إن غالبيه الناس لم يصلوا بعد إلى معرفةفيما كل هذا الضجيج حول الماركسية . إن الماركسية ، يقيناً ، لها وزنها الثقيل بين ثمرات العقل فى زماننا ولكن بودنا أن نحسنها وأن نذهب إلى ما هو أحسن منها .

وهذا هو الخطأ فى المنطق التاريخى الماركسى. ذلك لأنه فى المحل الأول قانون عقلى طبق من الخارج على تباين التاريخ الكبير وتنوعه لا يكاد يقف عند حد . إنه لا ينبع من الظاهرات الطبيعية بل من الحقائق نفسها . إنه قطعة من العمل التطبيق وهذا فى ذاته عيب خطير. ولكى تكون أية نظرية تاريخية مرضية على الإطلاق ينبغى لها أن تنبع من طبيعة المادة . وهذا الحكم نفسه يصدق على العلوم . وهناك فى حالة تعطل الدعاوى السامية لما وراء الطبيعة ــ هناك اتفاق يستحق الاعتبار على أن خير طريقة لترقية المعرفة هى الأنظمة المنعزلة على أساس المعلومات الخاصة بكل ، وذلك لكى يمكن الوصول إلى الأحكام العامة المعنوية . وهذا خير من أن تعمد الأحكام العامة والمعنوية إلى أن تفرض مفترضاتها وتتوقع توقعاتها قبل حلولها على المعلومات الخاصة بالعلوم الثابتة بدرجة أعمق ، طبيعية أ كانت هذه العلوم أو اجتماعية إلا لزام فى الطريقة الجدلية فى التاريخ أثر واضح من مخلفات القضايا السامية القديمة لما وراء الطبيعة المثالية ، وهذا مناقض لما تتضمنه الماركسية بوصفها مبدأ تاريخياً أساسياً .

إنه قانون منهاجى إلى حد بعيد ومتزمت إلى درجة كبيرة بالنسبة لما فى التاريخ من خفاء ومراوغة . وذلك الخفاء وتلك المراوغة تجعل الشعوب والمبادىء تقهر وتبيد ولا يكون لها اعتبار فى العملية وينجم عنها أحياناً الآلام وتحطيم الأعصاب والزوال لسبب لا سبيل إلى استيضاحه . إنه ليس مرناً سهل القياد بالنسبة لتنوع

القوانين التاريخية التى لاحد لها مع ما يكتنفها من تقلبات الزمن وصروف الدهر ومن الجذر والمد وتلافيف فعل الإنسان اللولبية التى لا حصر لها فى نطاق العمليات الحاسمة والتوفر على شكية حكيمة خدرة خير من تثبيت هيكل حديدى على مثل تلك المادة الصلبة . وعدم اتباع نظرية على الإطلاق مع الإخلاد إلى حسن الإدراك على الطريقة الإنجليزية خير من تضحية الحق على مذبح نظرية زائفة . وليس من سبب فى الواقع يدعو إلى انسياق المرء إلى الشكية . ولقد بذلت جهدى لبناء نظرية تتصل بالحقائق. وكل نظرية فى التاريخ يجب أن تنبثق عن الظاهرات الطبيعية .

وأسوأ من هذا بكثير هو النتيجة العملية للمنطق الماركسى فهى لا تقدم لك مقياساً موضوعياً بالنسبة للفهم أو لإدراك معنى التصرف . وهى تصبح من الناحية العملية مذهباً برجماسياً [١] خطراً ويزيد من خطورته أنه غير فعال فضلاً عن أنه مضلل . والبرهان على أن هذا كان كذلك هو سجل السياسة العالمية الشيوعية بين الحربين ، ذلك السجل الذى لا معنى له ولا ضمير [٢] . وقد جعل الشيوعيون مرامهم وهدفهم الأخيرين أن يحطموا الديموقراطية الاجتماعية [٣] على افتراض أن الشيوعية هى التى تنبعث منتصرة . وإذا كانت الرأسمالية هى الموضوع وكانت الديموقراطية الاجتماعية هى النقيض فالشيوعية إذن يجب أن تكون وصلة الصراع بين الموضوع والنقيض هكذا جرى الجدل . فهل يوجد شىء ساذج أكثر من هذا ؟ وإن المرء ليستطيع

---

(١) هذا مذهب فلسفى عملى يقول بأن أهميه المبادىء هى فى نتائجها العملية .

(٢) هذا الحكم من جانب المؤلف مبنى أساساً على وضع مصالح الغرب وقضيته فى الفترة مابين الحربين العالميتين الأساس فى الحكم وهو ينسى بالثانى أن العالم الغربى فيما بين الحربين العالميتين كان عاملا استعماريا وإن كان أقل شراسة من النازية أو الفاشستيه . (المراجع)

(٣) لعله يكون من الأدق قول المؤلف الديمقراطية السياسية بدلا من الديمقراطية الاجتماعية ، لأن الديمقراطية الاجتماعية هى المفهوم الوحيد على الديمقراطية الصحيحة للشيوعين . (المراجع)

دواما أن يفسر الصراع بين المذاهب الثلاثة تبعاً لما يريد أن يجئ ، تماماً كما قد تفسر النبوءة . ويمكن للمرء ، بالطريقة نفسها أن يعد الديمقراطية الاجتماعية كالموضوع والشيوعية كالنقيض والفاشية هى المبحث التركيبى [١] وكان هذا فى الواقع أقرب إلى النتيجة التى تمخضت عنها الأحوال . وفى عهد جمهورية ڤايمار جعل الشيوعيون مرامهم وهدفهم الأخيرين أن يحطموها فوجهوا هجومهم الرئيسى ضد الديمقراطيين الاجتماعيين الذين ناصروها. وكانت النتيجة نصراً، لا للشيوعيين، بل للنازيين. ولست أقول بأن أناساً آخرين لا يستحقون اللوم كذلك ولكن كانت نتيجة تلك الجهود الجنونية أن ملايين من الناس الطيبين البسطاء ماتوا فى الحادث . ولكم فكر المرء فى هذه الأيام فى صرخة القديس يوحنا التى أوردها برناردشو: «فهل يتحتم إذن أن يهلك، فى كل عصر مسيح معذباً ليخلص أولئك الذين لا تخيل عندهم؟» وأنا لا أذهب إلى حد أن أنتظر من كل أفراد البشر أن يكون عندهم كثير من التخيل وإنما أسأل فقط قليلاً من حسن الإدراك ومن الفهم التاريخى لدى أولئك الذين نصبوا أنفسهم زعماء عليهم [٢].

والنتيجة الصريحة الواضحة هى أن علوم الكلام خلفت مشايعها بغير مقاييس الصواب والخطأ فى العمل وبغير أن تحدد لهم ما يتمشى مع المنطق وما لا يتمشى.

---

(١) ينسى المؤلف أن الفاشية تصدر أساسا عن الرأسمالية الاحتكارية حين تفشل الديمقراطية الاجتماعية فى مواجهة الثورة الاشتراكية . (المراجع)

(٢) كأن المؤلف — بنظرة مثالية يحس بأنه من الممكن أن يحسم الصراع بين الرأسمالية الاحتكارية المؤيدة للفاشية وبين الحركة الاشتراكية حسماً سهلاً عن طريقة الإقناع من أحد الطرفين للآخر ولكن ليست هذه هى نظرة الماركسية وقد أثبتت أحداث الاشتراكية أنها صحيحة. (المراجع) .

اللهم إلا فى مايطابق مصلحة روسيا. فالحرب التى جوزف بها فى الواقع دفاعاً عن المدينة ظلت حرباً استعمارية بالضبط حتى الصباح الذى هاجم فيه هتلر روسيا . وعندئذ ، وابتداء من تلك اللحظة فقط ، أصبحت حرباً شرعية عادلة دفاعاً عن الديمقراطية .
إلى مثل هذا الإفلاس دفعت الشيوعيين سنوات الخلط المتعمد بين الوسائل والأهداف وكان ذلك امتهاناً فظيعاً لكل معايير الرأى التاريخى . وكان هذا على أقل تقدير معادلاً لرأى أولئك البريطانيين الذين زعموا أن من الممكن التفاهم مع النازيين . لقد كان هذا أيضاً — على الدوام — هراءاً ينم على عدم فهم التاريخ أو أى معنى سياسى ، وكان الشيوعيون يأثمون فى حق الضياء المزعوم . وإن وجهة نظر أبسط من وجهة نظرى أو وجهة نظرهم لتدين سلوكهم بالخطأ من الناحية الأخلاقية بل بالإجرام حقاً . غير أننا الآن نتحدث هنا عن حكم التاريخ لا عن علم الأخلاق . وأنا أقنع بالقول بأن السجل كله فى تلك الفترة لم يسفر عن أى معنى من الناحية التاريخية . ففى التاريخ : برهان البودنج[1] هو الأكل . غير أن المرء يجب ألا يحتاج عشر سنوات أو عشرين سنة ليخبر بما سيحدث . ولقد كان ممكناً لأى امرىء يتوفر على معلومات تاريخية طيبة وإدراك سليم يفقه سير الشئون الإنسانية أن يتنبأ مقدماً بالشؤم الفادح الذى يولده هذا المسلك .

ولست ألقى اللوم فى كل هذا على الماركسية بوصفها كتلة فكرية — وإن ألقيته بدرجة أقل على المادية التاريخية كما خططها ماركس وإنجلز — وإنما ألقيه على « المادية الجدلية » الضيقة : الحادة التى تطورت من عهد لينين فصاعداً . ولقد كان ما يتوقعه ماركس وإنجلز — من الناحية التاريخية — سيئاً أوسع وأكثر كثلكة من أورثوذكية (يقصد صراحة الرأى) تابعهم الشيوعيين . ونحن هنا معنيون فقط بتأثيرها على التصور التاريخى والكتابة التاريخية . وإذانظرنا إليها — فى أوسع

---

(١) حلو مصنوع من دقيق أو حبوب أخرى وبيض وفاكهة وسكر . والبودنج أيضاً (المعبار)

معانيها وأحسن تفسيراً نتالها — قلنا إنها كان لها تأثير مثير مثمر . . . هائل فى القارة وقد بدأ — على أقل تقدير — أن يظهر نذره فى انجترا . وفى وسع المرء أن يذهب بعيداً إلى حد القول بأن المرء فى زماننا إذا أراد أن يصبح مؤرخاً ناجحاً تحتم أن يكون فيما مضيه ماركسياً إلى حد ما . إن المرء لينبغى له أن يعرف شئون هذا الموضوع وأن يفهم مزاياه وأن يشعير بتأثيره حتى ولو كان من أنصار المعسكر الآخر . ولقد خرج كروتشى من المعسكر الآخر ولكنه تعرض لشىء من تأثير ماركس وتعرض إلى قدر أكثر من تأثير هيجل . وبغض النظر عن الماركيين الأورثوذكسى يستطيع المرء أن يلمس فاعلية التأثير على مؤرخين مشهورين من أمثال روستوفتزف وفينوجرادوف ، وفى بريطانيا على ر . ه . تاونى والسير جورج كلارك — و — ا . ه . م . جونس الذائع الصيت فى التاريخ القديم .

والماركسية — شأنها شأن سائر أنواع الفكر المتطور — تضعنا فى مجابهة النسبية التاريخية أو المذهب النسبى التاريخى . وهذه هى المشكلة الكامنة فى قلب البحث التاريخى والتى سعى إليها أغلب مفكرى عصرنا الذائعى الصيت فى هذا المضمار من أمثال ديلثى وترוولش وكروتشى . ولست أستطيع أن أسلم بصحة هذا الموضوع تماماً .

ولقد اتخذنا مثلاً للطريقة التى بها تنفتح المشكلة عندما ذكرنا تبدل توكيد الفكرة الماركسية من مذهب الجبرية أو الحتمية إلى مذهب الفاعلية مع لينين والثورة الروسية . وهذا مثل طيب للطريقة التى بها تكيف النظرية نفسها وفقاً للحاجات الجديدة والظروف المتغيرة . ولكن ما هو الصواب ؟ هل هناك أى سبيل إلى رأى يصدق فى كل الظروف ؟ ألسنا مسوقين إلى قبول رأى ، عن الصواب ، مادى عملى محض ؟ إنك تغير رأيك عما هو الصواب تبعاً لمتطلباتك .

تلك هى المشكلة — الإدراكية التى كدت أصرح بأنها علة زماننا . وفى وسع المرء أن يشهد تدميراتها على كل الأيدى فى خلط الشيوعيين بين الوسائل والغايات فى العمل السياسى ، كما يمكننا أن نشهد ما يترتب على ذلك من عدم وعى كثير من تصرفاتهم حتى من ناحية إنجاز أهدافهم[1] من عدمية النازى المجرمة المتعمدة ومن ميكافيلية الفاشيين (أى مخاتلتهم ودهائهم) .

وفى استطاعة المرء أن يراها — بما لا يقل وضوحاً — فى الشكية والفتور فى العمل من جانب الناس الطيبين الذين يجدون المشكلة أكبر من طاقتهم فيكفون عن أية محاولة للخروج من فتور التجربة المعاصرة بمجموعة من الأفكار المنظمة ويفكر آخرون فى صدد ما قد تتلفه النسبية المعاصرة — كضعف الاعتقاد فى المعايير المطلقة والإدراك النفسانى والارتياب فى كل الدوافع وهكذا — وذلك عن طريق العودة إلى تثبيت غير ناضج للمذهب نفسه الذى كان مفتقداً ، دينياً كان أو غيبياً (أى باحثاً فيما وراء الطبيعة) . ولا فائدة لنا من هذه الطريقة فعلينا أن نتقبل المعرفة التى تزيد عمقاً والتى جاء إلينا بها عصرنا ، نتقبلها مع الشكوك الجديدة التى تزيد عمقاً وأن نتغلب عليها ، وأن ننجز بحثاً تركيبياً (توليفياً) ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

ولنتدبر كيف كان وقع المسألة على قليل من ذوى الأذهان النيرة . كان بوركارت ، المؤرخ الثقافى ، من أوائل من تعقلوها . « التاريخ فى الواقع هو أبعد العلوم عن الصفة العلمية وإن قص علينا الكثير مما يستحق أن نعرفه . والآراء الصريحة الواضحة تتصل بالمنطق لا بالتاريخ حيث كل شىء فى حالة ذوبان وتحول دائم ونماذج . والأفكار الفلسفية والتاريخية تختلف فى الجوهر والأصل .

(١) يلاحظ المرء فى روسيا منذ وفاة ستالين المحاولات التشنجية للابلال .

فالأول يجب أن يكون ثابتاً جامعاً مانعاً قدر الإمكان والثانى مرناً مريحاً ... ولم يخلق قط شيء غير مقيد ولا شيء قاطع بات بمفرده . وفى الوقت نفسه يسود عنصر فى ناحية من نواحى الحياة ويسود عنصر آخر فى ناحية أخرى . والموضوع كله مسألة أهمية نسبية ومسألة ما يسود فى وقت معين » . وبور كارت لم يذهب إلى أبعد من هذا لأن عقله كان يجنح نحو الشكية وإن أفعمته الانعكاسات والتأملات الناضجة . ومن الاستدلالات القياسية التى توصل إليها : الحكم على أهل عصر معين بمقياس ما يتصفون به من فضائل ورذائل ، إذ يجب أن ننظر إليهم « فى إطـار نسق زمانهم » . من الإدراك التاريخى استطاعة الحكم على عصر على ضوء احتياجاته ومشا كله ومنجزاته مع الموازنة بين نواحى إخفاقه ونجاحه . ولـكن بوركارت لم يذهب قط إلى أبعد من هذا ولم يشر إلى غير هذه النتيجة العملية .

أما مورلى فقد ذهب إلى أبعد من هذا فى أخريات حياته وذلك فى محاضرة شائقة « مذكرات فى السياسة والتاريخ » . فهو يقول ، بعد وصف ما يسميه « بالمنهاج التاريخى » : (من السهل أن ترى أن استعلاء المنهاج التاريخى له عيوبه . فدراسة كل المراحل المتعاقبة فى المعتقدات والأنظمة وأشكال الفن تصير إلى بديل للانتقاد المباشر لـكل تلك الأشياء فى مزاياها وفى نفسها . واستقصاء تفاصيل الحادثة وأهميتها ومعناها يصبح ثانوياً بالنسبة لـكيفية حدوثها . والاهتمام الزائد (أى الحركية) يضعف وظائف التوازن الفعالة . وعلى هـــذا فقد رأى أ كثر من مدرسة فـكرية فى سيادة العقلية التاريخية تجاوزاً عن الحد . وأولئك الرجال محقون فى أن يقولوا إن هذا الاهتمام ، فى جوهره ، معناه الاعتراض على البحث المطلق الذى هو البديل الملح للبحث النسبى ، إن منهجك غير أخلاقى كأية أداة علمية . ولا يوجد فى تاريخك المقارن وعى أ كثر مما يوجد فى

التشريع المقارن ... والكلام عن « الحقائق السياسية الأبدية » أو « المبادىء الأولية للحكم » لا معنى له . والتاريخ الملخص ليس تاريخ « وجود مترام » أى ليس تتابعاً لا حد له من الفعل ورد الفعل والتولد والإبادة والتجدد « حكاية من الضوضاء والصخب لا تعنى شيئاً » . وإن جدلاً كهذا ، فيما أعرف يمكن أن يثار بشدة ، وهو فى الواقع اعتراض على البحث المطلق الذى لا يمكن الابتعاد عنه فى قضايا كثيرة ذات فاعلية شديدة . ولكن كون الاختبارات والمعايير النسبية هو مفاتيح المعرفة التاريخية ومقاييس صانعيها العادلة ، مبدأ يحوز أن يعيش طويلا).

وعلى الجملة فإن مورلى عرف موضوع الجدل وجبن أمامه .

وقد أدرك دلثى كل متضمناته وصاغ إجابته . وقد أجمل الأستاذ هوجس موقف دلثى قال : « وهذا التوسع فى الوعى عن طريق المعرفة التاريخية له نتائج محيرة . فكل عصر يعبّر عن اتجاهه فى الحياة وفى الدنيا بمبادىء فكرية وأخلاقية معينة تعدّ فى ذلك العصر مطلقة صحيحة وطيدة لا يحدها قيد ولا شرط . وهذه المبادىء يكشفها المؤرخ فى كل عصر من العصور التى يتوفر على بحثها ولكنه يفطن أيضاً إلى أن تلك المبادىء تختلف باختلاف العصور وأن الظروف المتغيرة — مع المطالبة بعدم التقيد التى يلجأ إليه دائماً — يتمخض دائماً عن مبادىء متغيرة تصبح بناء على ذلك ، نسبية من الناحية التاريخية . وبعد أن سجل التاريخ نسبية كل الأفكار والتجارب أخذ يشير إلى نسبيته هو ويتركنا فى الوضع المعروف باسم التاريخية أو النسبية التاريخية . ودلثى يتنبه إلى هذا ، وتوجد شواهد على أنه كان يشعر أحياناً بوخزات عصبية بالنسبة للأمل غير المحدد الذى تفتحه ، وهذا بعث فى الكثيرين فى الوقت الحاضر الزهد والجمود وحدا غيرهم على أن يتلمسوا النجاة فى الظلام أو فى السيطرة . وعلى أية حال فإن البعض ينظر إلى النسبة التاريخية مواجهة ومع ذلك يجتنبون المعارضة ،

ولقد كان دلثى — مع ما ساوره من شكوك عرضية — واحداً من أولئك . وهو لا يسلم بالنسبة التاريخية وحسب بل كذلك ينادى بها ويعدها منهلاً من مناهل الحرية والإلهام .

« كيف يتأتى له أن يصنع هذا ؟ لأنه ينظر إلى التاريخية أولاً على أنها تحرير من الخرافة والوهم وثانياً على أنها إظهار للطلقات البشرية العديدة . ولئن كان أسلافنا قد تفاعلوا وحالتهم على وجه معين وكنا نتفاعل وحالتنا على وجه آخر فإن النتيجة التى يستخلصها دلثى ليست أن أحداً لا يستطيع أبداً أن يعرف كيف يعمل أو يفكر بل هى أن الإنسان ، فى أى مجال ، يستطيع أن يشق طريقه . وكلما تعلمنا أن كل مجموعة معينة من المبادىء هى رد فعل مجموعة معينة من الظروف وضح أن النسبة التاريخية ذاتها يجب أن نسلم آخر الأمر بشىء واحد مطلق وهو العقل البشرى القابل للتكيف بدرجة مذهلة » .

ولا يكاد يغرب عن البال أن هذا — مع أنه فى ذاته جد شائق وجد إيمازى ، ومع أننا قد نوافق علية — ليس بالجواب المقنع . إنه جواب على مستوى عملى . وهو يوقفنا على شىء من فوائد التفكير التاريخى ولكنه لا يخبرنا إلى أى حد تكون نماذجه صحيحة وهل ماينبئنا به هو الصحيح .

ويقول لنا كروتش إن « التاريخية (أى علم التاريخ) من الناحية العملية هى التوكيد بأن الحياة والحقيقة تاريخ وتاريخ لاغير . والنتيجة الحتمية لهذا التوكيد هى إنكار النظرية التى تقول بأن الحقيقة يمكن أن تنقسم إلى تاريخ سام وتاريخ وإلى دنيا أفكار وقيم ودنيا أدنى تعكسها » . وهو يقصد إلى أن الأحداث والأفكار كلها جزء من مد التاريخ وانصهاره . « والنتيجة السريعة لهذا الجدل تكمن فى إظهار أن الأفكار والقيم التى كانت تعد معايير ونماذج للتاريخ ليست أفكاراً ولا قيماً عالية ولكنها وقائع معينة وتاريخية ارتفعت إلى مستويات نظائرها

العالمية » . ونلاحظ هنا أيضاً التأويل الشكى الذى يصدر عن كل من يتأثرون بالنسبية التاريخية . وإن كرتش ليقول الصواب كله عندما يقول إن التقدير التاريخى المتوقع يقوّض تماماً المذهب العقلى السطحى الذى يشابه ما كان سائداً فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ويولد مكانه مذهباً عقلياً أعمق يكون له — بعد أن يدرك عدم تعقل الناس والأحداث — أن يحدث بعض التنظيم والصياغة والترتيب، وذلك على أساس تلك المعرفة التى هى أقرب إلى الإقناع . وخضوع العقلى إلى اللاعقلى هو النهاية وليس الإنكار اللاعقلى القديم السطحى : واستكشافه ، أو على أية حال استكشاف امتداده المنافى للطبيعة ، عن طريق علم النفس الحديث » يجب أن يكون عوناً قوياً لتجنيده فى خدمة العقل والمنطق . وهذا شرط ضرورى لاغنى عنه . وفكرة امتداد المعرفة فى عصرنا هى التى تزودنا بأكبر أمل .

ثم إن كروتشى ، الذى صرف جزءاً طيباً من حياته فى التفلسف والذى ألف فى الموضوع كتباً كبيرة ، كثيرة يضع نفسه الآن فى مصاف أولئك الذين لايرون مكاناً لما وراء الطبيعة . وكثيراً ماصغت ودللت نظرياً على النتيجة القائلة بأن الفلسفة لاتستخدم إلا «منهجاً علمياً للفكرة التاريخية» مما أثار سخط من يلقبون بالفلاسفة. وهو يسأل — على أساس الاعتقاد بأن الفلسفة إنما هى حسن إدراك — « هل هناك أي شيء آخر فى الدنيا يستحق أن يعرف غير الحوادث التى عشناها؟ وهل الانعكاسات الفلسفية يمكن تبريرها إلا بوصفها وسيلة أو منهاجاً ننال به تلك المعرفة الفعالة النافعة الفريدة؟ » . والواقع أنه سبق أن قال لنا فى باب عنوانه « المعرفة التاريخية تعد معرفة كاملة » : « لايكفى أن نقول بأن التاريخ ما هو إلاّ رأى تاريخى بل ينبغى أن نضيف أن كل رأى إنما هو رأى تاريخى أو بكل بساطة ، تاريخ ... والرأى التاريخى ليس مجموعة منوعة من المعلومات ولكنه هو المعرفة ذاتها بصورة تملأ تماماً وتستنفذ تماماً ميدان الدراية دون ترك مكان لأى شيء آخر .

وها نحن أولاء نعرف الآن من أين أتى كولنجوود ، حوارىّ كورتشى ، بالنتيجة وهى: «فكرة الطبيعة» .وهو يذهب فى جدله إلى أن العمل العلمى تاريخى فى جوهره . لا يستطيع العالم — الذي ينبغى أن يعرف أن حدثاً معيناً قد وقع فى عالم الطبيعة — لا يستطيع أن يعرف هذا إلا بمراجعة السجل الذى خلفه الباحث وبتفسيره وفقاً لقواعد معينة ، وذلك بطريقة تقنعه أن الرجل الذى هذا سجله قد عاين فعلاً ما يدعى أنه عاينه . ومراجعة هذه السجلات وتفسيرها من الملامح التى تميز العمل التاريخى . وكل عالم يقول إن نيوتن لاحظ تأثير الموشور (أو المنشور البلورى) تحت ضوء الشمس أو إن آدامز رأى نبتون (وهذا الكوكب السيار هو إله البحر عند الرومان)أو إن باستور لاحظ أن عصير العنب عندما يصل بفعل الجو إلى درجة حراره معينة لايصيبه التخمر ، كل عالم يقول هذا إنما يقص تاريخاً . والوقائع التى لاحظها أولاً بنوتن وآدمز وباستور أخذ يلاحظها آخرون منذ ذلك الوقت ولكن كل عالم يقول إن الضوء ينشدخ بالموشور (أوالمنشور البلورى) أو أن نبتون كائن أو أن التخمر يمتنع عن درجة حرارة معينة ، كل عالم يقول هذا إنما يقص تاريخاً . إنه يتكلم عن كل طائفة الحقائق التاريخية التى كانت مجالاً أبدى فيها شخص ما هذه الملاحظات . وعلى هـذا فالحقيقة « العلمية » إنما هى طائفة من الحقائق التاريخية . ولا يستطيع أن يفقه كنه حقيقة علمية ما لم يفهم ما يكفى من المنهاج التاريخى وذلك لكى يفهم كنه الحقيقة التاريخية ...

واستنتج أن العلوم الطبيعية — بوصفها لوناً من ألوان الفكر — موجودة ، وهى دائمة الوجود فى سياق التاريخ ، وأن كيانها يتوقف على الفكر التاريخى ، ومن هنا أجازف باستنتاج أن أحداً لا يستطيع أن يفهم العلوم الطبيعية ما لم يفهم التاريخ وأن أحداً لا يستطيع أن يجيب عن السؤال (ما هى الطبيعة ؟) ما لم يعرف ما هو التاريخ . وذلك سؤال لم يسأله الكسندر ــ و ــ وايتهيد . وهذا هو السبب فى أنى أجيب عن السؤال (إلى أين نذهب من هنا ؟) بقولى « نحن نذهب من فكرة الطبيعة إلى فكرة التاريخ » .

وعند هذه النقطة مات كولينجوود . ومن الصعب أن نقدر كيف كان يمكن أن يذهب إلى أبعد من هذا. ومما يلفت النظر كذلك أن الناس البارعين قد يساورهم كلال عظيم . والتاريخ بطبيعة الحال يقع تحت كل شيء . وجلي أن كل شيء له وجه تاريخي . ولكن هذا لا يعني أن التاريخ هو كل شيء . ومن المؤكد أن ما يقوله كولنجوود يخفي غموضاً فكرياً . والجوهر الحقيقي للبحث العلمي ليس في « مراجعة وتفسير السجلات » كما هي الحال في التاريخ وإنما هو في التحقق عن طريق الاختبار . وفي التاريخ مثيل من التحقق عن طريق الاختبار حيث ، كما قلت، يبرهن على البودنج بأكله . ولكن هذا « رجعي » فأنت لا تستطيع أن تختبرها . سلفاً . وفي السؤال أشياء بالغة العدد لا وزن لها .

ويبدو لي أن كروتشي وكولنجوود هبطا أرضاً من الباطنية التاريخية (والباطنية مذهب العلم الروحاني ويسمى أحياناً بالصوفية أو التألهية) التي تشابه في خطورتها الذرائعية (وهي المبدأ العملي الذي يقول بأن أهميته المبادىء إنما هي في نتائجها العملية) .ووجه الخطورة أن الباطنية لا تميز بين بعض الأشياء والبعض .ويقارن كروتشي بين الحكم على الحوادث وبين معرفة خلقها أو تكونيها فيقول : « المبدأ القائل بأن المعرفة الثابتة المقررة الحقيقية تكون دائماً معرفة تاريخية لها نتيجة جلية وهي أن معرفة حدث مع صفاته المؤهلة والحكم عليه لا يمكن فصله أو تمييزه عن معرفة خلقه وتكونيه » . ولكن المنشأ أو المصدر لا يماثل صدقه ورسوخه كما أن معرفه المنشأ أو المصدر لا يماثل الحكم عليه . ويتوغل كرتشي في فكرته « غموض التاريخ » إذ يقول لنا : « الحقيقة هي التاريخ ولا يبينها إلا التاريخ . ولا شك في أن العلوم تقيسها بمعايير وتبوبها حسب الضرورة ولكن من الصواب أن العلوم لا تعرفها كما أنه ليس من شأنها أن تعرف طبيعتها الجوهرية » وينتهي بمقاومة العلم البشري (أي مذهب الإيمان

بالإنسان) بالمطلع التاريخي المرتقب « وو ريث هذا العمل العظيم هو التاريخية التي تنطوي على التحرير من الاستعلاء العقلي في كل مجال: توكيد الأخلاق ، الحياة السياسية والاقتصادية ، الاهتمام بالعاطفة والشعر ، تجديد شباب الحياة الثقافية والخلقية ، علم الكلام وهو أداته المنطقية الجديدة » .

وقد نتفق وكروتشي في أن التفكير التاريخي يحررنا من الاستعلاء كما نتفق وإياه في جدله ضد المداخلة العامة الشاملة للأراء الخلقية من عصر وإقليم إلى عصور وأقاليم تختلف اختلافاً كلياً . « أولئك الذين يتذرعون بقص التاريخ فينهمكون كأنهم قضاة فيدينون هنا ويمنحون الغفران هناك لأنهم يظنون أن هذا هو مكتب موظفي التاريخ ، أولئك يعرفون عادة بأنهم مجردون عن أي إدراك تاريخي » . وهذا يهيء لأكتون تحولاً قصيراً بقوله المأثور المشهور « القوى تساعد على الفساد، والقوة المطلقة تجعل هذا الفساد أمراً محتوماً » . ولاشك في أن هذا القول جد بسيط وجد موجز: إنه قانون سيد من العصر الفكتوري راجح العقل يطبق على تقلب التاريخ . ولكن هل معنى هذا أن في وسع المرء ألا يطبق معايير خلقية على التاريخ ؟ لا أظن ذلك. حسن جداً ، فما هي المقاييس إذن ؟ يقدم لنا كروتشي لمحة في فقرة تتعارض كثيراً وما سبق له إيراده حين قال « بما أن كل توكيد هو حكم وبما أن الحكم يتضمن الجنس أو النسق فإن عنصر العلم بالتاريخ هو منظم الحكم حسب الأجناس » .

وقد رأينا أنك إذا اتبعت مبدأ علم الكلام فلن يتوافر لك قط معايير خارجية للحكم ، فهي والعملية واحد . ورأيي في هذا السؤال الصعب هو الآتي « المعايير أو الفئات يجب أن تنبثق من طبيعة الظاهرات التي ندرسها ، تاريخية كانت أو علمية فهي تشكل نوعاً من النظام يوائم تجاريب الحياة ويلائم تطابقها المنطقي ، وبهذين معاً ينبغي لها أن تمتحن كل الوقت دون انقطاع . وإذن فالمعايير التي يمكن تطبيقها على التاريخ والتي توائم التاريخ تنبع من التاريخ،وإن كثيراً من سبل العمل لتدين نفسها

ليس فقط يجلب النكبة والإخفاق بل ربما بارتكاب الجرائم والأمور المنافية لشريعة الآداب . والأحكام التى من هذا النوع جائزة كما أرجو أن أبين توا . كثيرون من الناس فى التاريخ يدينون أنفسهم أو على العكس يفوزون بالإعجاب والحمد . وعلينا ، بطبيعة الحال ، أن نفهمهم ونفهم معاييرهم من واقع عصرهم ومعاييره . ولكن هل تلك المعايير والقيم تظل مستعلية مع مضي الزمن ؟ لاشك فى أنها تحوى عنصر الوقت، وعنصر الوقت يعظم مع المعايير السياسية والخلقية مثلاً أكثر مما يعظم ، مع المعايير الجمالية أو الثقافية البحتة ، فى الرياضيات والمنطق البحت مثلا. وللمرء أن يشيد سلماً من القيم ، من أولئك الذين يكثر تعرض أحوالهم للتبدل إلى من هم أقل فى هذا الشأن .

وعندما نتفحص هذه المعايير نرى أنها لاتحوى فقط عنصراً مصدره ظروف الزمان المتغيرة بل تحوى كذلك عنصراً أكثر رسوخاً يرتبط بشيء مستمر دائم . ولنضرب مثلاً مأساة إغريقية : إن قدراً كبيراً منها ليعكس صورة الأحوال الاجتماعية لعصر اضمحل وزال كما يعكس معايير الحكم على ذلك العصر . ولكن الظرف طوى فيه مع ذلك قيم جمالية تتحدث إلينا الوقت كله ، أو على الأقل مادام الإنسان يعتز على أنه إنسان . هنالك لمسات من الجمال — وقد تكون القيم الجمالية كما قال بوركارت وكثيرون آخرون (من بينهم روبرت بردجز وجيمز جويس)، قد تكون أكثر رسوخاً من شيء آخر — والقيم الجمالية ثابتة كاملة أكثر من أية قيم أخرى نصادفها مع الزمن . ولكن ليس من المعقول أننا ننكر أننا نصادف قيما أخرى كذلك متسلطة تسيطر على رضانا ، بقدر ماتفعل القيم الأخلاقية . والحقيقة الواضحة هى أنه تحت كل الانصهار والتبدل التاريخيين ، تحت الادعاءين الدنيين المتبادلى التناقض وهما المخاصمات الأبرشية للطوائف فى صدد ولائنا ، وجنوح الأنانية الفردية ، الذى لاجدال فى شأنه ، إلى تثبيت نفسها على أنها عاليه ، تحت هذا وتحت كل تبدل فى الظروف والملابسات يتوافر نوع من الوصل الوعي يصح أن تعزى إليه كل المعايير لمعرفة صحتها وصدقها ، وذاك الوصل الوعي هو طبيعة الإنسان

وهذا هو الذى يهىء للماده أساساً حقيقياً لحكمنا الأدبى مهما تقيد بالزمان . وبذلك يجوز لنا ، بوصفنا مؤرخين ، أن ندين نيرون بأنه رجل سوء وأن نحيي عيسى لأنه رجل طيب .

وتقول فيلسوفة حديثة ، هى الأستاذة ستينج : « ومن المؤكد أن المبادىء الأخلاقية — حتى ولوكانت أبدية ، ولوكانت لاتتبدل ولاتتطور — تتطلب أن تفسر من جديد فى كل عصر وأن يعاد التفكير فيها فى كل جيل . وأن معتقداتنا العاطفية الأدبية ومعاييرنا للخطأ والصوب وفكرتنا عن صلاتنا بالناس الآخرين ، أن كل هذا ليخضع لبعض التبدل كما قد تتبدل أساليب حياتنا » . وهى تقول لنا إن من الخطأ استقراء الصفات الأدبية وحسن التصرف مما وراء الطبيعة وأنه لا محل لاستقراء الأخلاق والآداب من أى شىء آخر إذ إن فكرة الالتزام الأدبى والأخلاقى لا يصح إظهارها على أنها استدلال قياسى من نظام الكون . بالعكس : معرفتنا بمعنى الالتزام الأدبى والأخلاقى ماهى إلا وقائع أو معلومات تنبغي مواءمتها وتطبيقها ، هذا إذا زاد تطلعنا إلى بناء نظرية عن الكون » .

كل هذا تستسيغة فيلسوفة معاصرة مع المعلومات التى يولدهالنا التاريخ والمنهاج التاريخى . ثم إننا لم نترك فى شك تام من كل شىء نتيجة لتجربتنا فى النسبية التاريخية . ونحن موقنون بأن فى استطاعتنا بناء طائفة معلومات تتيح لنا من أن نقول فى مجال ما إنه لامعنى أبداً لمحاولة تهدئة النازى ، فذلك يناقض طبيعة النظام السياسى الذى كان قصارى منطقه العميق الاعتداء والفتح . ولنقل إن طائفة المعلومات أتاحت لنا مرة أخرى أن نصر على أنه لن يقوم لحزب الأحرار فى بريطانيا قائمة بعدما هوى أساس جميع مبادئه الاجتماعية والاقتصادية . إن التفكير التاريخى ليستطيع أن ينبئك بهذين الأمرين أو أن يضرب لك مثله من دائرة معلومات أخرى : إن التعاليم المسيحية فى شأن التحاب بين الناس تصلح أساساً للصلات

الإنسانية فى المجتمع ، خيراً مما يصلح الحسد والكراهية . هذا من دون أن تشارك فى أى رأى من أراء ماوراء الطبيعة غير قابل للتصديق إطلاقاً .

وتلك الطائفة من المعلومات التى نبنيها من واقع التاريخ تتصل بالمقتضيات والأزمنة التى نعيش فيها . ولاغنى ، بطبيعة الحال ، عن عملية دائمة من مواءمة المعلومات للعصر . وإن قدراً كبيراً من المعلومات الباكرة . ليفوت وقته دائما فيصبح عديم الفائدة لنا ، كمثل كثير من العلوم الباكرة خذ مثلاً علم التنجيم والخيمياء ، (اى السكيمياء القديمة) اللذين أديا غرضهما فى تطوير الفلك والسكيمياء ،أو خذ مثلاً علم اللاهوت أو الاتجاهات السياسية والاقتصادية . ولكننا نستنبط من علم كهذا مانحتاج إليه أو مايدوم أو مايحتمل تجارب الزمن التى تطول وتطول أو مايتصل بالوعى المستديم لتجارب الإنسان بوصفه إنساناً. وإذن فالسبيل إلى الصواب هى فهم تلك التبدلات وفقاً للظروف المتغيرة كى نتطرق إلى استدامة المعلومات والتجربة التى تترتب على ذلك .

والمنهج التاريخى هو الوسيلة المناسبة . ذلك أن المعلومات أيضاً لها من الوعى قدر لايقل عما للتجربة منه . إنه ليس مجرد شىء عملىّ إنهما كىّ ، يقدم إجابات مؤقتة عن أسئلة مؤقتة ولا هو مجرد شىء نفعى حتى ينبذ العقل . وقد ينسى ويعود مرةً بعد أجيال . إنه لا يفتأ يعاد صنعه وتعاد صياغته وفقاً لحاجاتنا . على أن بعض تلك الحاجات عملى والبعض أدبى أخلاقى ، كحاجة الإنسان فى العالم أجمع إلى استنباط الارتباط والملاءمة مما نفكر فيه وتحويل تجاريبنا إلى نظام يسوده التفكير .

ومهما كان المؤرخ من القائليين بالمذهب النسبى فإن فى وسعه أن يوافق الفيلسوفة على أن هنـــاك معلومات إيجابية « من الوهم أن نتلمس قيمة حياتنا ، الكائنة هنا وفى وقتنا هـذا ، فى حياة مستقبلة . ومن الوهم أن نزعم أن شيئاً ما ليست له قيمة فى نظرى مالم أعش إلى الأبد . ومن الوهم أن نزعم أن خسارةً

ما يستحيل تعويضها ، وأن تضحية ما يستحيل نيل الجـــزاء عليها ، وأن حسرةً ما يستحيل تلطيف وقعها . ولـكن أيضاً ليس من الوهم ـــ ولا من الحقائق التى يجادل فيها ـــ أننا ، هنا وهناك الآن ، نعرف أن الـكراهية والقسوة والتعصب (أى عدم التسامح) واللا مبالاة (أى عدم الاكتراث) بتعاسة الناس ، ليس من الوهم أن نعرف أن تلك الأشياء إثم وشر وأن المحبة والمعروف والتسامح والغفران والصدق خير كلهـا . ومن الخير كذلك بلا مراء أننا فى غنى عن الابتهال إلى الله أو إلى السماء لـكى تزكيها لنا »[١] .

كلا : لأن تلك القيم تنبع من التجربة الإيجـــابية للإنسان فى التاريخ وترتـكز عليها .

---

(١) ل . سوزان ستبلنج « المثل العليا والأوهام » .

الباب السادس

التاريخ والتربية

من الواضح أن التاريخ موضوع ذو قيمة تربوية كبيرة . وقد أصبح فى الجامعات ، أهم الدراسات الأدبية . وإنى أوافق على الحكم العام الذى صدر عن تريفليان : « كلما تقدمت فى السن وكلما لاحظت اتجاهات يومنا الأخير وظرفه زاد إيمانى بأن التاريخ يجب أن يكون أساس التربية الرحيمة (وهذا التعبير ليس علمياً) فى المستقبل . وبدون بعض المعرفة التاريخية تظل بعض الأبواب مغلقة . مثلاً قراءة أدب الشعر والنثر ، فضلاً عن الكتب الدارجة ، يجب أن ترتكز على شىء من معلومات العصور الغابرة التى فيها ألفت كتب أكثر قدما . ويبعض الفهم للظواهر الاجتماعية والسياسية لدنيـــا تشوس وشيكسبير وملتمه وسويفت ودنيا بوزويل وودسورث وشيللى وبايرون ودنيا دكنز وترولوب ودنيـا كاليل وراسكين ، حتى يمكن تقدير هذا التراث حق قدره بل ينبغى فى بعض الأحوال فهم موضوعاتها. أماالموسيقى فليست فى حاجة إلى مثل هذه القدمةالتاريخية فلكى تقدر حق قدرها إذ إنها ليست رمزية أو لأنها رمزية بقدر ضئيل ليس إلا . ولكن الأدب رمزى لأن كل كتاب متأصل فى أرض العصر الذى كتب فيه . وإذا لم يصبح أدبنا الإنجليزى العظيم ، بالنسبة للشعب الإنجليزى كتاباً مختوماً (كما أخشى كل الخشية أن يكون بالنسبة للكثيرين)فإن مواطنينا يجب أن يعلموا شيئاً عن الأزمان السالفة».

وهذه قضية مهمة فعلا ، ولكنى أظن أن القضية ما تزال ذات أهمية أكبر . وليس ثمة شىء يوحد الفروع الأدبية بقدر ما يوحدها التاريخ ، فكثير من تلك الفروع ينبع منه ، أو تعثر فيه على كثير من مادتها . ومن تلك الفروع علم البشرية (أى التاريخ الطبيعى للأجناس البشرية) والعلوم الاجتماعية والاقتصادية والقانونية ، ومنها اللغات بدرجة أقل . وكلها لها وجوهها التاريخية وتلتقى فى التاريخ . فهذا الفرع قبل كل شىء فوق كل كتلة (أى حرية الفكر) واسع مركب وليس بحتاً كالرياضيات أو الموسيقى أو المنطق . إنه فسيح منوع كالحياة .

ثم إنه لا يتيح فقط ميدان لقاء مشتركاً لأنظمة الآداب المتفرقة كافة بل يهيء لها كذلك أحسن وأخصب ملتقى مع العلوم الطبيعية .

ولأ وضح ما أحاول قوله . افترض أنك طالب لغات وأدب أجنبيين . فى هذه الحالة لاغنى لك عن الوقوف على شىء من تاريخ الناس إذا رغبت فى فهم أدبهم وتطور اللغة يعود بك من جديد إلى تاريخهم الذى يعكسه إلى حد ما . وإذا كنت من طلاب علم البشرية أو علم الاجتماع أو القانون المقارن أو الأخلاق فلسوف تستنبط الكثير من مادتك من تاريخ الشعوب المختلفة وبدون الإدراك التاريخى الذى يخبرك أين يقع التاريخ فى تطورها وما هى الظروف التى تستطيع أن تفسرها تفسيراً صحيحاً . والظروف الاجتماعية لعصر وشعب معينين تجد ملامحها فى أدب ذلك الشعب فهو الشريعة الخلقية لقانونهم وأخلاقهم . وفى كل حالة يكون الميدان المشترك هو تاريخ ذلك الشعب وعصره الميدان الذى يظهر فيه كل شعب وجهاً قائماً بذاته والذى يشارك فيه الشعوب جميعاً . وهذا الحكم ينطبق على العلوم وارتباطها بالآداب . فتطور العلوم يتصل اتصالاً وثيقاً بفكرة عصره الفلسفية بقدر ماتتصل بحاجاتها العملية . فالفلك القديم إنما نحسن استجابة لمطالب الرعاية الدينية ولحاجات السياحة فى البر والبحر . والملاحة والتجارة أدّيا إلى كثير من الاستكشافات العلمية . والهندسة تولدت عن ضرورة قياس الأرض . وطالب الجغرافيا سوف يجد نفسه يسير يداً بيد مع الجيولوجيا (علم طبقات الأرض) من ناحية ومع التاريخ من ناحية أخرى . ودراسة الاستكشافات الجغرافية تاريخية بقدر ما هى جغرافية . وبعض الدراسات القديمة فى العلوم هى درسات قديمة فى الأدب كذلك. خذ مثلاً بيكون وجاليليو ومؤلفات دارون وهكسلى . والفنون التى تشابه هندسة البناء والموسيقى لها وجه علمى . وحكاية تطوراتها الفنية جزء من التاريخ . وفى وسع المرء أن يدرس تطور الآلات الموسيقية كالبيانو من المزف القديم (أو العذراوى)

وكالكمان من الكمان الكبير والمزهر (العود أو الطنبور) ، وهناك الاتصال التاريخي التام بالعلوم نفسها . فالناس الذين أتموا منجزات العلوم كانوا أناساً أفذاذاً في أزمانهم تقيدهم المغانم الثقافية والاجتماعية لعصرهم وطبيعة هذا العصر . وإن المرء ليتذكر أن بيريكلين ، أكبر سياسي عند قدماء الإغريق ، كان صديقاً حميماً للعالم أناكساجوراس وأن الشاعر يوربيديز كان صديقاً آخر من أصدقائه . والواقع أن الاتصالات القريبة والالتقاء في دائرة المعرفة لها قيمة مثمرة لا تقف عند حد . وربما نستطيع أن نقول إنها جميعاً وجدت منبتها في التاريخ، هذا إذا صح أن تلك الاستعارة ليست غاية في السلبية بالنسبة لموضوع تزيد أهميته بوصفة (رابطاً جلوائيا[1]) أو قياد طاقة موصلة ، وهذا من دواعي امتيازه .

ومنذ عصر النهضة العلمية الأوروبية إلى وقتنا هذا احتلت الدراسات القديمة والإنجيل مركز الميدان في الدراسات الإنسانية وأصبحت المؤثر الموحد في مجال التعليم وكان هذا ، على وجه الإجمال ، صحيحاً في كل مناحي أوروبا (باستثناء روسيا والبلقان) وكان له تأثير عميق في توحيد التفكير الأوروبي بين الطبقات المتعلمة حتى مع الانقسامات القومية والدينية. فقد اتخذ المتعلمون أفلاطون وأرسطو وكتاب المأساة والمؤرخين الإغريقيين وفيرجيل وهوراس وبلوتارك وليفي وتاسيتاس وأدب الكتاب المقدس وتاريخه ، اتخذ المتعلمون هؤلاء خلفية مشتركة في العالم الغربي جميعاً وبقيت لها قوتها الكاملة في التعليم بهذه البلاد لغاية الجيل السابق .

ولكن بعد أن ضعف تعليم الدراسات القديمة — الذي كان متبعا فيما سبق — أنى يكون لنا أن نبحث عن قوة موحدة تحل محل ما سبق ؟ أين — إن لم يكن في التاريخ — يتأتى لتجاربنا المشتركة ولدراساتنا الإنسانية المختلفة أن تلتقي؟ ليس هناك

---

(١) الجلوائي نسبة إلى الكهربائية الجلوانية أو الكيماوية.

تنافس محتمل وهذا هو أهم اقتراح عملى يصح لى تقديمه . إنه رسالة هذا الكتاب .

قد يقال إن التاريخ عامل تفريق أكثر منه عامل توحيد وأن الأمم سوف تظل محصّنة بتقاليدها القومية الخاصة غير ناظرة ، إلى أبعد من حدودها، إلى مجتمع أوربى أو عالمى . نعم إن دنيا العقل بالنسبة لأواسط الناس هى دنيا بلادهم ولغاتهم وآدابهم . ولكنهم اليوم ، عن طريق الجرائد واللاسلكى والأفلام ، تطرد قدرتهم على تكوين صورة ولو جزئية وغير مستوية لبلاد أخرى . وغالبية الإنجليز فكرتهم عن أمريكا أصح بكثير من فكرتهم عن أى بلد آخر . إن فكرتهم عن الولايات المتحدة — التى تبعد ثلاثة آلاف ميل — أصح من فكرتهم عن فرنسا التى تجاورهم. والناس كلما تعلموا زادت معرفتهم ونمت قدرتهم على فهم الأمم الأخرى وتقاليدها . وإن المرء إذا حسنت معرفته بالتاريخ لا يستمسك بوجهة نظر بلدٍ ما عن ماضيه . فالإنجليزى المتعلم لا يشاطر جورج الثالث رأيه فى الثورة الأمريكية كما لا ينظر إليها الأمريكى المتعلم بعين جون هانكوك أو جون آدامز . وكلما اتسعت قراءاتنا التاريخية ونضج حكمنا على الأحداث ، وقفنا على منجزات عظيمة وأخطاء محزنة وكثيراً على المكابدات المملة فى كل مكان من السجل البشرى . ويتاح لنا الوقوف على جميع تواريخ الشعوب المختلفة واتصالاتهم فى السلم والحرب وتياراتهم المتبادلة بين النفوذ ورد الفعل وافتراقهم والتقائهم ووجوه تشابههم واختلافهم ، يتاح لنا الوقوف على كل هذا على أنه جزء من تاريخ واحد . ومن وجهة النظر هذه يعدّ التاريخ أكثر الدراسات كلها إحاطة وتوحيداً . ولكنه يتضمن ويتطلب تربية . ومن حسن الحظ أنه يمهد لهـا كذلك فالعملية مزدوجة .

ومن أهم مزايا التاريخ فى التربية أن الموضوع ينمو مع المرء من مرحلة أولية جداً إلى غاية مراحل التهذيب والإعداد للنضوج الكامل والحكمة المستخلصة من التمحيص . والموضوع يمكن أن يستهوى الأطفال البالغى الصغر ، كما أتذكر بالنسبة

لى شخصياً وكما وصفت فى كتاب « طفولة كورنوولية » . وصفت كيف كان لخالة أمى كتاب تاريخ (وكان بيتنا خالياً من الكتب) . ولابد من أنه كان كتاباً مدرسياً كدراً ينم على بروتستانتية حارة . ولكنى دهشت لما كتب عن مارى تيودور وغضبت عليها أشد الغضب ، ولابد من أنى كنت فى السادسة من عمري . وفى وسع التاريخ ، يقيناً ، أن يثير العواطف . وربما لم يكن هذا الأمر خطراً جداً فى السادسة من العمر بل ربما كان خيراً لأنه يوقظ الرغبة ويجلب المنفعة . ويقول لنا الدكتور كيتنج الرصين فى كتاب صغير مفيد أسماه « دراسات فى تعليم التاريخ » : « يعلى من قدر التاريخ بصفة خاصة أنه تعريف بالطبيعة البشرية العالمية . وإذا زاد الاهتمام بالسير فالتاريخ صورة كاملة لطبيعة العمل فى كل مجال يستطاع تصوره . فهو يوسع ، إلى غير حد ، دائرة معلوماتنا ويمدنا بمادة موفورة لتحليل الدوافع أو البواعث. وهو يهيء الفرصة لإنماء قوة الكبح بالنسبة للشخصيات المحبوبة وعدم استدرار الشفقة عند الحكم على الشخصيات الكريهة » .

وهذا يقرب من الصواب. فالأطفال تستهويهم الشخصيات وقصصها ، ويتوافر عندهم تقدير طبائع الأشياء تقديراً أريباً . وهذه تتمة دراسته للشخصيات التاريخية وطريقة تصرفهم . وعلى أية حال فما هى غير امتداد للدنيا الحية التى يقيمون فيها . هذا مع مزية إضافية هى أنهم يستطيعون أن يروا كيف تتبدل الأمور معهم . إن التاريخ يهيء لهم أساساً للتأمل إنهم لايسكنون دنيا من الذرات والجزئيات والبروتونات[1] والإلكترونات[2] والمواد الكيماوية والأرقام الذرية . وعلى أقل تقدير فإنهم لا يكونون معارفهم الشخصية الذين عليهم أن يمارسوا الحياة معهم . ومع أنه يمكن القول بأن أهم فوائد تعلم حسن معاشرة الناس ومعرفتهم وفهمهم والحكم على طبيعتهم

---

(١) البروتون أو الأويل ومضة كهربية إيجابية ومنها تتألف النواة الكهربية التى تدور حولها الإلكترونات .

(٢) الإلكترون أو الكهيرب ومضة كهربية سلبية .

يجب أن تمارس مع مجرى الحياة فإن هذه الحياة نفسها — إذا صورت تصويراً وصفياً ، وبسطت أمام عيوننا فى التاريخ — إنما هى امتداد ذو قيمة للحياة وعون عظيم على تأملنا إياها . وفى الحق ، مع الأسف إن أغلب الناس يتعلم القليل فى كل حال ولكن هذا القول لا يصح أن يساق ضد ما قد يتعلمونه إذا ركزوا دراستهم عليها . ويورد الدكتور كيتنج حالة بالغة المتانة عن دراسة التاريخ فى المدارس حتى ولو على أساس نفعى محض .

ومعظم المدارس التى تتمتع ببعض الأهمية يحوى معملاً للعلوم ينفق عليه مال وفير فى كل عام . ولكن فى دروس التاريخ تجد القليل من المدارس لا يقدم من الأجهزة غير كتاب وسبورة . أما العلوم الطبيعية — بوصفها فرعاً من فروع المعرفة تتوافر مناهجه وأجهزته، فقد كان لها السبق فى مضمار العلوم الاجتماعية . وهى فوق ذلك ترضى الغريزة النفعية غير الناضجة . ومع جهود نظار المدارس الذين يعرفون عملهم فإن ضغط النفعية الكاذبة تصعب مقاومته .

وبعد التسليم بهذا تبدو الرغبة فى تعريف جميع التلاميذ بدنيا العلوم وبالمبادئ الأولية للمناهج العلمية . ويستطرد الدكتور كيتنج فيقول : « ولكن بعد انتهاء الدراسة لا يتاح حتى لواحد فى المائة من التلاميذ أن يتصل ثانية بالعمليات الكيماوية أو أن يضطر إلى عمل أية إحصاءات أو تقديرات فى الطبيعة . واليافع العادى يؤجر الخبراء ليقوموا له بتلك العمليات . وقد جرت العادة على أن يعى حساساً إلى درجة كبيرة فلا يخاطر بأدائها أداء رديئاً ... ولكن الأمر يختلف بالنسبة لسائر الفروع الكبيرة من الدراسات المدرسية . فقد لا يرى اليافع مرة أخرى على الإطلاق أنبوب اختبار أو ميزاناً ولكنه لا يعجز عن أن يساق إلى الاتصال بالناس .. ومن المحتمل بل يكاد يكون من المؤكد أن نجاحه فى الحياة سوف يتوقف على السهولة والدقة اللتين بهما يلاحظ الكلمات ، مكتوبة كانت أو منطوقة ، كما يتوقف على استخلاص

نتائج منها . ولسوف ينبغي له فى مناسبات لاحصر لها أن يحلل المستندات ويلخصها أو يدرك معناها ويقارن بعضها ببعض . ولسوف يتحرر فى أغلب الأحيان من ضرورة استخلاص البواعث من الأفعال ، والصفات من الأعمال . وبهذه الفئات من العمليات العقلية وبالاعتياد على هذه العوامل فى الحياة الإنسانية ، بهذين يعرّف التلميذَ التاريخُ المدرسى إذا فهم على الوجه الأكمل كما يُعرفه درس التاريخ إذا عرض عرضاً حسناً .»

ومن المؤكد أن كل امرئ يجب أن يسلم بهذا نتيجة لتجاربه الخاصة ، إذا فكر فيه . وهذا لا يعنى أننى لا أوافق على تعليم العلوم فى المدارس إذ هو ضرورة ظاهرة النفع . ولكن قد يحدث أنها تدرس بقدر أكثر مما ينبغى بكثير وبخاصة إذا ترتبت لها حقوق مطلقة أو إذا تسببت فى إهمال العلوم الأدبية . ويغلب فى المدارس فى هذه الأيام وجود محاباة مقصودة فى صالح العلوم ، ويفترض الناس أن هذا لابد من أن يكون صواباً لأن « هذا عصر علمى » وما إلى ذلك . ومن الواضح أنه يهيء لمدارج عملية فى الصناعة وغيرها ولكن من دون التأمل فى : هل العلوم تمد العقل بتربية عامة ؟ وألاحظ فى اهتمام أن اثنين من مدرسى العلوم المستنيرين ، وهما السيدان همي وجيمى ، جنحا إلى الشك فى قيمة الكيمياء بوصفها فرعاً يدرس بالمدارس، وذلك حسبما ظهر فى كتابهما « العلوم فى المدارس » . وأنا لست أنكر تدريس العلوم فى مدارس البنين إذ إن الكثيرين من الصبيان يتعلمون عن طريق أيديهم أكثر مما يتعلمون عن طريق عقولهم . ولكنى أشك أن يكون للطبيعة والكيمياء أية قيمة تربوية — باستثناء حالات نادرة — فى مدارس البنات . وربما يتجه تفكيرى إلى أنه — فى تلك المدارس — قد يكون من الأفيد ، لأسباب واضحة ، أن يحل محلها علم الأحياء وعلم حفظ الصحة والتاريخ الطبيعى ، فعلوم الحياة أفيد من علوم المادة .

ونفقات تعليم التاريخ طفيفة إذا قورنت بنفقات تعليم العلوم الذى يتطلب اطراد زيادة الأجهزة ومعدات المعامل . أما معمل التاريخ فهو الدنيا التى تتحرك فيهـــا . والمطلوب أن يكون مدرسو التاريخ أناساً مثقفين وقادرين على أن يعرّفوا تلاميذهم بتنوع وثراء وذكريات وارتباطات ، الدنيا التى تحيط بهم إحاطة مباشرة : أما ما يستطاع عمله فيمكن الاطلاع عليه من مرجع صغير نافع جمعه وصنفه مدرسو التاريخ فى مدرسة يوركشير روثول فى وست رايدنج . إن هذا الكتاب ليبنى صورة لتلك الجهة كما ظهرت فى عصور مختلفة من مراجع تاريخية معتمدة ثم يتوسع ويصف الصقع . ويرى المرؤ فى النهاية المنطقة موصوفة وصفاً يطابق الضواحى التى يعرفها . وإن كل مدرسة تعرف واجبها لينبغى لها أن تسعى إلى تصنيف كتاب من هذا النوع . نصف إرشادى للمنطقة ونصف تاريخى .

فكّر فى الثروة البديعة الموجودة التى تنتظر أن يكشف عنها وفى مبلغ سعادتنا بأرض من هذا النوع منوعة خصبة للزراعة . عندئذ تثب إلى ذهنك فى الحال صورة معاقل ونْسلى ديل أو (وادى) بكرنج التى يعرفنا السير موريس بويك بانجلترة القرون الوسطى ، كما تثب إلى ذهنك صورة الكنائس وقصور المزارع وصغار بلدان كنسولدز أو إيست أنجليا وحصون تخوم الغال (ويلز) والموانىء الصغيرة بوست كنترى (أى المنطقة الغربية) . ولهذه جميعاً قصصها الخلابة ، وهى رواسب كثير من تيارات الحياة حياة أسلافنا التى تدخلها وتخرج منها . وماذا عن المهرجانات التاريخية القديمة التى رويت قصصها والتى أقيمت فى بلدان مثل إجزتر وبريستول وأكسفورد ونرتش ودرهام ويورك ولندن؟ ينبغى لكل منها أن يكون لها مرجعها الخاص بها . . . تاريخ المنطقة كما تنعكس فى المرآة وكما حدثت فعلاً فى ذلك المكان. وهذا عمل شاق — من ناحيتى البحث والعرض لمدرسى التاريخ بالمدارس فى كل مناحى البلاد .

ويجب أن يجرى هذا فى الوقت نفسه الذى فيه تقوم بعثات من التلاميذ يدرسون التاريخ ، بعثات منظمة مدروسة بزيارة ما يستحق الزيارة فى الأماكن المجاورة أياً كان نوعها : تلال صغيرة ، حلقات حجرية ، معسكرات ، كنائس ، حصون ، أماكن وقائع حربية ، مبان شائقة ، قرى وبلدان مجاورة . وإذا اتبعنا برنامجاً كهذا تيسرت لنا فكرة طيبة تكشف لنا تاريخ البلاد بحسب الترتيب الزمنى . بل إنه قد يحق لنا أن نأمل أن يكف الناس تدريجياً — بمجرد انتشار الفكرة فى البلاد — عن مشاهدة الأشياء الجميلة بعيون مغمضة غير واعية . بل إنه قد يحق لنا أن نأمل أن يكفوا عن تحطيم وتدمير تراث البلاد الغنى الذى ورثناه عن الماضى لنتقى غريزة التعصبية العمياء التى تخرب مالا تستطيع تقديره . بل إنه لينبغى لنا — كما ورد فى ظلال مايتو أرنولد — الإمساك عن أن نكون تعصبيين .

كل هذا ينطبق على الكتب . ولكننا لن نقف عند حد الكتب بل نتعداها إلى التمثيليات والأفلام والراديو والتليفريون والوسائل التى يمكن استخدامها فى جلب الفائدة والمتعة ، وهذان هما منهاجا هذا الكتاب . خذ مثلاً التمثيليات . ومما يدعو إلى الإعجاب أن يسترعى شيكسبير فى كل وقت اهتمام تلاميذ المدارس . وإنى لأذكر جيداً كراهيتى الثائرة على « ملكة الجن » لسبنسر . إن هذا الشعر — على روعته — لا يصلح كتاب أساطير للأطفال . ولكن أحداً منا لم يكره شيكسبير ولم يكف عن الابتهاج بقراءة تمثيلياته فى غرفة الدراسة . وهناك — كما لاحظ أشهر العلماء وأكثر التلاميذ عناداً وشكساً — هناك قدر كبير من التاريخ الإنجليزى يستطاع تعلمه من تمثيليات شيكسبير . وأنا ما زلت ، بطبيعة الحال ، أفضل أن يقوم الفتيان والفتيات بتمثيلها بأنفسهم وأن يستصحبوا إلى حيث تمثل كلما واتت الفرصة .

وهذا الحكم نفسه يمكن أن ينصب على الأفلام . ومما أثار فىّ مثل هـــذا

الإعجاب فى الفيلم الإنجليزى « هنرى الخامس » إنه لم يكن تام التجانس من الناحية التاريخية . ولقد سررت سروراً صافياً بشهودى الملابس الملونة الجميلة التى كانت تلبس فى أخريات القرون الوسطى على حالها إذ ذاك ، شهدتها وقد درست فى عناية ، من المصورات والمخطوطات كما سررت بسماعى الألحان التى كان يغنيها أهل القرون الوسطى مع انسجام فى وحدةٍ ملائمة بدائية كما سررت برؤيتى المشيدات والمناظر والسفن والمهمات والعتاد كما كانت فعلا . وبالمقارنة تذكرت كيف قضي فى نظرى على فيلم « جين إير » تفاهةُ إخراجه من الناحية التاريخية . وتجرى وقائعه — كما نذكر جميعاً من واقع الكتاب — فى بيت ريفى غنى وقورٍ فى البلاد الشمالية يحتمل أن يكون من طراز بيوت جورجيا . والبيت فى الفيلم ليس على هذا النحو . ففكرة هوليود عن بيت فى الريف الإنجليزى فى أوليات القرن التاسع عشر تبدو فيها الزنزانات والمعاقل والأروقة (أى الممرات) كما قد ترى فى برجٍ نورماندى" وهى بلندن . ولقد أولم مستر روتشستر — كما نذكر — وليمة بيت ريفى . وقد حضر الضيوف جميعاً فى مركبة من عصر الغرب الوحش الرومانسى . غير أن السيدة التى نزلت منها ، غانية المدعوين ، كان مظهرها كمظهر السيدات المدللات فى بلاط الملك شارل الثانى الذى أعيد إلى الحكم . وكان كل شىء سخيفاً غير معقول . والتعمق فى معرفة التاريخ قد يُعدّ إجحافاً إذا منع المرء من التمتع بهراء كهذا. ولكن فى الحق أن المرء يغتنم مسرة أكبر لو أن الإخراج كان أقرب إلى الصواب . وعلى العكس وصف إخراج حديث فى هوليود لـ « محاكمات نورمبرج » بانه وثيقة تاريخية باهرةٌ . فلقد عرض — من دون غلطة واحدة فى الذوق ، ومع الإنصاف والفطنة — مسئولية الشعب الألمانى فى الجرائم الفظيعة التى ارتكبت باسمه ضد اليهود وضد شعوب أخرى .

أما من حيث الكتب — علماً بأن التاريخ واحد من أقل العلوم نفقة عند التعليم ،

وبأن معداته لا تكاد تكلف شيئاً — فواجب المدارس أن تتيح كتباً تاريخية طيبة وتنشىء شيئاً لاغنى عنه وهو مكتبة عرض تاريخى كامل . وأحسب أنه يسعنا القول بأنه قد حدث تحسن كبير فى زماننا من حيث الكتب ومن حيث تدريس التاريخ . أما الكتب الدرسية التى ظهرت قبل ذلك فقد كانت مبرحة تقتل كل اهتمام بالموضوع لا محالة . لقد كان الموضوع حديث خرافة — كسندرلا — فى معظم المدارس بل فى الجامعات . وقد تغير كل هذا . بل ربما يمكن للطفل أن يبدأ بكتب مثيرة مبهجة مثل كتاب «فتيان وفتيات فى التاريخ ومزيد من الفتيان والفتيات فى التاريخ» لأيلين —و— رودا باور . وصدرت بعد ذلك كتب تسترعى الاهتمام على طول الطريق .

والمسلك السهل لاجتذاب اهتمام تلاميذ المدارس وغير تلاميذ المدارس هو طريق السير ، أى حياة العظماء ، ولا سيما الشخصيات ذوات الأثر الفعال وقواد البحر أو الجنود والمغامرين ورجال الحدود والرواد وحكاياتهم المثيرة . وثانياً إذا تيسر النظر إلى الأمرين ، كل على حدة ، فإن الحكايات نفسها هى أساس التاريخ القصصى . وتلاميذ المدارس يستجيبون فوراً لنداء الوطنية وإلى روح التضحية كما قد تقرأ فى وولف ونلسون وروبرت ا. لى — و — ستونوول جاكسون وسكوت رجل القطب الجنوبى ولورنس فى شبه جزيرة العرب . وهم يستشعرون روعة بناء المجد كما جاء فى سير كايف ودريك وبول جونس ، وقد يتشبثون بقبس من عظمة همة رجل ككرومويل أو تشاتام ولنكلن أو ونستن تشرشل ، وأنا لم أنس روح المجاهدة التى اشتعلت فى التلميذ والنزعة إلى إعلاء ذكر اسمه شخصياً واللحاق بأولئك الذين أنجزوا عملاً عظيماً تذكرهم به بلادهم ، ولعلى كنت أتجاوب مع العلوم بقدر أوفى لو أنها قدمت بطريقة جذابة عن طريق التاريخ والسير . ولعل ترجمة مختصرة لكتاب داروين « رحلة كلب صيد الأرانب » أو لكتابه « سيرة ذاتية » أو لعل تاريخ حياته كانت تمسى مقدمة طيبة . ثم إن أى تلميذ لا يمكن أن يقاوم استهواء حياة فاراداى له .

بل لعل الـكيمياء كانت تحظى بمزيد من الاهتمام عن طريق حياة السير همفرى داڤى . إن هذا كان يصبح جديراً بأن يجمع بين نداء حكاية التوفيق الأريبة وبين وطنية كورنوول .

ولا يكاد ينقضى وقت طويل حتى يتاح للتلميذ إدراك نفسانى يجوز على اليافعين نسيانه أو إهماله (وعلى المرء ألا ينسى أن تلاميذ المدارس فى عهد إليزابيث كانت لديهم الطاقة العاطفية التى تمكنهم من تمثيل بطلات شيكسبير ومن التنبّه إلى أن الواحد منهم قد يفهم الشىء الـكثير) . وما هو إلا القليل حتى يتطور اهتمام انتقادى بالشخصيات التمثيلية تنضجه مبادلات ثنائية بين مارى تيودور وإليزابيث أو بين إليزابيث ومارى ستيوارت والجزء من تاريخنا الذى لعبته عاهرات شمطاوات دميمات من أمثال مارجريت (مواطنة أنجو) وهنريتا مارية أو معتوهون عديمو الأهلية (وإن اتصفوا بالصلاح) من أمثال هنرى الرابع وجيمس الثانى . ويستشهد الدكتور كيتنج على سبيل المثال بوثيقة تبحث فى الخطاب الشهير الذى كتبته الملكة إليزابيث إلى جيمس الأسكتلندى لدى تنفيذ حكم الموت فى أمه .

إنه بحث نفسانى غير عادى . ففى الموقف المعقد كله وصف مختصر : لمعنى الشعور بالذنب ، فالملكة تدافع عن نفسها بصدد عمل كان ضرورة سياسية . وإنهـا ورطة كريهة فرضت عليها . وهى تؤكد براءتها وتعترف فى الجملة نفسها مع ذلك بأن الإجراء كان له ما يبرره . وهناك قلقها على ما سيفعله جيمس ، وإنه أسف صادق يمتزج بالشعور بالراحة لأن كل شىء قد انتهى ، وإنه يجمع بين الإخلاص والنفاق فى وقت معاً ... وهو يختتم بالـكفارة والتلميح بالرشوة ، بالإيحاء بالمصلحة المشتركة وهى أنه لو آزرها جيمس فستكون النتيجة خيراً له . « أية » وثيقة تلك ! « أية » امرأة هذه ! إن الإنسان ليملؤه العجب كلما قرب . وإنى لأظن مع ذلك أن كل صبى

أو صبية ، على وجه التقريب ، ليفطن إلى المراوغة النفسانية التى ينم عليها الخطاب ويتبين منه صورة الموقف .

وفى الحق أنه لايوجد موضوع يتطلب رأياً أكثر مما يتطلبه هذا الخطاب ولايوجد موضوع يظهره بالمظهر الطبيعى أكثر منه . ورأى البشر وشئونهم ودوافع العمل وأسبابه وتأثيره ، هى الأمور التى يظهرها التاريخ وليس الأمر كذلك فى حالة التاريخ الطبيعى . لأن أحكامه من الأراء الفنية . وأن تلاميذ هذه الأيام المراهقين الذى يترعرعون فى الدنيا المعاصرة ، بسخريتها الفادحة التى يضيق بها كل مكان ، وبشكوكها الرخيصة — ليدركون أيما إدراك (ولم يكن الناس كذلك فى العصر الفكتورى بصفة عامة) ليدركون مدى اتساع الفجوة بين مايدعيه الناس وبين حوافزهم الحقيقية ، كما يدركون الأوهام التى يحن إليها هؤلاء الناس ، وكما يدركون أمراً ادعى إلى الاستغراب وهو مدى تشبثهم بها بعدما يوقنون بأنها أوهام ، وكما يدركون أيضاً الخدعة المزدوجة نصف الواعية التى بها يخدع الناس أنفسهم والأخرين . ولقد كان شئ من هذا المعنى يراود عقل تلميذ من تلاميذ أقدم المدارس الإنجليزية عندما سألنى منذ وقت قريب جداً : الاتنتهى دراسة التاريخ بالمرء إلى شك كامل ؟ والجواب أنها لاتجعل المرء يستسيغ الشكوك فى الادعاءات ، وبقدر ماتتسع ويعلو صوتها يتنبه القارئ . ولقد تعود المرء كثيراً على مثل هذا الأمر فى التاريخ وطالما مر به من قبل . وإن المرء ليظل ينمى حاسة عميقة بالتنبه إلى الدجل بكل ألوانه . وإنه ليعرف أن مايتقدم به الناس على أنه خير للعالم غالباً مايكون دائماً هو الأمر الذى يحقق رغباتهم الخاصة . والمحتمل هو أن الكاتب الأخلاقى هو أسهل فريسة للدجل إذ إن الدجل ليقرب جداً من بضاعته السائرة المعتادة . أما المؤرخ فمن الصعب اصطياده على هذا النحو ، إذ إنه رأى الدجل فى أثناء عمله فى مناسبات كثيرة جداً وفى أجواء كثيرة جداً . ولكن للمؤرخ بطبيعة الحال ، له مخاطرة فهو عرضة

لأن يضيق بالحماقة الإنسانية فى صورها وأساليبها المختلفة المتعددة ولأن يقذف بالقلم وهو يقول إن الناس لا سبيل إلى التصرف إزاءهم ولا إلى عمل شىء من أجلهم وإنهم غير مستعدين للتعلم ولا محل لانقاذهم (كما يبدون فى أغلب الأوقات) وإن الرأى الصائب فى أمر شئون الناس هو «كل شىء يمر، وكل شىء يتحطم، وكل شىء يصيبه الملل أو الأعياء» : وعلى الجملة: فخطر المؤرخ هو الشك وعدم المبالاة، فإذا تملكته الحيرة أدركه اليأس.

ومع ذلك فقد يجدر بالذكر أن المؤرخين — وإن تملكهم جميعاً بعض الشك واتصف بعضهم بعدم المبالاة الأخلاقية — لم ييأس واحد منهم يأساً تاماً كما يئس بعض كبار الكتاب، حتى ولا هيوم ولا جيبون ولا فولتير أو — فى هذا الباب — ماكيافيلى . وجوابى للتلميذ النابه هو أن السجل البشرى إذا حوى كثيراً من الحماقات فإنه يحوى إلى ذلك كثيراً من العظمة . وإذا حوى قدراً من المداهنة والنفاق والأنانية فإنه يحوى قدراً أكبر من الإخلاص والصراحة وطيبة القلب . وتلك الصفات توجد فى كل مكان وبخاصة لدى أعظم الرجال وأكثرهم ألمعية . أما عن مقاومة قسوة الناس فينبغى للمرء أن يكرس، بصورة معقولة، كفايته التى لا حد لها فى سبيل التضحية. وفى وسع المرء أن يذهب إلى أبعد من هذا ويقول إجمالاً بأن التاريخ يُظهر — كما تظهر الحياة وإن جاء التاريخ بالبرهان — يظهر أنه خير للمرء أن يكون مستقيماً صادقاً من أن يكون شريراً مهما وسعه أن يمسى حاذقاً قديراً وإن أمثال هتلر ووليم رافاسيزو رتشارد الثالث — عرضة لأسوا النهايات . ومع أن الإخلاص — فى الشئون الإنسانية — يقابل أحياناً بالجحود ومع أن الاستقامة تبوء أحياناً بالإخفاق فإن الميزان الذى تقرؤه من التاريخ كأنه رسم بيانى لن تراه فى أى مكان آخر يشير إلى الطريق المقابل بشكل محقق غير قابل للشك . وإن الإنسان ليكافأ على صورةٍ ما إذا قال الحق واستمسك به وإذا تذرع بالشجاعة (فى غير تهور)

وإذا اشتغل بجد وأدى واجبة وأحب حباً صادقاً . وسؤال هذا التلميذ يجئ بنا من جديد لنُجابه النتائج العقلية الصعبة التى تكلمنا عنها فى الباب الماضى وإنه ليسعنى — وأنا على علم تام بالشكوك التى يثيرها والتأثيرات التى تنخر فى العقل الحديث — يسعنى أن أجيب فى بساطة بأن تأثير تعلم التاريخ يجعل المرء واقعياً وإن جاز أن يمسى متشائماً بعض الشىء ،ولكن لن يكون أبداً على أية حال متهكماً ساخراً . وعلى الجملة فإن التاريخ — فى لغة الأسلوب القديم — مدرسة للفضيلة .

وتنطبق تلك الأشياء بقوة أكبر على مرحلة التعليم الجامعى ، ذلك لأن الملكات الفكرية عندئذ تكون فى أوج فاعليتها وتنضج فى الشباب مقدرته الحكم السليم . فما الذى تتيحه دراسة التاريخ بالجامعة فى هذا الصدد ؟ .

وربما جاز لى أن أشير إلى تجاربى الخاصة كى أوضح وجهة النظر . ففى المدرسة كان اتجاهى التاريخى عاطفياً حماسياً متحيزاً فى حالتى الا نعطاف والنفور . وعلى سبيل المثال كانت عواطفى — فى الحرب الأهلية — مع الملك والكنيسة . ومع أن الأمور التى كنت أحبها والأمور التى كنت أكرهها بقيت على حالها فإنى أعود فأعترف أن البرلمانيين المعتدلين هم الذين كانوا أحق وأن النظام البرلمانى كان أصوب سبيل للمستقبل . وميولى العاطفية كانت تقرب من البروتستانتية (المحتجة المعارضة) وإن لم تكن تطهرية[1] بالتأكيد . ولكنى لا أشك الآن فى أن الإصلاح الدينى البروتستانتى كان من حسن طالع انجلترا . ولئن كنت أبعد ما أكون عن الأسف لذلك — مع وجود نواح تبعث الأسف ولاسيما تدمير الأديرة وتشتيت كنوزها — فإن ما فى طاقتنا من عرفان الجميل لا يكفى للاعتراف بفضل

---

1 — Puritan

أنصار هنري وإدوارد (البغيضين فى بعض الأحيان) الذين دفعونا إلى هذا الإصلاح الدينى .

وإن الكثيرين من المؤرخين لتتبلبل آراؤهم نتيجة لتحيزهم العاطفى لأنهم يضعون آرائهم تحت تصرف عواطفهم، أى أن عواطفهم هى التى تصوغ آراءهم . مثال ذلك بيلوك وتشسترتن، وهما الفتيان اللذان يدفعهما تحيزهما إلى التهور واللذان كان لهما فى زمنهما تأثير سيىء فى كتابة تاريخنا من جديد وفى تحويله إلى هراء والأمر بالنسبة لهما بالغ الوضوح . ولكن الأمر ليس أقل وضوحاً فى نظر أى امرىء يفقه قليلاً من علم النفس بالنسبة لعقلية نيومان وهى أكثر دهاء. فإذا قرأت قصته « المكسب والخسارة » التى تظهرك على دخيلة نفسه تبينت كيف كانت عاطفته كلها منحازة إلى الملك والكنيسة . على أنه لم يتح له قط أن يكبحها . فكل ماتلا من تاريخه العقلى لم يكن غير عملية ماكرة لاستنباط أسباب مقنعة تبرر ماكان قلبه قد اختار من زمن بعيد .

« للقلب دواعيه » . هذا ماقيل . غير أنه قد يقال كذلك إن الأحوال تبلغ غاية السوء إذا بقيت دواعى القلب فى ناحية ودواعى العقل فى الناحية الأخرى . ولكن هل للمرء أن يؤثر راحته على استقامة العقل وأمانته ؟ .

ماذا يقدم التاريخ للتطور العقلى بالجامعة ؟ وما هي المواهب التى يظهرها ويدعمها ؟ وما نتائجه ؟ إنه بطبيعة الحال لا يكفى لإذكاء جميع نواحى التطور العقلى للشاب بأكثر مما يكفى أى فرع تعليمي خاص آخر كاللغات أو علم من العلوم أو الفلسفة . ولئن كان فى حد ذاته لايكفى إلا لإذكاء ناحية واحدة فهو أوسع وأشمل وأكثر تنوعاً من أى موضوع آخر . وهذا ما يصلح مفتاحاً لذلك النوع من العقل الذى يستسيغه ولنوع العقل الذى يظهره إذ إن التاريخ ليس من موضوعات العقل المحكم الضيق الذى يهتم بالسفاسف ، فليعكف على المنطق أو الاقتصاد ، فهو أحوج

إلى عقل واسع شامل منه إلى عقل إفراطى تشددى . إنه يقدم المزايا التى ترتبط بقول بيكون : « القراءة تخلق الرجل الكامل » . وإنه ليستطرد قائلاً إن الكتابة تخلق الرجل المرتب المدقق المتقن . إن التاريخ ليكافىء الدقة والتزام الحقائق . ولا فائدة من الاكتفاء بانطباع عام كقولك إن موقعة ووترلو حدثت فى مكان ما فى وقت غير الذى وقت فيه . وأكبر ما ينطبع أثره فى ذهنى بصفة خاصة فى شأن زملائى المؤرخين هى دقتهم العقلية الطبيعية بالنسبة للحقائق والظروف . وقد يتوفر رجال القانون على دقة أضبط وأكبر ، على إحكام شفوى أوفى . أما عن الجمع بين الدهاء والدقة فالمرء يتيمم الفلاسفة أو المناطقة وعلماء الرياضة ، ولكنهم لا يتكلمون لغة الإنسانية المشتركة .

والتاريخ كما رأيناه هو أيضاً علم إبداء الرأى . إنه فى كل وقت يبحث فى الكائنات البشرية وشئونهم ، العامة منها والخاصة ، الاجتماعية منها والفردية . ولذلك فهو ، حتى فى المدرسة ، يكشف عن الحكم على السلوك الإنسانى ، إذ إنه امتداد بديهى لتجربتنا إياه . (فالتاريخ إذن مدرسة لتحكيم العقل) . وفى الجامعة يحدث مزيد من التطور الخاص فى الرأى والتفكير فالتاريخ يستند إلى وثائق منوعة كالمناظر الخلوية والمبانى والآثار والكتب والأوراق والأفعال والخطابات والنقوش والقصاصات والشظايا (من خزف وخشب وحجر وغير ذلك) ، وتعليم التاريخ فى الجامعة يتصل كثيراً بتفسير الوثائق . وهذا يعرف نقطة أحسن الدكتور كيتنج التعبير عنها بقوله : « فى التاريخ — بوصفه متعارضاً والعلوم الطبيعية — نجد أن الواقعة التى يسهل علينا ملاحظتها ليست هى الواقعة التاريخية وإنما هى مجرد وصفها وهى فى حالات كثيرة ، إن لم يكن فى أغلب الحالات ، واقعة لا يعتمد عليها إطلاقاً . والانتقال من الوثيقة إلى الحقيقة صعب ويشغل جزءاً كبيراً من وقت المؤرخ وعلى

عليه طبيعة منهجه . وعلى ذلك فالتاريخ به خطوة إضافية ، غير مؤكدة فى الغالب ، لا توجد بالمدى نفسه فى التاريخ الطبيعى » . ولهذا السبب يقول لنا شينيوبوس : « بما أن كل المعلومات التاريخية معلومات غير مباشرة فالتاريخ ، بصفة أساسية ، علم تعليلى تعقلى » .

وبسبب طبيعة الموضوع « العامة » وتخصصه الأساسى فى الشئون البشرية استطاع بيكون أن يقول « لئن استطاع الشعراء أن يجعلوا المرء سريع الخاطر ، والرياضيون أن يجعلوه عميق التفكير ، ولئن استطاعت الفلسفة الطبيعية أن تجعله عميقاً ، ولئن استطاع علم الأخلاق أن يجعله وقوراً رضياً ، والمنطق والبلاغة أن يجعلاه أهلاً للمناجزة .. فإن التاريخ يلهم الناس الحكمة » .

ومع أن التاريخ ينافس الفلسفة فى اختصاصها فإن دراسته لا تخلو من القيمة المعنوية . فهو ، كما رأينا ، يفتح من دخائله قضايا عقلية خاصة ، قضايا أهم عندنا من قضايا ما وراء الطبيعة التى استنفدت فيما مضى كثيراً من الوقت والجهد . ولما كنت طالباً أدرس التاريخ فى أكسفورد أخذت تسيطر على عقلى القضايا الوارد ذكرها فى الفصل الأخير ونتائج النسبية التاريخية والشكية ومبادىء الماركسية والقضايا التى تثيرها . وقد شكلت مواجهة هذه القضايا والنضال لتكوين رأى عبرها ، شكلت جزءاً كبيراً من تطور ذهنى وأعانتنى على استخلاص مذهبى بنفسى . وربما جاز لى أن أوازن بينى وبين أحد معاصرىّ فى أكسفورد وهو الكاتب الشيوعى رالف فوكس . إنه لم يكف عن إظهار ندمه لى على أنه لم يدرس التاريخ بدلاً من اللغات . وكان معنى هذا فى نظره أنه ليس لديه أساس ثقافى فى مسائل جيلنا البالغة الدقة . ولما أمضّه هذا النقص تبع خط الحزب ، الذى ذهب به إلى قبر مجهول فى إسبانيا مع آخرين من

الانجليز الطيبين الذين أمسوا ضحية لا لزوم لها فى سبيل مذهب أجنبي[١] .

ودراسة التاريخ تؤدى رأساً إلى الاهتمام بالسياسة اهتمام العارف المسئول. وهذا الكتاب يبين السبب: السياسة امتداد للتاريخ إلى عصرنا، إن التاريخ يصنع تحت أعيننا. ولهذا تجد أن طبيعة دراسة المرء تدفعه إلى زيادة الاهتمام بالشئون العامة . فإذا درس المرء تشريح الضفادع أو الأرقام فإن حافزه إلى السياسة (فيما أتصور) يمسى أقل قوة بينما دراسة التاريخ تهىء له أساساً أمتن للحكم فى الأمور السياسية . والرأى السياسى لأغلب الناس لا خير فيه ، وذلك لا فتقارهم إلى أساس كهذا . وقد جرت العادة على أن ازدياد الاهتمام بالسياسة بين طلبة الجامعات بين الحروب يسير جنباً إلى جنب مع ما يمارسونه من دراسات تاريخية . ولقد دفع الأستاذ ا. بولارد فى أول هذا القرن إلى القول بأن التاريخ الحديث كان حلم جامعة لندن، وهو يستشهد بصفة قاطعة بقلة عدد الطلبة بشكل لا يصدق . وانقضت تلك الأيام : فلقد غير — هو بالذات — رأيه فى الموضوع برمته فإن جامعة لندن تضم الآن واحدة من أكبر الكليات التاريخية فى بريطانيا . وفى أكسفورد تجد أن مدرسة التاريخ الحديث هى أكبر المدارس على الإطلاق . وهناك ، بجانب ذلك ، المؤرخون القدامى الذين يكونون جزءاً من كلية العظماء . وقد تعد مدرسة أكسفورد أهم مدارس بريطانيا ، ليس فقط بسبب كبرها ولكن أيضاً لأنها تصدر حاصلاتها لتمون أقسام التاريخ فى كثير من الجامعات بأعضاء هيئة التدريس . ولقد كانت مدرسة ما نشستر فرعاً من فروع دوحة أكسفورد ، فكبار شخصياتها — توت ، تيت ، پوويك، نامير ، جولبريث ، ا. ا. جاكوب — تخرجوا جميعاً فى أكسفورد ، وكذلك الشأن فى برمنجهام مع السير رتشارد لودج

(١) يتناقض المؤلف فى هذا الكلام مع ما سبق لأن الحرب الأهلية الأسبانية كانت طوعاً بين الفاشية والديموقراطية بصفتها فى سبيل هزيمة الفاشية وليس بالضرورة لنصرة الشيوعية فى أسبانيا — (المراجع) .

وفى إدنبره مع بازيل وليمز — و — ب.هـ. سمر ورتشارد بيرز . على أن صادرات مؤرخى أكسفورد المدربين ليست مقصورة على بريطانيا بل إن هؤلاء ليوجدون فى كل جامعات مجموعة الأمم البريطانية (الكومنولث) وكثير من جامعات الولايات المتحدة . ومدرسة كمبردج مع أنها أصغر ، لها مميزاتها الخاصة . وقد أضحت فى السنوات الأخيرة ، نسبياً ، أكثر إنتاجاً فى البحث والتأليف التاريخيين ، وأخذ الكثير من بحوث التضلع المرموقة يرد من كمبردج. وإن المؤرخين فى أكسفورد ليجنحون إلى تضحية أعمالهم الخاصة لمصلحة التعليم، وقد ساعد هذا فى انتشار آثارهم التاريخية المطردة المتزايدة .

ومن الشائق أن نلاحظ أن الكثير من أجيال السياسيين — الذين يصغرون فى السن فى مجلس العموم المنتخب فى ١٩٥٤ وفى الأغلبية العمالية — تخرجوا ، علمياً ، فى مدارس التاريخ والعظماء الحديثين ، وسياسياً فى نادى العمال الجامعى بأكسفورد . وفى خلال السنوات العشرين الأخيرة من تجاربى كان التقارب العقلى كبيراً جداً وقد بينت أن لذلك سببا . فالسياسيون، إلى ما قبل ذلك بجيلين، كانوا يأتون من مدارس العظماء — الدراسات القديمة والتاريخ القديم — مثل أسكويث وجراى ، ومثل مورلى وبرايس وكيرزون ولانج وكثيرين غير هؤلاء من أمثال السير روبرت مورانت الذين ، وإن لم يذع صيتهم إلى درجة كبيرة ، خلفوا طابعهم على تاريخنا :

ومن الجدير بالاعتبار كذلك أن الكثيرين من أجيال الكتاب المعاصرين جاءوا من مدرسة التاريخ بأكسفورد : جويدالا ، آرثر برايانت ، ميخائيل سادلير ، ألدوس هكسلى وكذلك : سيريل كونولى ، إيفلين وو ، جريهام جرين وكذلك لورد دافيد سسيل ، ك. ف. ودجوود . ومن دواعى الاعتزاز المؤسف أنّ ألمع شاعرين فى الحرب الماضية — ألان لويس وسدنى كيز — كانا مؤرّخين بينما كان

سلفاهما فى الحرب الماضية ، روبرت بروك – و – ولفرد أوين ، من علماء الدراسات القديمة واللغات .

وقد يكون من المفيد إزجاء كلمة عن نظام المدرسة التى تحتل ، على هذه الصورة، مكانة مركزية فى التعليم الجامعى . إنها مقيدة بامتحان نهائى فى برامج تقرأ وتدرس فى مدى ثلاث سنوات . وهناك ثلاثة امتحانات تشمل التاريخ الإنجليزى بأكمله مقسماً إلى ثلاثة عصور . وفى مدة دراستى كانت هناك امتحانات منفصلة فى التاريخ السياسىّ والدستورىّ والاقتصادىّ . وأحسب أن إلغاءها كان من وجوه الإصلاح التى يهتم بها هذا الكتاب ، إذ إن قراءة التاريخ السياسى منفصلاً عن الدستورى وقراءة التاريخ الدستورى منفصلاً عن الاقتصادى أقل فائدة بدرجة كبيرة . ومما ينبه ويوعز بدرجة أكبر رؤية كيف تؤثر هذه الأمور بعضها على البعض وكيف ينعكس بعضها على البعض . ومما يخصب العقل بدرجة أكبر هو إدراكها ، إذ تنضم بعضها إلى البعض،وعلى أية حال إدراكها وهى تقترب من حقائق الأشياء وكيفية حدوثها . وأكثر المسائل بعثاً للفتنة غالباً ما تكون هى المسائل المتقاربة المتماسة ، وقد أفضت فى الماضى إلى أن تهمل أما الآن فلا . وهنالك امتحان رابع فى الأسانيد الدستورية للتاريخ الإنجليزى ، إما لتاريخ العصور الوسطى وإما للتاريخ الحديث مع فقرات من كتب وشرائع موضوعية . وعلى الجملة فإن الأساس هو ، بوجه أخص ، التاريخ الإنجليزى،وهو لب الدراسة بالمدرسة . وإنها لأفق عظيم لأوسع ما هنالك من طاقة عقلية وتأمل . على أنه ليس فى وسع المرء أن يأتى عليها جميعاً بالدرجة نفسها من الاستيعاب أو أن يقرأ ما يكفى لإرضاء نفسه وناهيك بالممتحنين . والوثائق ما هى إلا اختبار للدقة والاهتمام بالتفاصيل والمقدرة على التفسير ، هذا إلى جانب الضوء الذى تلقيه على التاريخ .

وهناك غير ذلك امتحانان فى عصر يُختار من التاريخ الأجنبى لمدى يقرب من القرن . وللمرء فى الغالب أن يختار أى عصر يروقه . وأكثرما يقبل عليه الطلاب هو العصر القريب الذى يقع بين الثورة الفرنسية وبين وقتنا هذا . وهـذا غاية الصواب حسب رأى (برى) الذى يقول بأن التاريخ الحديث هو أجدر بالدراسة. على أن المرء فى الوقت نفسه لا يروقه أن يعكف الجميع على دراسة عصر واحد . ومن الخير أن تـكون الفترة المألوفة بعد ذلك هى القرن السادس عشر ، عصر النهضة والإصلاح الدينى الذى تنبثق منه أوروبا الحديثة باستثناء روسيا والبلقان . ثم إن هناك غير هذا موضوع خاص ينبغى أن يقبل عليه أولئك الذين يطمحون إلى دراسة طيبة . إنه مجال واسع من الموضوعات التاريخية تختار منها ، من سانت أوجستين إلى الحركات العمالية الحديثة . وهنا يوضع امتحانان يخصص أحدهما للوثائق والحجج الأصيلة التى تفيد الموضوع . وسبب هذا واضح وهو اختيار الدقة والاهتمام بالتفاصيل وتفسير الوثائق وحسن استخدامها .

وهناك امتحانان عامان من نوع تزيد معنويته : الأول فى النظرية السياسية المبنية على دراسة «السياسة» لأرسطو و «العملاق»[1] لهوبز، و«العقد الاجتماعى» لروسو ، بوضعها نصوصاً ، وعلى تاريخ النظرية السياسية الحديثة . والثانى يبحث المسائل العامة فى المنهج والبحث التاريخيين والثمرات الإدراكية الأربية التى ترتبط بالتاريخ ووجوه تاريخ الثقافة والفن والأدب التاريخى . وهذا امتحان استجد منذ عهد دراستى وهو يسد الحاجة التى كنت أستشعرها بوصفى مثقفاً صغيرالسن. وكانت هناك فرصة ضعيفة جداً لهذا النوع من المناقشة العامة فى الفوائد التى يثيرها الموضوع ولا سيما عند مقارنتها بالعظماء . مثال ذلك : سبب واحد لتفوق العظماء على التاريخ

---

(١) العملاق تمساح النيل والحوت وحية البحر وقد وردت هذه التسميات فى التوراة .

بالحديث بوصفه مدرسة. وسيتضح أن ضعف مدرسة التاريخ إذا قورن بالعظماء (التاريخ والفلسفة القديمين) وبالعظماء الجدد (الفلسفة والسياسة والاقتصاد)، سيظهر أن هذا الضعف فى الناحية المعنوية ومزايا الأشياء تنطوى على عيوب. وهذان الامتحانان لهما شأن فى تقويم الميزان، وهو، بالضرورة، أن التاريخ يجنح إلى الأمور الواقعية والثابتة. وهناك آخر الأمر امتحان في الترجمة من اللغات الأجنبية. والمنتظر من طالب التاريخ الحديث أن يعرف منها اثنتين: اللاتينية وإحدى اللغات الحديثة.

هذا هو طراز مدرسة مرتبة الشرف النهائية للتاريخ الحديث التى تجهز لها أكسفورد بالقراءة والتدريس. فهى تحدد منوال عمل الطالب فى برنامج السنوات الثلاث. هذا مع أن فى معيشة الجامعات السكنية التى بها قسم داخلى يفرد وقت لقدر كبير من القراءة خارج دراسة الطالب بل إن من الأهم والأفيد للغرض الحقيقى للجامعة أن يصبح الطالب رجلاً مثقفاً أكثر من أن يتلقى تعلما طيباً بالمدارس. وأنا أوصى بالأمرين معاً.

وأنا لا أستهدف هنا وصف جميع نظام الدراسة التاريخية فى أكسفورد من أساتذة ومعيدين (قارئين) ومحاضرين ومثقفين ومن مكتبات وجمعيات وأندية ومن أساليب الكتابة والبحث — فهذا يستغرق كتاباً كاملاً قائماً بذاته. ولكنى قصدت بكل بساطة إلى رسم صورة لفائدة التاريخ فى تربية الطالب الصغير السن فى جامعة وإلى شرح كيف يجرى العمل. نعم لقد تناولت بعض الشىء تفاصيل ليست فى إبانها عن شكل الدراسة التاريخة والمدرسة فى أكسفورد، غير أن هذه التفاصيل يجوز قبولها على أنها تعطى وضعاً مقبولا — مع تغييرات فى التوضيح هنا وهناك للجامعات البريطانية بصفة عامة

ثم إنى أعتذر كذلك عن كلمة نقد أسوقها من الواضح أنه فى وقت ما عندما

أصبحت الولايات المتحدة أقوى دولة فى العالم الغربى لم يجر فى بريطانيا الاهتمامُ الكافى بتاريخ أمريكا وأنظمتها واتجاهاتها السياسية . ومع ذلك فإن أكبر ما يدعو للعجب ويفوق التصور فى هذا هو أن الولايات المتحدة ـ ومعها مجموعة الأمم البريطانية ـ هما أعظم شىء أنجزته الشعوب المتكلمة بالإنجليزية .

نعم إن دراسة التاريخ الأمريكى أخذت تتزايد فى الجامعات البريطانية وأن العلماء البريطانيين أخذوا يسهمون فى الموضوع بمشاركات كبيرة الفائدة فى هذا المجال. ولكن التاريخ والأدب الأمريكيين يجب أن يدخلا ، بشكل أهم ، مجال التربية العامة ، ولاسيما فى الجامعات . ينبغى هنا بوجه أخص بما إن تلك الموضوعات أخذت تصبح جديرة بمجتمعنا من حيث المدنية والمصير وبما أن التواريخ المنفصلة لشعوبنا تجنح إلى الاندماج فى تيار واحد قوى وأننا أخذنا نصبح كما قال تشرشل فى عبارته الشهيرة « مندمجين معاً بعض الشىء » .

وعلى أية حال فإن ما يتوقعه البريطانيون فى مسائل التاريخ والأدب والتمدن تلك فعلى شىء من التحديد البالغ والضيق من الناحية القومية . أما مرونته وتعرضه للتيارات والتجارب الخارجية فغير كافيين . ونتيجةً للحربين المدمرتين صار المؤرخون البريطانيون أقل اتصالاً بالفكر والبحث العلمى فى القارة مما كانوا قبل ١٩١٤ ؛ وبريطانيا الآن أكثر اتصالاً بأمريكا واعتماداً عليها منها فى أى وقت مضى . ولكن هذا لا يلقى حتى الآن ما ينبغى له من الإفصاح ولا يحظى بالأساس المتين فى المناهج والدراسات الجامعية .

وفى الوقت نفسه أضحت الولايات المتحدة واعية منهمكة فى مالهـــا من تاريخ ورسالة وصفات وثقافة ومصير . وهذا إلى درجة بالغة مع بقائها فى الوقت نفسه أكثر إقبالاً وانعطافاً على المدنية العالمية والاتصال الخارجى من بريطانيا وأكثر

انهما كماً وانشغالاً بذلك . وكذلك فإن اهتمام أمريكا القديم بأصول تاريخها وسياستها وثقافتها فى بريطانيا — ذلك الاهتمام الذى أدى إلى كثير من الأعمال الفذة على أيدى علماء فى تلك المجالات — هذا الاهتمام تناقص تناقصاً يتناسب مع اهتمامها بنفسها وهذا ما يؤسف عليه لأن الأصول تبقى على حالها وتظل مهمة كما كانت قبلا .

ويؤيد هذا قلة الاهتمام البالغة التى توجه للعهد الاستعمارى من التاريخ الأمريكى إذا قورن بالتركيز غير المتناسب على عصرى الثورة والحرب الأهلية ، وعلى وجه أخص عصر الحرب الأهلية الذى ارتفع الاهتمام به أخيراً إلى نسبة غير مقبولة عقلا .

ومن الناحية الأخرى تُولى الجامعات الأمريكية مناهج تاريخ المدنية اهتماماً أكبر ، مما يحسن بالجامعات الإنجليزية أن تحذو حذوه .

الباب السابع

التاريخ والثقافة

فوائد ومباهج أخرى

التاريخ جزء أساسى من عقل المرء الراقي المهذب . ولقد يكون المرء راقياً مهذباً وهو لا يعرف الرياضة أو الكيمياء أو الهندسة إذ إنها من فروع التخصص . ونحن إنما ننتظر من الفنى المذكور أن يعرفها وأن يقوم بعمل حساباتنا وإنجاز احتياجاتنا الصحية . غير أن بعض المعلومات التاريخية بل حتى الإدراك التاريخى جزء ضرورى من الوعى الشخصى للوسط الذى نعيش فيه . ودرجة تهذيب المرء لا يظهرها شىء أكثر مما يظهرها التاريخ .

والمرء غير المتعلم ليس عنده إدراك تاريخى . فهو لا يعرف هل البيت الذى يراه من طراز عصر فكتوريا أو جورج أو إليزابيث أو القرون الوسطى ولا يفهم معنى هذا إذا قيل له . وهو لا يستطيع أن يميز هل البيت جميل أو غير جميل ، إذ ليست لديه مقومات الحكم ولا فكرة عن المعايير . وهذا ، كما يقول أفلاطون ، جزء من الموضوع نفسه . وفيما كنت ، منذ أيام ، أطوف المناطق الشمالية مع صديق من علماء التاريخ أخذنا ونحن نمر ببلدان غريبة نعلق على المبانى التى استرعت انتباهنا . فدهش جندى ودود — تصادف جلوسه فى الديوان الذى جلسنا فيه — من استطاعتنا، فى لمحة ، ذكر التواريخ التى فيها بنى الكثير من تلك المبانى . والحقيقة أنه فى هذا لا يوجد ما هو غريب أو صعب . وربما جاز لامرئ أن يتخيل أننا أجرينا حساب التكامل والتفاضل التعاونى . والحال أن من السهل على أى امرئ أن يتبين مدار طرز بناء العصور المختلفة فى غير عناء . وفى وسعك أن تدرك ما يستفيده المرء من معرفة شىء جديد عن الريف . وإن أغلب الناس ليطوفون الريف مغمضى العيون على أن جهلهم وعدم وعيهم هما السبب فى خراب الريف المطرد ودمار البلدان القديمة — وقد كان لديهم أجمل طول هندسة البناء ، فى المدن ، فى العالم — وظهرت بشاعة كثير من المبانى الحديثة .

وإنى لأذكر جيداً ، منذ الأيام الباكرة ، ركوب المركبات عبر الخلاء مع غير المتعلمين . وإن شيئاً ما لا يعذب تعذيباً شديداً مثلما يفعل هذا الأمر . فهم لا يميزون الفرق بين هذا وذاك ، بين هذا الشيء الجميل — الذى لم يرقهم فى واقع الأمر — وبين شيء آخر مفزع . فلقد ظن أولئك الناس أن المكان تحسن تحسناً مستحباً بينما قد شوهه تشويهاً كاملاً صف من البيوت الأرضية الحاوية الصغيرة (بنجالو) على شواطىء كورنوول الصخرية . والناس ، أغلبيتهم الهائلة تنتمى إلى هذا الفريق . غير أن هذا لا يعنى أنه ليست هناك معايير أو أن هذه المعايير عرضة لظل من الشك فالمعايير يعرفها جيداً أولئك الذين يفقهون ، أما أولئك الذين لا يفقهون فلا يعرفونها فالمعايير يرسيها أولئك الذين يفقهون ، وهكذا كانت الحال دائماً . فالمعايير تقوم على أساس من التاريخ وتنبع من تقاليد مديدة الأجل وإن يكن اختبار قيمتها يقوم على أساس فى الجمال .

ولكن ماذا أستهدف من سوق هــذا القول ؟ وأى غرض طيب قد يحققه ؟ « مساعدة أكبر مجموعة من الناس قدر المستطاع لكى يشاركوا فى الحياة العقلية للناس المهذبين المتمدينين » . وشرود الدنيــا لا يرجع إلى أن الناس مطبوعون على الشر أو أن إثماً غريب الأطوار لطخهم تلطيخاً لا سبيل إلى البرء منه ولكنه يرجع إلى أنهم يعوزهم التهذيب والذكاء والتفكير والتمييز . وسأكون على غاية من الجفاء إذ أفصح عن الرأى الصريح للمتعلمين فى غير المتعلمين علماً بأن أحداً لا يجسر أبداً على فعل ذلك ، وهناك مؤامرة على ألا يفعل أحد ذلك . هذا وإن سمعنا ، أكثر مما يكفينا ، فى الأدب الحديث برأى غير المتعلمين فى المتعلمين . والخسارة هى إلى جانب عدم المتعلمين ، وهــذا ليس من العدل فى الواقع . وأنا أقترح أن أعكس الأمور وأخبرهم به . وليس فى مجتمع غير المتعلمين ما يعض المتعلمين أكثر من تقييد أحاديثهم وتحديد دنيا تفكيرهم . فأفقهم محصور فى الحى الأبرشى وفى

الريف وفى البلدان وفى قطاع دور السينما وفى التليفزيون . أما تفكيرهم فيما يجرى فتفكير غير ناضج وغير معقول . وهؤلاء ليست لديهم القدرة على الحكم على الأحداث أو تقدير قيمتها ، وبذلك يصيرون فريسة لها . وليس هناك ما يمكن التحدث إليهم فيه . . . ربما غير المسائل الجنسية . (وأنا أعلم ذلك إذ حاولت القيام بالاختبار الصعب وفى الاستمرار فى العيش متصلاً ببيئة اجتماعية غريبة الأطوار ذات مستوى ذهنى أقل من المستوى الذى يثير اهتمامى . وأغلب الناس عندما يكبرون خارج بيئة من ذلك النوع ينأون عنها نهائياً ، وهناك مزايا يمكن اكتسابها من وجهة نظر الملاحظة الاجتماعية لمقاومة القلق والبلبلة الحادين اللذين ينبعثان من الطبيعة الجمالية) .

ونحن لا نجنى أية ثمرة طيبة من أن نكون انهزاميين . والكثيرون جداً من الناس الأذكياء يحجمون ويتواكلون أكثر مما ينبغى لهم ويتخلون عن الأمور للماديين والمتخلفين . وثمة شىء لا محل له ولا يتفق والإنصاف : فربما كان أكبر قدر مما يجافى الأنصاف ينصبّ على المستكينين الذين لا يستطيعون أبداً أن يدركوا ذلك الذى يجعل الآخرين يهتمون وينشطون بدرجة كبيرة ويعفيهم من أن يصبحوا فريسة الضيق والملل .

والحق الواضح هو أن من الفائدة التى لا تنفد إخلاد المرء إلى الحياة العقلية النشيطة . وأهم فائدة لهذا التصرف أن تقل كثيراً فرص تعرضه للظروف الخارجية على أنه لا آخر للرحلات والاستكشافات التى يسعه أن يقوم بها . وقد تعذر على الكثيرين من الناس فى أثناء الحرب أن يسافروا فى خلال المكان ولكن كان يصح أن ينبهجوا بدرجة أكبر لو أنهم استطاعوا السفر من خلال الزمان ، ومن خلال المكان أيضاً . وهذا كبير القيمة فى الإقبال المتزايد الملحوظ على قراءة

التاريخ فى أثناء الحرب وفى لياليها المظلمة الطويلة . وقد أخبرنى رجل أعمال من معارفى بأنه ، فى أثناء الحرب ، أقبل — أول مرة — على القراءة وبخاصة فى التاريخ ، وبالفرق المدهش الذى وجده فى الاستمتاع بالحياة : قال إنه تفتحت أمامه آفاق جديدة من الفائدة التى لا تحد كما اتسع أمامه الأفق الذى ينظر منه إلى ما يجرى حولنا وقال إنه حدث له تأثير أقرب إلى التغيير .

وإنى لأذكر من تجاربى فى كورنوول الفائدة المحسوسة التى يجنيها غير المتعلمين من المحاضرات والرحلات والقراءات فى جمعيات كورنول القديمة . إنهم فى الواقع يقفون منها على مبادئ التعلم ويتعودون على أن « يروا » الأشياء : الأماكن والمبانى القديمة ، الكنائس والحوائط المقدسة ، المعاقل والمعسكرات ، الحلقات الحجرية والصلبان ، شواهد العصر الخالى وما تبقى منه . إنهم يبدأون فى أن يلمسوا مما كانت تتركب حياة المجتمعات التى يكونون هم جزءاً منها ، وفى أن يطوروا فى أذهانهم معنى تتابعها ، وفى أن يزدهوا بتراثهم . ومن ذا الذى يستطيع أن ينكر أن هذا خير مهما اعتوره من النقص وعدم النضج . أليس هذا خيراً من الفراغ المفزع الذى لا طعم له ولا معنى والذى يتصف بالفظاظة والتخبط على غير هدى ، بدرجة لا حد لها ، والوقوف على نوع المعلومات عن تلك المجتمعات من التليفزيون أو الأفلام الجونية كما يقفون على معايير تصرفات تلك المجتمعات من المقاهى ونواصى الشوارع ومن مجموعة غير المتعلمين ؟ والأغلبية العظمى من الناس لا ترى شيئاً ولا تسمع شيئاً ولا تعرف شيئاً . ومما لا يكاد يبعث الدهشة ، بناء على هذا ، أن أغلبية الناس تلك لا تفهم شيئاً ولا تقدر شيئاً ، أو قل إنها تفهم وتقدر ولكن بمقدار ضئيل جداً .

ومن الخير الجزيل أن تفكر ما كان يشير به عقلك عندما كنت صغير السن

نشيطاً وكان فى وسعك أن تجرى وأن تركب وأن تسبح وأن تحب ، فأنا ممن يجيزون الاستمتاع إلى أقصى حد وهـذا جزء من إنجيلى . ولـكن مقتضيات العقل والروح يجب أن يستمتع بها كذلك. ولا داعى لأن نصد مقتضيات إحدى الناحيتين أو نقف فى طريقها ، فمن الشر أن نـكبت حياة الجسد ومن الشر بالدرجة نفسها أن نـكبت حياة العقل . وفى الانطواء من الخطأ قدر يماثل ما فى هدم اللذات .

وينبغى للمرء أن يقيم ميزاناً متوازناً الـكفتين حتى يتسنى لأحد الأمرين أن ينعش الآخر ويبعث فيه البهجة .

ويترتب على هذا أنك فى شبابك وصحتك وقوتك محتاج لأن تولى مقتضيات العقل بعض الاهتمام حتى ولو لم تـكن بطبيعتك تجنح إليها ، لأنك — عندما تكبر وتخونك قواك — تصبح فى حاجة إلى شىء تستند إليه . وفى الواقع أن اهتمام المرء بمقتضيات العقل — إذا تأصل يوماً أو أطلق بعمق — ليمسى أكثر نضجاً كلما كبر صاحبه . وكذلك الحال مع التاريخ . فتقديرنا له وفهمنا إياه وشعورنا بمراوغاته واستثاراته كل هـذا ينمو لدينا كلما كبرنا . وبقدر ما تقلّ قدرتنا على صعود الجبال يزيد استعدادنا لمعرفة دور المسيحية فى تطوير مدينتنا وفى إدراك ما نحن مدينون لها به وما صنعته من أجلنا فى تمدين الشعوب البربرية ، كما يزيد استعدادنا لتقدير قيمة المعجزة الفريدة التى كانتها بلاد اليونان ولشهود إيطاليا وفرنسا اللتين استفدنا منهما الـكثير فى بصيرة وفطنة ، وكذلك يزيد استعدادنا لشحذ اهتمامنا ومحبتنا فى مراقبة تـكشف صورة الحياة .

وهنـاك ، لدى الرجل غير المثقف ، شىء من خلق الأطفال . فالافتقار إلى حاسة قياس الزمن كالافتقار إلى أذُن أو إلى الحاسة الجمالية ، وإن هذا ليشابه التجرد من إحدى المميزات أو الـكفايات . وهذا يذكرنى بطفلة سمعتها منذ أيام

وهى واقفة أمام صندوق زجاجى ، بمتحف فكتوريا وألبرت ، يعرض فيه عصر إليزابيث ، سمعتها تسأل « هل كنت عندئذ قد ولدت يا أمى ؟ » . ولكنها كانت حول السابعة أو الثامنة من عمرها . وإنك لتجد حاسة قياس الزمن عند أغلب غير المتعلمين بسيطة كحاسة الأطفال كذلك . هؤلاء ليسوا كباراً .

بل إن المتعلمين أنفسهم ليفقدون الكثير من حذقهم فى فهم أشياء بسبب عدم النظر إليها من الزاوية التاريخية . وإن دهشتى لا تنقطع أبداً إزاء الحكم الذى يصدره الناس بدون ترو على الأمم والشعوب — كالشعب الانجليزى مثلاً — على أساس مظهرها الحاضر . إنك لا تستطيع أن تعرف حقيقة شعب حتى تعيش معه وقتاً طويلاً . وذلك يشبه توقعك معرفة امرىء من نظرة تستغرق لحظة واحـــدة تنظرها إليه . والحكم على الأمم أكثر تعقيداً من حالة كهذى .

ولا عجب إذا كان الناس فى الخارج قد دهشوا من مقاومة بريطانيا فى ١٩٤٠ . ولو أنهم قرأوا تاريخنا قبل ذاك لوفروا دهشتهم . فالمقاومة تغلغلت فى كل تاريخنا وفى كل تقاليدنا ، فلقد درجنا دواماً على أن نقاوم كوارث مماثلة وننجو منها . فانظر إلى الولايات المتحدة وإلى اعتقاد ألمانيا الغبى بأن الأمريكيين — إذ كانوا غيورين على السلم — ليسوا محاربين أشداء . وإن أى امرىء يفقه شيئاً من التاريخ الأمريكى ليعرف أن الحرب الأهلية كانت واحدة من أشد وأعنف الحروب التى رواها التاريخ . انظر إلى المقاومة الطويلة غير المساطة التى قاوموها فى حرب الاستقلال . حقيقةً لقد تعلمنا من هذا ، وإن أحداً فى بريطانيا لم يخطىء الحكم على أمريكا فى كل من الحربين العالميتين .

على أن الناس الذين لا يعرفون تاريخهم عرضة لأن يخدعوا ولست أدرى هل

أسمى عدم التعرض للخديعة فائدة أم مسرة؟ إذ فيها عنصر من كليهما. وعلى كل حال ففى وسعنا الآن يقيناً أن ندرك أن الطغاة — هتلر وموسولينى وسادة الحرب اليابانيين — كانوا حقاً غاية فى الجهل، ولا شىء أخطر على المرء من أن يكون جاهــــلا .

ويُوقفنا المسيو مايّـو فى كتاب مفيد « صفات الإنجليز » على رأى أهل القارة فى الإنجليز إذ يقول : « تصف الصورة التى تفتتن بها دنيا المتعلمين تعلماً كافيا من أهل القارة، تصف الإنجليز بأنهم رياضيون، عمليون، مقتصدون فى الكلام، مكبون على أعمالهم، محافظون، منظمون، وأنهم إما شديدو التزمت أو غريبو الأطوار بشكل شاذ ودائمو الاكتئاب وتلك صورة أساسها قراءة مفردة من العصر الفكتورى، وهى — حتى على هذا الأساس — غير كافية . فإن أحداً لا يستطيع أن يزعم أن الإنجليزى الفكتورى « مقتصد فى الكلام » فى عصر دكنز وكارليل وجلادستون وسبيرجين والجنرال بوث، وهم الخطباء الذين لا ينازعهم أحد الخطابةَ على المنصة أو على المنبر. وكذلك لم يكن الإنجليزى السابق فى عصر إليزابث أو فى القرن الثامن عشر «مقتصراً فى الكلام» أو « شديد التزمت » أو« منظماً » أو « دائم الاكتئاب » . فلقد لازمت الحياةَ الاجتماعية ملازمة مطردة حينذاك خـلّةُ البشاشة والمرح، وزعم أهل القارة فى القرون الباكرة أننا أبعد الشعوب عن النظام[1] . ولقد كان خطأ من جانب الطغاة أن يزعموا أن روح الهدنة قد انصب على اضمحلال الشعب الانجليزى . فلقد رسخت فى قرارة نفسه الصفات الموروثة التى طال امتحانها فى صبر وقوة . وقد ظلت كامنة تحت السطح ـ وإن تعرضت للكبح والقيد ـ تلك الروح التى أبت أن تخضع لكثير من الطغاة وأن تردهم على أعقابهم

(١) راجع كتابى «الروح الإنجليزية صفحتى ٢٣ ، ٢٤ .

خاسرين . ومن هذا النوع من الخطأ التقليلُ من قيمة صلابة الأمريكيين وصفاتهم الحربية إذ تغلب فيهم الصفات المدنية .

ومن الأهمية بمكان لشعب ما أن تكون له تقاليد من تاريخه منطقية أصيلة ، تقاليد تجعل الماضى ذا معنى وتجعل الحوادث وفحواها واضحة بيّنة. فالتقاليد عامل ضرورى فى قوة الشعب وتماسكه وعنصر أساسى فى نجاحه وفاعليته . والتقاليد الزائفة فى النهاية مصدر مخيف للضعف والفوضى الفكرية . هذا وإن بشرت، فى المدى القصير، بأن تهىء للناس التآماً أعظم بأن تطهرهم على أمجاد الماضى وتصبح بذلك دافعاً للنشاط فى العمل . وفى وسع الأمم أن تحصل على دافع منشط عظيم ، فى خلال الكوارث ، بقراءة ماضيها . والذى حدث أنه لم يتوفر لا لهتلر ولا لموسولينى أى إدراك تاريخى حقيقى وإن افتتن كل منهما فتنةً أنانية رخيصة بقراءة التاريخ الشجوى (المحزن) فلقد كان حلم إيطاليا الحديثة ، بأن تصبح دولة إمبراطورية وبأن يصبح البحر الأبيض « بحرنا » ، كان حقاً حلماً كلف إيطاليا آلاف الأرواح ولم يؤ بغير التحطيم والفقر والمذلة .

بل إن تأثير القراءة المزيفة للتاريخ على الألمان كان أشد فجيعة لأن الألمان يميلون كل الميل إلى الاعتقاد فيما يتمنونه هم وأنهم حتى الآن بعد كابوس التجربة الذى جلبوه على أنفسهم وعلى العالم — عن طريق متابعة الحلم بحكم العالم ذلك الكابوس الذى يكون الخاتمة الطبيعية للتاريخ الألمانى — إنهم حتى الآن لم يحفظوا الدرس الأساسى . ويقول كارل بارث « إن المناقشة الحقيقية لا تبدأ فى الواقع إذا اقتصر حديث المرء إلى الألمان عن هتلر ولكن نحل النقطة البالغة منتهى الدقة عندما تصل المناقشة إلى بسمارك . وعندما يسقط الطلاء النازى فى التراب يتجلى فى أغلبية الألمان — حتى أولئك الذين كانوا منهم يعارضون معارضة نشيطة — يتجلى البناء القرميدى المتماسك للوطنية الألمانية . فهم يعدون النازية حدثا يؤسف له ولكن كل ما قبلها يجل عن

النقد ، ذلك لأنهم لا يفهمون أن النازية ما هى إلا الثمرة النهائية لسياسة بسمارك التى صهرت ألمانيا بالدم والحديد فى ربخ اشتراكية وطنية رأسمالية إمبراطورية، وأيضاً بحفرة قبور الحرية الحيوية فى ١٨٤٨ » .

وإن شيئاً لن يكون خيراً لهم من فهم الأهمية الحقيقية لحياة بسمارك العملية (أو قل لحياة لوثر) : كيف صمم بسمارك على الابتعاد عن التحرر والحكومة الدستورية وعن أى نوع من أنواع الديمقراطية، وكيف عوّق وأوهن فى النهاية الحكومة المسئولة أمام الشعب الألمانى، وكيف وحد ألمانيا بالقوة وركز على القوة الحربية ، وحول السياسة الأوروبية إلى مقتضيات هذا البرنامج ، وكيف ولد فى النهاية جواباً على التحدى الذى فحواه أن القوة أمان لسائر الناس ، وبسمارك بالذات هو الذى وضع أقدام ألمانيا — أكثر مما وضعها غيره — على طريق الخطأ . ومع ذلك فالألمان ، فى الأغلب ، ليست لديهم فكرة عن ذلك كله .

أما الإنجليز فقد صحت نيتهم على التعلم من أخطائهم الماضية . لقد تعلموا أن أية حكومة لن تفضل حكم الشعب للشعب . وقد أخطأوا فى حق إيرلندة فيما مضى وإن لم يكن الخطأ كله من جانبهم وحدهم وإن لم تكن جميع الأخطاء مما يمكن اجتنابه ، إذ إن بعضها كامن فى طبائع الأشياء . ولكنهم تعلموا فى زماننا هذا أن يتركوا ايرلندة وحدها لتظفر بخلاصها على طريقتها الخاصة ، وطبق هذا القاموس الأدبى بعد ذلك فى الهند . فلقد جرت فى القرن التاسع عشر محاولة واعية فى السياسة الإمبراطورية لتنكّب الأخطاء التى ارتكبت حيال المستعمرات الأمريكية. ومن هنا تحقق إجمالاً النجاح غير المتوقع فى السياسة العامة مع كندا كما تحقق رد الجميل الكريم الذى أسداه الكنديون فى هذا القرن عندما هددت بريطانيا .

على أننا ، قبل كل شيء ، تعلمنا من تمزق الحكومة والمجتمع فى الحرب الأهلية

فى القرن السابع عشر ، أو قل ، إن الطبقة الحاكمة عندنا هى التى تعلمت ثم أسلمت ما تعلمته ليصبح تقاليدنا السياسية التى يشارك الجميع فيها. وبعد أن خمدت نيران التعصب وبعد أن اقتنع الناس من التجارب المحزنة بسخافة ذلك التعصب. (على حد الإجمال الشهير الذى قاله صمويل بتلرفى هوديبراس « عندما سقط الناس صرعى لسبب لايعلمونه . . ») بعد هذا قاد الحكماء الناس صوب التسامح والتعقل والاعتدال. وكانمن أهم الشواهد لهذه الروح أن أسستالجمعية الملكيةوقت استعادة الملكية فى ١٦٦٠ . ومن النتائج البعيدة التى عادت على المجتمع بالنفع قيام ثورة الحزب الحر فى ١٦٨٨ دون إراقة دماء ، وهذا نصر للاعتدال. فلقد شكّل وثبّت هذا الاعتدالُ الأنظمة الإنجليزية والحريات البرلمانية والمدنية وساعد على التسامح الدينى مع إبقائه على حق الملكية فى المبادأة الذى يفيد فى الحكم وفيما تبقى من سلطات. ونجم عن هذا أن الطريق أصبحت واضحة،وأن العمليةأضحتأكثر بالنسبة لتطورات دستورية أبعد مدى .

وعلى حد قول ج.م. تريفليان فى إجماله المدهش لهذا الموضوع الذى أورده فى كتابه « ثورة ١٦٨٨ » إن الرجال الذين صنعوها يحتمل ألاّ يكونوا جد طيبين أو ذوى روح نبيلة ولكنهم كانوا جد مهرة كما كانوا حكماء وحسنى الإدراك . فإن النظام الذى أرسوه عندئذ بقى ووضع أساساً مرضياً استمرت بريطانيا تعتمد عليه فى إنجاز مآثرها التجارية والبحرية والاستعمارية فى القرن الثامن عشر وفى بناء الإمبراطورية البريطانية الأولى .

وعند ما هزمت وتحللت أمام الثورة الأمريكية عاد قواد تلك الثورة يستلهمون تقاليد ١٦٨٨ وابتغوا خطة محافظة معتدلة فى خلق الأنظمة وصياغة الشخصية السياسية للولايات المتحده الجديدة .

ويقول لنا الأستاذ بترفيلد فى كتابه « الرجل الإنجليزى وتاريخه » إن تفسير

الحزب الحر لماضينا كان عنصراً تشكيلياً فى العملية إذ « تضامن القانون العام وتفسير الحزب الحر فى توثيق الروابط التى تشد الرجل الإنجليزى إلى ماضيه . وقد ساعد هذان فى كفالة حبنا لماضينا وتعلقنا بالتقاليد ورغبتنا فى التدرج عند التغير واستمسا كنا بالحريات العتيقة » . ولقد رأينافىزماننا هذا الرأى الحر مع ماتضمنه من توكيد للحرية الفردية وللاعتدال والتعقل ، رأينا هذا الرأى يمتص ما جاز أن يكون بديلا محافظاً وهى حكاية التوسع البريطانى البطولية عبر البحار . ويقول : « ربما جاز علينا لم نفطن إلى المدى الذى بلغته الإمبراطورية البريطانية حتى صارت منظمة تعمل من أجل الحرية، لم نفطن إلا عند صدمة ١٩٤٠. وما أكبر القوة التى تكمن فى التقاليد الإنجليزية والتى تبتلع الملكية والرأى المحافظ والمذهب الإمبراطورى تلك القوة التى تبقى مع ذلك على كيان كل منها وعلى كل جزء من الوحدة المركبة التى هى أشمل اتساعاً » . وأود أن أضيف فقط أن أفخم جزء فى الحكاية البطولية ، حكاية توسع قبضتنا ، خاص بأمريكا . فالولايات المتحدة لم تخرج على تقاليدنا . إنها أعظم المناضلات التى أنجزتها تلك التقاليد . . . . والحزب الحر بوجه أخص .

ويستطرد الأستاذ بترفيلد محللاً لب هذا الإدراك السياسى قائلاً إن أحد العناصر الملحوظة هو « الشعور بأن الدنيا تتغير بصرف النظر عن أى إجراء يمكن اتخاذه فى بعض الارتباطات الحاضرة ، وإن التاريخ يتقدم إلى أمام على حسابها هى ، وأننا شخصياً يجب أن نقدر هـــذه العملية وتخمنها ونستخدمها ، وإننا يجب أن نتصور أننا متضامنون مع التاريخ وأن نتعلم من الحوادث بعض الشىء وألا نــكسل ونسترخى بل نتربص الفرص » . وهو يخلص إلى أن « من بين كل الجرائم السياسية نجد أن السعى إلى التحليل فى وجه التاريخ هو الجريمة التى باءت بأعنف قصاص فى الدنيا الحديثة » . ويقول موازناً بين ذلك وبين « الإيمان المادىء

بمجرى التاريخ » الذى يكمن فى قرارة التقاليد البريطانية مع المجرى الثورى لبعض بلاد القارة : « ليس جلياً أن بلاد القارة التى قامت فيها ثورات أعقبتها ثورات مضادة تحسنت بمعدل التحسن الإنجليزى مع كل الخراب وإراقة الدماء اللذين حلا بها لا لشىء غير توخى السرعة » .

وفى فرنسا خلقت الثورة سداً ، ومع ذلك فالفرنسى لايذهب مذهباً وسطاً بل يذهب إلى طرف من الطرفين ، وقد عوقت فكرةَ الفرنسيين الموحدة فيما يخص الماضى وجعلت تاريخ فرنسا بصفة عامة خالياً من التناقض واضحاً ينصف طرفى هذا السد[1] . والتاريخ الفرنسى فى الواقع مكتوب بتعابير مشايعة كبيرة إما على يد النظارات الملكية ذوات العين الواحدة وإما على يد النظارات الأنفية الجمهورية. والعقول المتنبهة هى التى تفلت من تلك القيود . ومن أمثلة قِصر النظر الملكية التى يدفع بها إلى أبعاد تدعو إلى السخرية يمكننا ذكر كتاب التاريخ المدرسى الذى تربى بمقتضاه كونت شامبور الصغير وريث العرش الشرعى ذلك الكتاب الذى وصف العصر الإبداعي البطولى الذى وقع بين سنتى ١٧٨٩ و ١٨١٥ بقوله : « فى خلال تلك السنوات كانت البلاد فريسة للتمزق الداخلي » . فلا عجب إذن إذا كان الصبي قد نشأ فى الغباء السياسى الذى أضاع فرصة اعتلائه العرش فى السنوات القليلة التى تلت ١٨٧٠ . ونحن بهذا نصل إلى الحد الفاصل بين المصلحة العامة والمسرة الفردية .فلننتقل إلى حديث طلى .

بما أن التاريخ هو امتداد لتجربتنا وتفحُّص له فإنه يكوّن ما قد يسمى بالذات « دائرة للحديث الطلى ذى القيمة الذاتية . وإذا اتخذته موضوعاً للحديث ووازنت بينه وبين الجو أو الجسر (الكوبرى) أو الكلاب وجدت

---

(١) والاستثناء الذى ينصف الطرفين فى هذا المقام ويجمل التاريخ الفرنسى بصفة عامة واضحاً ، هو كتاب لوسيان رومييه « تاريخ فرنسا » .

أنه أكثر تنوعاً وفائدة وأوسع أفقاً للجدل. وهو يتيح كذلك كل الاحتمالات الممكنة لأهم موضوعات الحديث بين الإنجليز . . . ألا وهو السياسة .

ومن مباهج الحياة الباقية التى تبعث الرضى — إذا كان المرء يقظاً رصيناً — التمتع بحديث الأصحاب المتضلعين فى التاريخ . فقد يكون أحدهم متخصصاً فى تاريخ القرون الوسطى أو حجة فى تاريخ القرن الخامس عشر وهو الفترة التاريخية التى تسبق مباشرة فترة مجال اهتمامي الخاص . ومن عاداتنا التجوال فى مقاطعة أكسفورد لمشاهدة القرى والبيوت والكنائس (مع ما تحوى من قبور ونصب تذكارية) والمزارع والمراعى والفلوات ، وإن الخلاء ليَحيي فى نظرنا إذ نتحدث وقد عمر مرة أخرى بالناس الذين قضوا حياتهم فى تلك الأماكن وتركوا صورة هنا منذ قرون خلت . وكثيراً ما يخيل إلينا أنهم يعودون إلى الكنائس فى ستانتون هاركورت أو مِنستر لوفيل أو سوينبرك أو أستال أو بيرفورد وفى بيبورى أو ألينجتون أو ونسون أو كولن رود جرز وفى كمبتون بوشان أو آشبورى أو أفنجتون وفى كريكليد أو لشليد أو آمبنى كروسيز أو فيرفورد وفى وولنجفورد أو بنزنجتون أو إيولم حيث ترقد حفيدة تشوسر ، الدوقة ، فى أبهة وجلال .

ونحن إذ نمشى ، نتكلم ، وليس تعوزنا موضوعات الحديث ، كما أننا لا نتعرض للضيق والملل اللذين يعذبان غير المثقفين (على حد قول العميد إنج « المثقف حقاً لا يمل أبداً ») . ثم إن مؤرخاً آخر صديقاً ممن أماشيهم يلم بتاريخ القرن السابع عشر. وأى تصرف طبيعى من ناحيتى أكثر من أن أستفهم منه عن بعض شخصيات القرن السادس عشر التى أعرف بعض المعلومات عنها وعن ماجرى لها ولأسرها ؟ ومن أصدقائى الآخرين من يمدنى بمعلومات عن القرن الثامن عشر أو من لا يضيقون باستفهامي منهم ، وذلك فى أثناء الحديث عن ثمرات السياسة . وقد تأثرنا بذلك على صور مختلفة منذ ذلك الوقت ، ثم إن هناك النزهات والأحاديث

البهجة ، وفى خلال وقت الغداء ، مع زملائى المؤرخين فى مكتبة هنتجتون بكاليفورنيا تلك النزهات والأحاديث التى استفدت منها كثيراً ولا سيما فى ميدان التاريخ الأمريكى . ومباهج الحديث هذى أفيد من مباهج الثرثرة والهذر ، ففيها شاعرية ، وهناك خاف كل هذا ، الجانب المستتر من الحياة واستمرارها وشجنها وانفعالاتها كل هذا لا يكاد يظفر بالتعبير وإن بقى هناك الوقت كله بقاء روائح وأصوات الخلاء الذى نعبره وموسيقى الجدول الجاري إلى جانب الطريق (كما قد تكون الحال فى إيرمونت أو فال أو وندرش) أو دوام ضوضاء الريح الثائرة بين الشجر التى تحكى صوت البحر ، أو الضوء والظل المبرقشين عسان نبات الأجراس الأزرق الذى يغطى شاطىء الجرمنسدايك . هنالك كل النداء الخفى إلى الخيال الذى لا نكاد نتحدث عنه والذى نتبادل فهمه مع ذلك . ولقد كتب إلى طالب من مكان قصى فى أثناء الحرب يقول : « أعترف فى غبطة وازدهاء بأننى وإياك نتقاسم ، تماماً ، مسرات تذوق الموسيقى والأدب والاعتراف كذلك بقيمة خلائنا وهندستنا المعمارية وفننا ، ولكنى لا أعرف هل تعلم أن عنب التاريخ حامض بالنسبة لى ، التاريخ الذى ترتكز دراسته على أعوام من المجهود الذهنى المركز الذى يفوق طاقتى ، هذا بينما تقدم هذه الدراسة إليك أنت مباهج أكثر ثباتاً ومسرات أكثر رسوخاً » . وإن أى امرىء يشرع بروح مستكينة على هذا النحو ليضعف نفسه منذ البداية . وقد أخفق هذا الطالب فى تلك الواقعة فى أن يغتنم الكثير من فرصه . وإن من ضعف النفسية أن يبدأ المرء بروح انهزامية ، والمرء لا يعرف مدى استطاعته حتى يحاول .

وهناك — على مستوى أقرب إلى المألوف — كثير من المسائل التى تستحق البحث : نماذج الدوافع الخلابة وتعقيدات الشخصية والقصص المدهشة التى نكتبه حياة بعض الناس والاهتمام المتفحص الرائع باقتفاء أثرها ومعرفة أين عاشت تلك الأطياف .

وقد يعرف قدر كبير من التاريخ ، بأسلوب بالغ اليسر ، من قراءة السيرَ . وكلنا يعرف ما زعمه كارليل : « الحياة الاجتماعية هى مُجماع حياة كل الأفراد الذين كونوا المجتمع ، والتاريخ هو فحوى سيرَ لا حصر لها » . ونعود إلى حياة العظماء : « فى رأيى أن تاريخ العالم ، تاريخ ما أنجزه الإنسان فى هذه الدنيا ، ما هو — آخر الأمر — غير تاريخ العظماء ألذين عملوا على ظهرها . كان أولئك العظماء قادة الناس ، كانوا صناع القوالب وكانوا هم النماذج وكانوا — بمعنى أوسع — الخلاقين لـكل ما حاولته أو ظفرت به جموع جماهير الناس ، وإن كل ما نراه من أشياء ناجزة ماثلة فى العالم ليس فى واقع الأمر غير النتيجة الملموسة الظاهرة والتحقق والتجسد العمليين للأفـكار التى ثوت فى قرارة العظماء الذين أرسلوا إلى العالم » . ونحن ، من دون أن نذهب مع كارليل فى هذا إلى آخر الطريق ، يسعنا أن نتفق وإياه فى اقتراحه المحدود نوعاً الذى يخلص إليه . « من السلوى أن العظماء ، فى أية صورة ، رفقاء نافعون . ومهما يكن النقص الذى يعتورهم فإن النظر إليهم كسب كبير » .

وهذا يكفى غرضَنا . وينبنى عليه أن قراءة السير مفيدة فى ذاتها . فالسير الصائبة البديعة تنقلك مباشرة إلى الجو والحالة الفـكرية وتصور لك الخفق الصائب للعصر الذى تصفه . وإن كثيراً من العلماء ليتفقون على أن كتاب بلوتارك «سير» يعرف أحسن تعريف بلاد اليونان القديمة وروما القديمة . أو فانظر إلى أكبر السير الإنجليزية « حياة جونسن » لبوزويل . إنه صورة « عجيبة لعصر ومجتمع ، ذلك المجتمع العظيم الذى كان الدكتور جونسون مركزه والشخصية المسيطرة عليه بلا منازع . إنك لتسمعهم يتكلمون وتسمع عرضاً رأى كل منهم فى الآخر . وإنك لتستطيع فى قدر أكبر من المهارة ، أن تستشعر جو تلك الفترة ومعاييرها وقيمتها وعرفها وميولها . وهناك ثمة شخصيات أكثر تنوعاً وأكثر إقناعاً من أية قصة . وهناك

الناس ذوو الشهرة التى تعلو علواً كبيراً. هناك السير جوشيوا الرصين، وجولاسميث الحى السريع الإثارة الذى كان هدفاً ثابتاً لملَح الدكتور ، ودافيد جاريك الذى لا سبيل إلى مقاومته ، ذلك المختال (كما ينبغى لكل ممثل أن يكون) الذى كانت علاقاته مع جونسون صعبة جداً ولو أنها ودية . ذلك أن جاريك ، الذى يصغر سناً ، ظفر مبكراً بالنجاح الذى لم يظفر به جونسون إلا متأخراً جداً وبعد امتناع طويل . وهناك جيبون المغرور المتكلف الذى كان دقيق الأخلاق والذى كان يخالط الناس فلا يقول شيئاً ويأخذ كل شىء . وهناك أيضاً الدكتور نفسه كيف يصفه المرء ؟ مستحيل . لا حيلة للمرء إلا أن يذهب إلى بوزويل .

ثم ما أعظم صورة العصر الفكتوري التى نجدها فى شخصية رئيسية ، شخصية مركزية فى المجتمع الثقافى وهى حياة كارليل التى كتبها فرود . إنها عظيمة إلى درجة أن كبار النقاد يعدونها أحسن سيرنا الحديثة . فلقد كانت من غير شك أول المعالم التى خالفت سير العصر الفكتورى التقليدية بالنسبة للنقد الصادق عند تناول الموضوع . ومما يبعث على زيادة الإعجاب بها تبجيل فرويد لكارليل . وقد حدثت ضجة عندما أخفق فرويد فى معالجة الموضوع بالطريقة الملتوية المعتادة . وعند ظهور الكتاب أبادت سيدة شهيرة الرسائل التى سبق أن تسلمتها من بعض مشاهير الرجال . وقد استغرقت حياة كارليل عشر سنين من حياة فرود واستغرقت أكثر من ذلك فى المجادلة . ولكن فرويد كان مؤرخاً أكثر طيبة من أن يتنبه إلى أن أسمى تبجيل لكارليل هو أن يصوره حتى الثآليل [١] وكل ما فى وجهه من تفاصيل وقد لاحت فى الواقع صورة عبقرية ناطقة بكل مواهبه ومزاياه وعيوبه . ويرى

(١) الثؤلولة زائدة جلدية تسمى السنطة .

فرويد أن هذا أحسن كتبه ، وأنه لفلذة كبيرة من التاريخ الفكرى للقرن التاسع عشر .

وثمة تحفة، أدبى، مرحة، وديعة هى «حياة مكولى ورسائله» للسير ج. ا تريفليان. ويصف هذا دائرة أخرى لا تقل أهمية، وقد تكون أصدق تعبيراً عن العصر الفكتورى، ومعتقداته وصوره المميزة . وإذا رغبت فى عصر أسبق وفى عبقرى أعظم من كل منهما فاقرأ «حياة السير وولتر سكوت» للوكهارت الذى لايفضله بين السير الإنجليزية غير « جونسون » لبوزول . وهذان وما يماثلهما تهىء قرأة مبهجة وتناولاً سهلاً وتعاطفاً ، وذلك لاهتمامها الزائد بالشخصية وبحكاية الإنسان . إنها تنبئنا بنبأ المجتمع الذى تتصل به موضوعاتها وتضيف صورة للماضى الذى هو ملك حى للحاضر ، ذلك أن الماضى لم يمته ولم يقض عليه بل « يعيش » فى كتب كتلك .

وإن سيرَ العاملين لتيسر أفيد تعريف بالعصور التى تأثرت بحياتهم تأثيراً كبيراً . وليس غرضى أن أقدم هنا تحليلاً دقيقاً لتأثير العظماء فى التاريخ حتى ولو تسنى حصره ولكن أحداً لا يسعه أن ينكر أن فعل شخصيةٍ ما من هذه المرتبة قد يكون ، مع بعض القيود ، فاصلاً حاسماً . وقد يكون من المشوق التنبه إلى المصاعب التى قد تعترض ماركسياً كتروتسكى تلقاء التسليم للينين بالسلطة العليا فى الثورة الروسية ، وهذا هو أغرب جزء فى تاريخه للثورة . ومهما يكن فضل لينين على الثورة فإنه وثورته لم يكونا ليصيبا أى توفيق لو لم تواته فرصة فى ١٩١٧ . والمهم هو أنه كان مهيئاً لها وأنه عرف كيف يستخدمها .

فمن المفيد إذن فى تلخيص أحد مناهج التاريخ المهمة النظرُ إليه عن طريق الحياة العملية للرجل الذى يتصل بهذا المنهج اتصالا لا انفصام له . مثال ذلك : النظر إلى نهاية الجمهورية الرومانية وبداية الإمبراطورية من خلال حياة يوليوس قيصر ،

وإلى ثورة المتطهرين[1] والحرب الأهلية فى هذه البلاد (إنجلترا) من خلال حياة كرومويل والنظر إلى أوج الثورة الفرنسية وروحها الاعتدائية الحربية من خلال حياة نابليون العملية . وسير حتى أقوى الشخصيات التاريخية المسيطرة لا تستنفد ، بطبيعة الحال ، أهمية النهج والفترة التاريخية . وإن المرء لينبغى له أن يرى نهاية الجمهورية الرومانية من خلال الحياة العملية لسيسيرون والحياة العالية لقيصر ، وأن يرى عصر الثورة الفرنسية من خلال روبسبير ومن خلال نابليون .

ولقد سبق أن بينت (فى الباب الثانى) الفائدة والبهجة اللتين نجتنيهما من قراءة التاريخ ومن إنماء تقديرنا للأدب . ويطيب لى أن أؤكد هنا أن الكثير من الكتابات التاريخية هو أدب جيد فى حد ذاته . ولقد كنا نزع فى صغرنا إلى الاعتقاد بأن الأدب يعنى الشعر والتمثيليات والروايات والقصص القصيرة والمقالات . ولكنا عندما نكبر ندرك أن التاريخ أدب فى المرتبة نفسها وأن كبار المؤرخين هم كتاب كبار فى مرتبة الشعراء والروائيين ، بل ربما تطلّب التاريخ تقديراً أكمل ونمّ على ذوق أكثر نضجاً . وكثير من الناس الذين يؤثرون قراءة الروايات أو الشعر صغاراً ينتهون فيما بعد إلى تفضيل قراءة السير والمذكرات أو الرسائل والمدونات اليومية . وإن « كاهن ويكفيلد » لأقرب إلى الاستساغة من « انحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » وإن لم يشك فى تقدير أيهما أعظم قدراً . وكلارندون واحد من أعظم كتاب أخريات القرن السابع عشر . و « التاريخ » لهيوم ليس كتاباً غير جدير بالفيلسوف فلقد هيأ له من النجاح والشهرة فى عصره أكثر مما هيأته له كتاباته الفلسفية . ثم ماذا نقول فى كنوز المؤرخين فى القرن التاسع عشر ؟ إن كارليل ومكولى وفرويد ليسوا أقل قدراً من روائيي ذلك العصر الخصيب الخلاق .

---

(1) Puritans

ثم إننا يجب ألا ننسى أن كثيرين من الكتاب الذين كان نشاطهم الذهنى متصلاً بفروع أخرى تحولوا إلى التاريخ وألفوا فيه. فقد كتب السير توماس مور حياة إدوارد الخامس كما كتب بيكون تاريخ هنرى السابع. وإننا لنعلم أن قدراً كبيراً من التاريخ الإنجليزى قد يتعلمه القارئ من تمثيليات شيكسبير. وقد كتب هوبز تاريخ الحرب الأهلية، وملتن « تاريخ بريطانيا »، ونيومان قدراً كبيراً من الموضوعات. أما كنجزلى فقد كتب قدراً أقل وإن يكن تحمسه لعصر إليزابيث — الذى التقطه من صهره فرويد — قد أسفر عن كتابة «الاتجاه غرباً» وحتى ديكنز — وهو أضعف الكتاب فى العقلية التاريخية — كتب « تاريخ إنجلترا للطفل ». وانغمس ثكرى فى القرن الثامن عشر وأسهم بنصيب مباشر فى التاريخ بكتابة «الجورجيون الأربعة» أى الملوك الأربعة الذين تسموا باسم چورج كما أسهم بنصيب غير مباشر — أكبر قيمة — بكتابة هنرى إزموند. فإذا قرأنا كپلنج وهاردى، كلاً على طريقته، وجدناهما قد أشربا الروح التاريخية. وقد حاول كبلنج، كما حاول دكنز، أن يؤلف كتاباً مدرسياً فى تاريخ إنجلترا وإن يكن إدراك حسه الحقيقى خيالياً، وقد تجده فى « عفريت پوكس هيل » و « مكافآت وعفاريت ». ومع أن هاردى عاش فى خلال الحرب العظمى ١٩١٤—١٩١٨ فإن عقله — حسبما وجده ت. ا. لورنس لدى زيارته إياه — كان قد تملكه تاريخ حروب ناپليون. وكان هذا، فى نظره، هو الحرب العظمى التى ملكت عليه تفكيره إلى حد أنه كتب تحفة « نافخ البوق والملوك ».

وإن معرفة التاريخ لتزيد تقديرنا حتى للموسيقى التى هى أخف الفنون وأقربها إلى المثال الفذ. وربما صح لنا أن نعود إلى الفقرة المنقولة من صفحة ١٣٤ التى يقول فيها تريفليان: «لكى تقدر الموسيقى تقديراً جيداً لاتنبغى لها مقدمات تاريخية كبيرة إذ إنها ليست رمزية أو هى رمزية بقدر ضئيل فقط. ولكن الأمر ليس كذلك

على وجه الدقة . نعم إن تقدير الموسيقى نوع من التقدير قائم بذاته فهو تجربة موسيقية . وهو بالإضافة إلى ذلك ملىء بالرموز من كل جانب . وهناك على الدوام تلميح إلى عصره وأوانه ، ذلك التلميح الذى هو أصدق صورة عنها . وإنك عندما تصغى إلى باخ وتسمع إيحاءات رقصات جيج (أى خذ الجدى) وكورانت (الدارجة) وساراباند أو بورّيه (دركله) أو بولونيز (البولونية) ليخيل إليك أنك ترى شخصيات القرن الثامن عشر تلك تنسج طريقها إلى داخل تشكيلات الرقص وإلى خارجها فى تؤدة وعظمة أو فى مرح وزهو مع انحناءات التحية والاحترام وترى السادة يمسكون بأيدى السيدات ، والاستدارات والإيقاعات تعبر عن التوازن الذى هو حصافة العصر ، وترى فى رقصات عصر اليزابيث حيوية أكثر غمراً وأكثر أصالة وفى البوان (وهى رقصات وموسيقى خاصة) مظهراً أكثر هيبة . ثم إن إيقاعات شوبرت لها علاقات مباشرة بموسيقى فينا الشعبية فى زمانه . ولقد كان لها صدى ، وإن يكن غير مباشر ، على روح بتهوفن العميقة الفلسفية وإلا فكيف يمكننا أن نقدر تقديراً كاملا موسيقى بالسترينا من غير أن نسمعها كما قد نرى صورة لتنتورتو تدلل على عصرها وملابساتها ، بعد أن تسمع القرن السادس عشر والتقاليد الكثيرة الأصوات والخصومات الدينية ونبضات النهضة العلمية ترفوق الحركة المضادة للإصلاح وتجديد العهد ؟ وعندما تفطن إلى ما يعنيه غمر المذهب الكاثوليكى واضطهاداته فى عهد إليزابث بالنسبة لشخصيات مثل وليم بيرد فإن شجن وحنان ترقينه الموسيقى للقداس يكتسب قوة جديدة ، وإن إثبات عقيدته « يكتسب معنى » أعمق فى الملح الصغيرة التى كتبها لعيد الجسد الطاهر (وهو المسيح) .

أما فى صدد موسيقانا الحديثة فالأمر أكثر تعقيداً كشأن كثير من فنوننا المعاصرة لأنها تتصل غالباً اتصالاً مباشراً بفن عصر سابق ينبع أحياناً من اصطلاحه الوضعى . وكما أن التصوير اللونى لركس وسلر يرتد إلى عصر الوصاية (أى النيابة عن الملك) « وكما أن رسائل إلى اللايو » لمارتن سكنر ترجع إلى أحوال القرن الثامن عشر

كذلك الحال فى شان موسيقى رافل وفوجان وليمز ولكن بشكل أعمق . وإن المرء ليخيل إليه أحياناً — فى حالة رافيل ، كما فى حالة بركوفييف — أن أعمالهما صور منقولة ، فلقد كان لديه إدراك فطين للعصر والطراز كما كانت لديه مهارة فائقة فى استعادتها . فهو فى «تخطـر طفلة متوفاة» يرتد إلى أوائل القرن السابع عشر، وفى قبر كوبيران إلى أواسط ذلك القرن . وهناك فى «الفالس» (وهى رقصة الدوران) فالس شتراوس فى أواخر القرن التاسع عشر ، الذى احتال على نقله باستعمال جميع إمكانيات القرن العشرين بما فيها ألفة الأصوات والتوزيع . واليك بالمثل طريقة تفكير رافال: لقد أطلعه فيه التأثر بعصر سابق شيئاً ما وبعث فيه النشاط الخلاق. وكذلك مع فوجان وليامز لأن موسيقى القرن السادس عشر — موسيقى تالس وبيرد — هى لغته الطبيعية ، ولامراء فى أنه يشاطرها التجربة. فهو لم يكن يعبر عن نفسه تعبيراً كاملاً حتى وجد نفسه فيها . وإنك لتجد أن لغة عصر سالف ظهرت عليه أكثر مما ظهرت على غيره ففكت عقدة لسانه وأطلقت فيه خفقاً خلاقاً فتملكته روح الحنين وملأ فؤاده معنى التاريخ .

وربما كانت تجربة الموسيقى أكثر الوسائل المتغلغلة التى خلفها لنا من تجارب عصر ولى ففيها ما يزال فى وسعنا أن نسمع خفقه ونصغى إلى دقات قلبه. وإنه لأكثر شىء نتصل فيه بذات روحه التى تمثل أيضاً بعد انقضاء قرون - انفعالات الشغف والالتياع، والابتهاج والأسى ، تلك التى حركت الآخرين فى زمانهم. إنهم فى الموسيقى مايزالون يعيشون من أجلنا خارج الزمن وفى غير توقيت .

ولقد ذكرت الموسيقى ، وهى فن يقل فيه العنصر التاريخى المباشر إلى أقصى الحدود كما يقل لزومه لها . وتقابلها فى الكفة الأخرى من الميزان هندسة البناء وهى أكثر الفنون اتصالاً بالتاريخ وفيها تتجلى معالمه . وربما جاز للمرء أن يعد هندسة البناء

تاريخاً تجسد فى الحجر وأن يحسب حركة الزمن تتخذ شكلاً عجيباً ذلك أن المبنى ، فى كل ناحية ، يعبر عن احتياجات عصره وطابعه . وإن المبنى القديم المركب المعقد ليحمل فوقه سيما العصور المختلفة التى عاشتها . وإننى ليمر بذهنى بيت مزرعة بالقرب من أكسفورد فيها شظية من لب العصور الوسطى التى بنى فيها . وله من الخلف سقف هرمى (جملون) من الطراز الأليزابيثى أو اليعقوبى ، وفناء صغير من طراز القرن السابع عشر. والواجهة من طراز جورجى لا زخرفة فيه . ثم إنه تبدو فى أحد طرفيه نافذة بارزة من طراز عهد الوصاية وفى الناحية الأخرى صومعة نباتية من طراز العصر الفكتورى . فما الذى يشهد عليه ذلك التخليط المقبول من أجيال الحياة الأسرية فى ظروفها المختلفة وأساليبها المتباينة فى الحياة المنزلية ! .

أما أية مدينة من المدن فتشمل تنوعاً أكبر . ففى أغلب البلدان الإنجليزية القديمة ينتقل المرء انتقالا سهلا من العصور الوسطى فى كنيسة الحى الأبرشىّ التى تعلو البيوت المحيطة بها علواً كبيراً إلى يومنا هذا مع مميزات كل من مبانيه العامة المختلفة التى تسكنها مصالح الحكومة ـ مثل مكاتب البريد أو مكاتب تبادل التوظيف ـ ذوات مستويات التصميم الجيدة ، سواء أكانت تقليدية أم حديثة ، وتخليط المبانى التجارية المفزع : المؤسسات العديدة والحوانيت ومحطات التزود بالبزين وخفارة المنازل ــ التى تفتقر جميعاً إلى التقاليد والهيبة وإلى الوعى ومراعاة الجيرة ـ تلك المنازل المبتذلة الزاهية غير المتمدنة . فأى قدر من المعيشة المعاصرة يعكس هذا ! وأنت فى طريقك بين المبنى والمبنى ، قد تلمح فى يسر بقايا من القرن السادس عشر أو السابع عشر يجوز أن تكون شرفة أو شارعاً من الطراز الجورجى ويجوز أن تكون واجهات حوانيت من طراز عصر الوصاية أو مساكن وقورة من العصر الفكتورى . أو فكر فى أن كنيسة فى مدينة مثل (رن) تعكس ذلك المجتمع الثرى المحترم: دين الأسرة ، والشرفة الفسيحة ، والمقاعد الخلفية للأتباع ، والمنبر العالى ،

والموعظة الدينية وهى من أهم مجالى القداس وفيه تهذيب للخلق وحسن إدراك وإخلاد إلى الحياة المستكينة . وقد يخيل للمرء أنه يرى كل شىء (بيبى) يحدج فى امرأة جميلة فى فترات ما بين الأغنيات ، يطرب من الكتاب الدينى الذى يحمله . . ويعير القداس أذناً ناقدة ، يهم بانتباهه إلى السيدة الجالسة وراءه أو يفكر فى (برو) قعيدة بيته .

أنظر مثلاً إلى أكسفورد وإلى نبرات النطق الخاصة بها فى القرون الوسطى وفى القرن السابع عشر . هنا يستطيع المرء أن يرى مجتمع ذلك العصر ينعكس على تطور الكلية فى وقت معاً مع تطور بيت المزرعة : مثلاً من ناحية الإعداد شبه العرضى لمبانى القرون الوسطى الباكرة فى ميرتون الذى تبعه فى القرن التالى النموذج الجديد للبناء ذى الجوانب الأربعة ، المنتظم الذى يتصل به دير فى نيوكولدج (أى الكلية الجديدة) . وبعد قرن من ذلك الوقت أدخل الدير بشكل مناسب داخل السور الرباعى الأضلاع كما حدث فى ماجدالين (أى المجدلية) ليكون ملاذاً للمسافرين . ويستطيع المرء أن يرقب تطور نسق معبد الكلية المخطط على شكل حرف T أو بيت القرون الوسطى السكنى — ببهوه وغرفه — من خلال عصور آل تيودور وستيوارت إلى النماذج الجورجية المنقطعة النظير .

وقد أوجزت الكلام عن الموضوع بالضبط لأن الكلام عنه يطول شرحه . فلقد صدرت كتب كثيرة عن تاريخ هندسة البناء وعن صلتها بالتاريخ ، فالتاريخ هو الباب الأمامى الموصل لهندسة البناء ويكاد كل مؤرخ محقق يهتم بها اهتماماً عظيماً . فالفائدة والمباهج التى تنتجها هذه الأشياء لا تقف عند حد . ولإرشاد القارىء أقترح كتاباً فكتورياً صغيراً ما زال مفيداً وهو كتاب أ . ب . ج لباركر فى « النسق القوطى » وبعض مقدمات مثل « هندسة البناء » تأليف و . د . أو « حكاية هندسة البناء الإنجليزية » لمؤلفه و . ه جود فراى . ومن هذه تستطيع

أن تنتقل إلى كتاب نفيس مثل « تاريخ الفن القوطى فى انجلترا » لمؤلفه أ . س . بريور أو مثل تحفة وليز وكلارك وتاريخ هندسة البناء لجامعة كمبردج الذى يفترض أنه يعكس فى تلك المرآة كل هندسة البناء الإنجليزية . فمن هو الذى سيكتب كتاباً كهذا « آية فى الامتياز » عن أكسفورد ؟ إن هــذه التحفة لتنتظر من يكتبها .

وإذا كان لى أن أحكم من مقتضيات الرسائل التى تصلنى فكثيرون فى بريطانيا وأكثر منهم فى أمريكا هم الذين تسرهم كثيراً قراءة تاريخ الأسَر وبخاصة تاريخ أسرهم . وإنها لمتابعة بهيجة وباب ندخل منه على التاريخ . والاهتمام بالأسرة هو أهم امتداد للذات (أى الأنوية) . وليس شىء يستحوز على العطف أكثر من ذلك . والشىء الذى يستحوز على أقصى حد من العطف لا بد من أن يكون أسرة عريقة ضاربة فى القدم ، وكلما كانت عريقة متفرعة زادت أهميتها . وليس ضرورياً أن تكون عظيمة ذات شهرة سياسية مثـــل آل سسل وآل هو وارد وآل رسل وإن يكن هذا النوع من الأسر أكثر اســـتدعاء لاهتمام المؤرخين . ويحلو بالتتبع فى نظر الهاوى إذا لم يكن الموضوع بالغ السهولة يكتنفه شىء من الصعوبة والغموض . وكلما زادت عراقة الأسرة اتسع أفق النظر إليها : إذ يزيد عدد الوصايا التى يتحتم تتبعها فى المراجع التى تغـــرى بالأمانى الخادعة فى التراث والكنوز التى يغلب احتمال زوالها . ولكن فكر فى الابتهاج الذى ينجم عن التعرف عليها إذا كانت ما تزال محفوظة منذ قرون فى خزانة أو فى صندوق جواهر ! وقد تكثر المراجع والمستندات المحفوظة فى سجلات الأبرشية وتتطلب فحصاً دقيقاً . ويفضل البحث كلما تفرعت شجرة النسب . وقليل من اللقطاء (أى الأبناء غير الشرعيين) هنا وهناك يشحذ الاهتمام بها . وهنالك أناس يستهويهم الإيثار إلى درجة تجعلهم يهتمون بأسَر غيرهم . فإذا لم تكن لك

أسرة تتحدثون عنها فهنالك البديل . وقد يبقى هذا أساساً للاهتمام بالتاريخ اهتماماً متواصلاً : ومهما يكن فالمجتمع الإنسانى مكون من أسر .

وأنا بكل تأكيد لا أثبط ، بل أشجع كل التشجيع ، الاهتمام الملحوظ الذى يبديه كثير من الأمريكيين فى تتبع شجرة أنسابهم حتى يرتدوا إلى أسلافهم الأولين فى البلد القديم (إنجلترا) . وكل شىء يجمع بين أبناء الأسرة البشرية فهو من الخير . وليس من السهل دائماً الاحتفاظ بالأواصر . وهذا مجال أصيل للتضلع . وقد حدث أن بنيامين فرانكلين ، لدى أولى زياراته لانجلترا فى ١٧٥٨، شاهد قبر أبيه فى فناء كنيسة إكتون بنورذا مبتون شاير . ولقد انحدر جورج واشنطون من أسرة من أسر القرون الوسطى استوطنت بلداً بهذا الاسم حيث ما يزال باقياً بيت المزرعة المبنى على طراز عهد إليزابيث فى مقاطعة درهام . وقد انتقلت الأسرة إلى لانكشير ومنها إلى سلجريف فى نورز مبتونشير حيث ما يزال قائماً بيتُ أسلاف واشنطن الأقربين الذين عاشوا فى عهد إليزابيث . وقد درست سلسلة نسب الأسرة دراسة موثقة فى ثلاثة أجزاء ضخمة . وسمرست ، موطن أسرة ت. س. إليوت ، هو الذى أوحى له بقصيدته « كوكر الشرقية » التى نظمت فى أربع رباعيات[1] .

وعندما يفكر المرء فى عدد مؤرخى السير القديرين تتملكه الدهشة من قلة عدد السير الأسْرية التى تعدّ أعمالاً فنية . ومع ذلك فالأسرة لا الفرد هى وحدة التاريخ الحقة . ومن حسن الحظ أن غالبية أشهر الأسر الأمريكية لها كتب موقوفة عليها مثل كتاب « أسرة آدامز» لمؤلفه ج. ت. آدامز . وقد صورت أسرة إنجليزية مماثلة فى « آل تشرتشل الأولين» و « آل تشرتشل الحديثين» وما أفخم موضوعات الناحيتين التى ما زالت تنتظر من يدرسها ! آل روزفلت ، آل راندولف ،

---

(١) الرباعية هى التى يغنيها ٤ أشخاص أو تغنى على ٤ آلات .

آل وادزورث ، آل روكفلر ، آل آستور ، آل سسل ، آل رسل ، آل هووارد، آل كافنديش ، آل جراى ، آل تشمبرلن .

والاهتمام بتاريخ الأسرة يرتبط بكثير من الأشياء المبهجة : الاهتمام بالبيت الذى جرى فيه ذاك الشىء الكثير وسحر إحرازه وصوره وأعلاقه وأثاثه وحتى خرائط الضيعة وقصص عفاريته . وإن نبأ هذا لينتشر فى كل المنطقة . والتاريخ المحلى لا نهاية له على حد قول الدكتور ج. هـ. ويفر : « مادة التاريخ المحلى ، بمعنى الكلمة الواسع ، لا تكاد كميتها تدخل تحت حصر ، أو يحددها فقط ما يقع تحت أيدينا من سجلاتنا القومية بصفة عامة » . وهذا كما ترى يطابق على الأقل النصف الثانى من تعريف الهوية الممتاز « ليس لها معنى على الإطلاق وليست له نهاية » .

وهذا يؤدى مباشرة إلى مباهج تطبيق علم العاديات على المعول والجاروف ولذة استثارة الحفر الخفية . وربما كانت تلك المباهج غير خفية على الإطلاق لأنها ترد إلى الاستمتاع الفطرى باقتناص الكنوز أو الركائز . وإن أغلبنا ليخفّ إلى المشاركة فى اغتنام رحلة خلوية قصيرة عبر الآجام والشواطىء الصخرية فى كل الأجواء لابسينَ إذا دعت الضرورة ، معطف المطر والسوتر (وهو قماش يصنع منه لباس الملاحين) ميممين جهة معسكرات الشواطىء الصخرية، أو لابسات الدُّلمان (وهو من ملابس السيدات) إلى الحلقات الحجرية أو الروابى أو إلى كهف من كهوف وايلاند سميث فى التلال . والسير على الأقدام هو خير وسيلة ، هذا مع حمل الخرائط . ويجب ألا ننسى الشطائر (أى الساندوتش) فهى ألذ مذاقاً فى الهواء الطليق بعد تجوال طويل . ويجب ألا ننسى كذلك أن علم العاديات يتيح لنا ، أكثر مما يتيحه لنا أى فرع آخر من الدراسات التاريخية ، أفقاً للتلذذ بالكراهة

والحقد وكل ما ينافى البر . وكل من يعرف طريق الآثار القائمة فى الخلاء يعرف أن مقت الدين لايقاس فى شىء بمقت العاديات .

ومن الموضوعات المدهشة التى لم يفتح بابها إلا فى أيامنا والتى سير فيها بخطوات واسعة موضوع دراسة الأماكن الإنجليزية . وهذا يضيف إلى متعة السير على الأقدام فى الخلاء معرفة أصول ومعانى أسماء الأماكن التى تسير فيها . وكثيراً ما يلقى هذا ضوءاً على الماضى السحيق ويظهرك على طبيعة السكان وأصله وعلى استيطانه الباكر ومميزات المنطقة جميعاً . وقد باد قدر كبير من مستندات تاريخنا القديم : وأسماء الأماكن بالذات هى أوثق ما يعول عليه من المستندات الباقية . فقد تصادف هنا اسماً كلتياً يظهرك على مستعمرة بريطانية قديمة بقيت بين المستعمرات الإنجليزية بقاءً سعيداً . ويوجد فى مختلف مناحى البلاد كثيرٌ من الولْطون ، وكثيراً ماتعني — وإن لم يكن دائماً — بلداناً غاليّة (أى من بلدان ويلز) أو فانظر إلى الأصبع الصغيرمن الأسماء السكسونية علىطول نهر أو تارى على جانب تامار الكورنوولى، المشيرة إلى تلك المنطقة التى تكاد تكون كلتيّةً كلها : شاهدٌ حى على مستعمرة إنجليزية على ذلك الجانب من الحدود . وقد أظهرت دراسة أسماء الأماكن فىديفون مالم تكن تتاح لنا معرفته بغير تلك الدراسة ، أظهرت أنها سبق أن استعمرها السكسون الغربيون الوافدون من الشمال ، من سمرست ، وليس كما كان يمكن أن نفترض ، من دورست ميممين غرباً على طول الشاطىء . ومما يلفت النظر فى طابع ديفون وسمرست وفى تاريخهما أنهما أكثر إنجليزية وأقل كلتية من دورست . وإلا فانظر إلى كمبرلاند ووستمورلاند : إن أسماء الأماكن فيهما تشير إلى أن سكانهما يتكونون من خليطمن الكلت والإنجليز والنرويجيين مع احتمال أن يكون الجنس الأخير هو الجنس الغالب: ومن هنا نبعت الأرومة الخشنة الفظة التى انحدر منها سكان الوادى. وهذا مصدر تنويع السلالة الذى لايبارى فى خصبه وغزارته . وليس أقل إدهاشاً

وإن يكن أكثر عنتاً ، تتبع تقدم هؤلاء عبر البحار فى الولايات المتحدة وكندا وأستراليا ونيوزيلند — وإلى مدى أدنى — فى جنوب أفريقيا .

وكان العالمان الكبيران هنرى برادلى (وفى وسعك أن تقرأ كتابة الصغير الفذ « تكون الإنجليز ») ووولتر سكيت هما رائدى هذا البحث فى أوائل هذا القرن. وقد اتسع حتى صار دائرة علمية قائمة بذاتها أقطابها : السير ألان ماور والأستاذ ف . م . ستنتون ومعهم علماء من سكندناوة — أى شبه جزيرة (السويد والنرويج ، التى فيها يكثر الاهتمام بهذا البحث والتى منها وردت مساعدات كبيرة القيمة) — والأستاذ إيلرت إكوول . وقد اضطلعت بهذا البحث جمعية اسمها جمعية أسماء الأماكن الإنجليزية — تقوم بتفقد البلاد مقاطعة بعد مقاطعة وبكتابة مؤلف عن كل مقاطعة ، بل أكثر من مؤلف فى بعض الأحيان . وعليك أن تجعل نصب عينيك الاطلاع على ما كتب فى المجموعة على المقاطعة التى أنت منها . وإذا لم يكن الجزء الذى يخصها قد ظهر فقد يكون هناك كتاب آخر يبين معالمها بعد أن شمل البحث كثيراً من المقاطعات . ثم اقرأ الجزء الذى يقدم للتعريف بالبلاد ففيه دليل مدهش للموضوع ومناهجه . وليس مما يتطلع إليه المرء شراء جميع الأجزاء . فإذا تعذر هذا فهناك البديل : « قاموس أكسفورد الوجيز فى أسماء الأماكن » للأستاذ إكوول .

وهناك ، فيما يخص الولايات المتحدة ، وسيلة جد جذابة وهى دراسة الموضوع من كتاب جورج د . ستيوارد «أسماء علي الأرض» . وعن طريقة يستطيع المرء أن يتبع مناطق المستعمرات عبر القارة الأمريكية والأقوام المختلفة التى استعمرتها فى فترات مختلفة . والأسماء الهندية الأصيلة وهى أجملها جميعاً وأكثرها تردداً على وجه الإجمال ، والإسبان الدائمو الجاذبية ، والإنجليز والهولنديون ، وفى لويزيانا — كما فى كويبك — الفرنسيون . وكلما تتبع المرء عملية الاستعمار عن طريق الأسماء أحس بكيفية تضمنها حركات الأقوام الذين أعمروا بريطانيا قبل ذلك بألف سنة .

ثم إن التاريخين الحربى والبحرى مبحثان مهمان فى حد ذاتهما ، وقد أقبل الناس على دراستهما إقبالاً شديداً مع حروب القرن العشرين ولهذا زاد الأدب المخصص لهما زيادة كبيرة . ولقد تحمس لهما نساكهما فى كل وقت منذ عهد يوليوس قيصر الذى ظل كتابه « تأويل حرب الغال » مثلاً اتباعياً للموضوع . ومن بين المؤرخين البريطانيين الذين اهتموا بهذا الموضوع : السير تشارلز أومان فقد كتب « تاريخ فن الحرب فى القرون الوسطى » وأتبعه بجزء عن القرن السادس عشر وتطورات النهضة العلمية فى الفن . وإذا أردت شيئاً عن الحرب وموضوعها لذاتها فعليك بالدراسة الكلاسية (أى الاتباعية) للألمانى كلوزيفتس العسيرة الصعبة التناول. أما للمبتدىء فخير وسيلة هى قراءة السير فى كتب مثل « حياة ملبرا وعصره » للسير ونستون تشرشل ، و « ولنجتون » جوايدالا ، والطبعة التى ظهرت فى جزء واحد « روبرت ا . لى » لكاتبها دوجلاس س . فريمان وناشرها د . ب هارويل ، وثمة بحوث شائقة ممتازة فى كتب سيريل فولز : « مائة سنة من الحرب » و« الحرب العالمية الأولى » و « الحرب العالمية الثانية » . وإذا شئت تعريفاً عظيماً بالتاريخ البحرى فعليك بكتاب « فاعلية القوة البحرية فى التاريخ » لأمير البحر ماهان . وقد وضع أيضاً دراسة تحتذى وذلك بكتابه « نلسون والقوة البحرية البريطانية » . أما إذا ابتغيت دراسة عن مؤسس التقاليد البحرية فى الولايات المتحدة فعليك بكتاب « بول جونز » لمؤلفه س.ا . موريسون . ولقد كتب هذا المؤرخ الشهير ، من دون أن يستعين بأحد، إجمالا ، التاريخ الرسمى لبحرية الولايات المتحدة فى الحرب العالمية الثانية . أما التاريخ البريطانى الرسمى فقد صدر بعد تعاون وتكاتف .

وإذا ابتغينا تاريخ السير فعلينا بقراءة « كريستوفر كولومبس » لمؤلفه س . ا . موريسون ، وكذلك « السير فرانسيز دريك » و « هوكنز من بليموث »

لمؤلفهما ج. ا ولميسون ، وربما كتابى « السير رتشارد جرنفيل » . وتجد أكمل سيرة لنلسون من الناحية الشخصية فى « نيلسون » لكارولا أومان . وإن الكتاب الممتاز الذى ألفه جاريت ماتنجلى « هزيمة الأرمادا[١] الإسبانية » ليجمع إلى حكاية التاريخ البحرى حكاية التاريخ السياسى والدبلوماسى بتوليف أصيل مقنع .

ومما يزداد الاهتمام به فى عصرنا كذلك تاريخ الفكر ولو أنه كتب فى القرن التاسع عشر فى هذا الميدان الكثيرُ من المؤلفات الكلاسية (أى الاتباعية) مثل « تاريخ الفكر الإنجليزى فى القرن التاسع عشر » و « القائلين بمذهب النفعية من الإنجليز » لمؤلفهما لزلى ستيفن ، ثم إن « تكوين الراديكالية[٢] الفلسفية » لمؤلفه ا . هاليفى كتاب يسترعى النظر . أما « أهم تيارات الفكر الأمريكي » لمؤلفه ف . ل . باريجتون فهو أقل بعثاً للرضى كشأن كتب تشارلز بيرد جميعها ، فهى متحيزة ومن وحى السياسية ولذلك فهى غير باقية على الزمن .

ومن الكتب الكبيرةِ القيمة إلى حد بعيد تلك الفكرة التى قدمها فردريك جاكسون تيرنر فى بحثه « الحدود فى التاريخ الأمريكى » وقد كان له تأثير عظيم مخصب ، ليس فقط فى تدوين التاريخ بأمريكا بل كذلك وراء الحدود فى بلاد أخرى .

ولم يكن أقل تأثيراً من ذلك فى زمانه كتاب (باكل) المبدع « تاريخ المدنية فى إنجلترا » . وقد يعد تاريخ التأمل اللاهوتى جزءاً من تاريخ الفكر . غير أن

---

(١) الأرمادا هو الأسطول الذى أرسله فيليب الثانى الإسبانى لقهر انجلترا فى ١٥٨٨ فحطمه نلسون .

(٢) الراديكالية مذهب الأحرار المتطرفين :

بوركارت ينذرنا بأن بحث (باكل) المفرط المتشدد فى مقدسات القرن السابع عشر الإسكتلندية كلفتة شللاً فى المخ .

وأوفى من ذلك جزاءً : دراسة الزمان والمكان الجامدة . وفى النهاية ، كما هى الحال فى التاريخ فى كل وقت ، نعود إلى التجربة التى نسميها «برهة الاستنارة» . وهذه لن تجد لها وصفاً أوفى مما أورده برونتج :

فى المنحنى الذى عنده يطبع الزيتون — المعلق فوق الرءوس — السماء الزرقاء بالغصون الصغيرة وورق الشجر (المجعد تجعيداً شديداً والذى لم يظللوه قط) المعلق بين اثنين من أعواد الصبار ، فى هذا المنحنى تعودت الاضطجاع وترك سمية لى فى عصر الأيام الشتوية مستعيناً بهبة يهبنى الله إياها بين الفينة والفينة وقت الانحدار الوديع التى تنحدره تلك الشموس وتلك الأقمار اللواتى كن يسرن فى فلورنسا إلى جانب رجالهن .

الباب الثامن

كيف تلقن نفسك التاريخ

قد يدور بخلدك أنك ـ لكى تتمكن من دراسة التاريخ ـ تكون فى حاجة إلى مجموعة كبيرة من الكتب كى تبدأ بها . لاشىء من هذا إطلاقا ، فدور الكتب يأتى فى النهاية . أما الذى ينبغى لك فى البداية فهو زوجان من أحذية المشى المتينة وقلم من الرصاص وكراسة لتدوين المذكرات ، وربما حسنت إضافة دليل للمقاطعة يبين معالم المنطقة المطلوب تقصيها ـ وأرى أن كتاب «المرشدين الصغار» ، الذى كتبه مثيوون ، جليل الفائدة ـ وتحسن كذلك إضافة خريطة المنطقة ، تلك التى تبين معالم ممرات السير على الأقدام وكنوز الأشياء الهامة والكنائس والمبانى التاريخية وخرائبها والصلبان والمعابد المقدسة القائمة على جوانب الطريق والمعسكرات والسدود التاريخية ومواقع الوقائع . فإذا تعذر عليك السير على قدميك فمن الخير أن تدرس الخريطة والخطة التى توصلك إلى المكان الذى ترغب فى ارتياده . وأنا أحبذ كل التحبيذ دراسة التاريخ بالسير فى الهواء الطليق فهى أبعث الوسائل للبهجة والمتعة والتصور والمعرفة كما أنها ـ وهذا ما لا يفهمه الكثيرون ـ خير تدريب .

هذه هى الكيفية الحقة لدراسة التاريخ عند سكان الريف والجبال ولها فوائد جمة وبخاصة فى فهم تاريخ الجزيرة القديم. ولك أن تستعين بكتاب جاكتاهوكس الممتع « بريطانيا القديمة » (مجموعة « بريطانيا بالصور » للناشر كولنز) وما فيه من صور جميلة وأن تتدرج منه إلى كتاب ف . جوردون تشايلدز « مجتمعات الجزائر البريطانية فى زمن ما قبل التاريخ » . ويكفى أولها لإعدادك لمعرفة حافات الربى والقنوات الممتدة فى كل مناحى الريف التى تهيىء لك سيراً ممتعاً على قدميك فى المروج الرطبة والهواء المسكر كالخمر وتريح أعصابك بإعفائك من جلبة الدنيا الحديثة وضوضاء المرور فيها . فهناك لم تكن لتسمع غير أصوات القبرات ، أما

الآن فتسمع مع الأسف أصوات الطيارات. ويخبرنا الدكتور ا. ج.س . كروفورد أن أهل الريف والجبال يفهمون ـ على وجه أصح ، وبالفطرة ـ أحوال الحياة فى زمن ما قبل التاريخ وأن بحوث صغار النوادى الريفية كثيراً ما تفوق بحوث الصحف المتخصصة فى الآثار القديمة والعاديات وذلك لدى التقدير الصائب لمعضلات ما قبل التاريخ . وهذا هو الرجل الذى وضح فى زماننا هذا — بالفوتوغرافيا الجوية — أساليب السكات الزراعية بحقولها المتسلقة فوق الهضاب ، تلك الأساليب الزراعية التى قضى عليها الإنجليز بإزالة الغابات وأودية الأنهار . وما يزال فى وسعك أن نرى آثار زراعة الربى القديمة واضحة فى الفوتوغرافيات الجوية . (فلتشاهدها فى الصحيفة الظريفة « العاديات ») .

ولقد كانت بريطانيا فى عصر ما قبل التاريخ مغطاة بشـــبكة من الطرق الريفية والجبلية : « كونت الطرق الزراعية والجبلية وطرق جرافات الأرض التى كانت تربط ما بين الحصون المقامة على رءوس التلال والقرى السكلية ، كونت تلك الطرق جهازاً للمواصلات لم نبدأ فى تقدير براعته إلا الآن » . هكذا يكتب مستر راندل فى كتابه « التاريخ فى الهواء الطلق » . وبحثه فى « الطرق القديمة فى انجلترا » عون مدهش على تنمية الإحساس بحسن استخدام الطرق : وأنا أقصد ، بطبيعة الحال ، الإحساس التاريخى بالطرق ولا أقصد كيفية قيادة السيارات فيها . وهو يرينا كيف نفتح عيننا ، كما قد يفتحها الطائر ، « لأن قطعة صغيرة من الطريق قد يكون جزء منها من عصر ما قبل التاريخ ، وجزء منها من العصر الرومانى ، وجزء منها من القرون الوسطى ، وجزء منها من العصر الحديث » . وهو يقدم لنا مفتاحين للانتفاع بهما : « التمييز تمييزاً أساسياً بين الطرق التى نمت والطرق التى صنعت ... وثانياً ، عمر الطريق يحددها أقدم الآثار أو الأشياء التى ترتبط بالطريق ارتباطاً وثيقاً » . ومع هذا فإن المستر بيلوك — الذى لا يعتمد بوصفه

مؤرخاً والذى يملؤه التجامل والتحيز لديه حس صادق للطبوغرافيا (أى علم تخطيط الأرض ومسطحها) كما أن لديه عيناً تدرك ما قد تراه فى الطريق . وإنى لأوصى خيراً بكتابه فى موضوع طريق الحج القـــديمة إلى كانتربرى « الطريق القديمة » مع ما ورد فيه من أخطاء ، إذ هو مثال للوسيلة الصحيحة لدرس الإحساس بالطرق دراسة صادقة .

وكان ينبغى أن تتوافر لدينا كتب عن طرقنا المائية كالأنهار والقنوات . فما أبهج الـكتب التى تنتظر أن تـكتب فى هذا الميدان أو ربما جاز أن أقول : فى تلك المياه . وفيما يخص الأنهار يصح أن يهتم بنـــوع خاص بالقرون الوسطى وببلدان القرون الوسطى الواقعة على الطرق . ويقول لنا المستر راندل « إن نهر التيمز صالح للملاحة إلى لتشليد على أقل تقدير ، وإنه كان قبل حفر القناة صالحاً للملاحة إلى كريكليد ، وإننا إذا بدأنا من هاتين النقطتين فإن الرحلة فى ريف كستوولد إلى السفرن أو إلى أى من فرعى الأفون قد تستغرق يومين أو ثلاثة حتى بوسائل النقل التى عليها أحمال كثيرة . ومما يثير العجب أحياناً : كيفية نقل البضائع على طول طرق القرون الوسطى المتعرجة فى مركبات النقل المعوقة . والجواب هو أن تلك الأحمال الثقيلة كانت تنقل فى الأغلب على الماء » . ولدينا هنا أيضاً فى كتاب بلموك « نهر التيمز التاريخى » مرشد وأنموذج لما قد يعمل بالنسبة للأنهار الأخرى كالسفرن والترنت والتاين والتّيز وفروع الأفون المختلفة . ولدينا كتاب اتباعى (أى كلاسى) فى موضوع القنوات أخرجه ستيفنسون باسم « رحلة فى داخلية البلاد » . ونحن نضيف إلى متعة المشى متعة ركوب الزوارق الصغيرة واستكشاف طرقنا المائية بالبواخر والصنادل والقوارب . على أن السكك الحديدية — التى هى من أهم مميزات الثورة الصناعية الـكبرى — لا تخلو من التشويق التاريخى . وأقترحُ أن تـكون وسيلة التعريف بها كتاب ك . أ . ر . شيرنجتون « مائة سنة

من النقل الداخلى » . ومن هذا الـكتاب يستطيع المرء أن يرقي إلى تاريخ ممتاز أنيق مثل كتاب و . و . توملينسون « تاريخ سكة الحديد الشمالية الشرقية » . وللسكك الحديدية إثارتها وفتنتها اللتان لا تقلان عن إثارة الطرق والأنهار وفتنتها .

وساكن البلدة أيضاً له امتيازاته وبخاصة إذا كان يسكن بلدة قديمة ما تزال عليها مسحة من القدم . فإذا ظل فاتحاً عينيه فسيرى قدراً أكبر ، وأقصد أنه سيرى قدراً أكبر من بين تلك الأشياء التى تستحق الرؤية . فإن أغلب البلدان الإنجليزية ، أياً كان حجمها ، كتبت عنها كتب تصلح مرشـداً عن ماضيها تنبئك عما يستحق الرؤية فيها . فعليك بالاستعلام من المـكتبة المحلية أو من محل بيع الـكتب المحلي وبخاصة إذا كان ذاك الأخير محلاً قديماً يرجع تاريخه إلى عدة أجيال ، فلا شيء أبعث للبهجة من استكشاف بلدة . وإن إحدى مباهج أية بلدة ريفية أو جبلية لهى استقصاء محالّ بيع الـكتب فيها وتذوقها . وفى هذا من الفن الشيء الـكثير الذى يعدل ما يوجد منه فى الحمر . وهناك تعريف ساحر بما فى انجلترا من « المدائن والبلدان الصغيرة » بقلم كاتب مبتدع أريب اسمه چون بتجمان . ومن الواجب قراءة كل ما ألفه هذا الـكاتب وإن يكن قد عفى عليه الزمن وتم إدماجه . نعم إن كتبه موجزة ولـكنها من عمل شاعر ذى إحساس بالماضى وله عين لا تخيب نظرتها . واقرأ كذلك كتابه «لندن بلد غلة الـكرمة وخزانة جامعة أكسفورد». وثمة مجموعة مستعملة مدهشة يمـكن التقاطها ، موضوعها « البلدان التاريخية » نشرها المؤرخ فريمان الذى يمتاز بالاهتمام بالطبوغرافية (أى تخطيط الأرض ومسحها) . وإن كراسات الرسم السياحية التى كتبها عن بلدان فى الخارج — فى نورماندیا و (مين) وفى بروفانس وصقلية — لهى أحب ما كتبـــه على الإطلاق ذلك الرجل المسن الذى لا يكاد يحظى بحب أحد . وليـكن مثلك فى

بالمنهج الواجب الاتباع فى درس بلدة تاريخية كتاب حديث مثل « المدنية الانجليزية، نحو برستول ومستقبلها » أو مثل كتاب جفرى مارتن « البلدة » وهو من مجموعة جاك سيمونز الجديدة « تاريخ بريطانيا البصرى » . فأنت إذا استعنت بكتب كتلك تظفر بفكرة عن تخطيط مدينة من المدائن ونحوها وعن أجزائها الحيوية ووظائفها الأساسية . عندئذ يأخذ المكان فى الوضوح أمام بصيرتك وفى البقاء أمامك بوصفه مكاناً له شخصية ذاتية ولا يصبح ، كما أمسى ، خلفية غير ملحوظة للحياة المعاصرة .

وكذلك الحال أيضاً بالنسبة المقاطعات الإنجليزية مع تنوع شخصيتها وما فيها من كنوز شائقة لا تفنى. ومن المحتمل أن تتوافر لدى بريطانيا ، بالقياس إلى حجمها، مناظر خلوية ومشاهد لا تتوافر لأى بلد فى العالم. فأكسفورد تقع على مسالك أربعة من المناظر الطبيعية المتباينة كل التباين ، على أن لها بالذات خصائص منظر خامس : فهناك منحدرات تشلترنز التى تكسوها الغابات ، والخطوط العارية لتلال بير كشاير، وهضاب كوستولد وأوديتها ، وخلاء نورث أو أكسفورد شاير الهادئ الملتف ، وهنالك المدينة نفسها وهى بلدة من بلدان وادى التيمز .

ومن الخصائص الدائمة فى التاريخ الإنجليزى الفرق بين مقاطعة ومقاطعة . تأمل الفروق بين الجيران المتلاصقين فى المزاج واللهجة الكلامية وفى نزعة الأهالى الذهنية وتأمل الفروق فى المناظر الخلوية بين كورنوول وديفون وبين ديفون ودورسيت وبين دورسيت وولتز وهكذا عبر كل المقاطعات الجنوبية ؛ تأمل الفروق بين لانكشاير ويوركشاير وكمبرلاند ونورثمبرلاند . وعلى كل من يفهم الإنجليزية أن يفهم هذا ، بالإضافة إلى أن فى هذه الجزائر أربعة بلاد متباينة وهى : إنجلترا والغال

واسكتلنده وإيرلنده . وهذا التنوع البالغ التوفيق هو أهم مصادر إبداعيتنا [١] .

وفى الإمكان أن يتناول تاريخ المقاطعات بالمدارس بتوسع يفوق هذا كثيراً وإذا أردت مثلاً فائقاً على أسلوب هذا التناول فإليك كتاب مقاطعة ووستشير فى التاريخ الإنجليزى ، لمؤلفه ألك مكدونالد . ومن هذه الأعمال التمهيدية يستطيع المرء أن ينتقل إلى كنوز نفيسة من المادة والبيانات ، يستطيع أن ينتقل مثلا إلى « مجموعة فكتوريا لتواريخ المقاطعات » التى يصح أن نذكر منها لا نكاشاير بوصفها أنموذجاً تاماً متكاملا. وهناك أيضاً المجموعة النفيسة المصورة التى أصدرتها لجنة الآثار التاريخية وهى تخطيط وبيان للبلاد كل مقاطعة على حدة يبين كل ما فيها من معلومات أثرية وتاريخية . وهناك مجموعة صغيرة بديعة من « أدلاء الأقاليم » للآثار القديمة التى ترعاها وزارة الأشغال (قسم المكتبات) . ومن هذا يتسنى المرء أن يتأخر أو يتقدم إلى المعايير التى تفوق فى القدم المعايير الخاصة لتواريخ المقاطعات ويصح أن نذكر منها « ولتشاير » لهود و« تشيشاير » لأورميرود ، على أنهما مثالان اتباعيان . وتجدغير هذا من المشوّقات فى الصور وحروف الطباعة المميزة التى نُمّقت بها تلك المجموعة التى تزيد فى القدم فهى فى حد ذاتها تبعث الرضى وتثير الإعجاب ، وهى تتحدث غالباً عن بيوت عفى عليها الزمن أو مشاهد تغيرت كلها تغيراً بالغ القبح: وقد أسست مقاطعات كثيرة جمعياتها الأثرية ، وما تزال صحفها ومطبوعاتها تحرر منذ سنوات طويلة حاوية الكثير من المواد المدهشة الكبيرة القيمة . وأكتفى بذكر مثل واحد طيب هو

---

(١) التأثيرات الإبداعية للتنوع والاندماج فى داخلية البلاد هى أهم منهج لكتابى « روح التاريخ الإنجليزى » .

« التقريرات العلمية لجمعية ديفونشير » وهناك جمعيات أخرى تعنى ، أكثر ما تعنى ، بالمستندات. ومن هذه الجمعيات : جمعية أكسفورد التاريخية وجمعيتا سيرتيز وتشاتام (فى المنطقة الشمالية) .

وكما يصعب على الأمريكيين تصور صغر مساحة انجلترا — فهى فى ثلث مساحة كاليفورنيا وربع مساحة تكساس — كذلك يكاد يتعذر على الإنجليز أن يقدروا ، عن طريق التصور ، مساحة الولايات المتحدة البالغة الاتساع . ليس فى وسع المرء حقاً أن يتصور اتساع أرجاء أمريكا . وليس فى وسعه أن يقدرها قدرها على الوجه الصحيح حتى يراها . ومهما يكن فهى لا تضارع بلداً أوروبياً عادياً وإنما تضارع قارة كاملة قائمة بذاتها .

ولتسهيل تقدير ذلك تاريخياً وبصرياً أقترح التطبيق الفني نفسه الذى أجملته بالنسبة لبريطانيا . ولقد يتناول المرء كل ولاية — ولو أن الولايات الأمريكية تكبر كثيراً عن المقاطعات الإنجليزية — على أنها مماثلة تاريخياً لإحدى المقاطعات . وحيثما أكون فى الولايات المتحدة أحب أن أحصل على مرشد تاريخى جيد للولاية التى أنا فيها . وهناك ، من حسن الحظ مجموعة نفيسة من أدلاء ب. ت. ا. (برنامج تسهيل الأعمال) بدىء فى نشرها فى السنوات القلائل التالية لسنة ١٩٣٠ . والولايات الشرقية القديمة بطبيعة الحال أشمل للمشوقات والآثار التاريخية والأماكن التى تستحق الزيارة . ومن تلك الولايات : مساتشوستس ونيويورك وبنسلفانيا وفرجينيا . ومن الولايات التى تقل عن تلك قليلاً فى شمولها للأشياء التاريخية التى تسترعى الاهتمام : كاليفورنيا وكنكتيكت وكارولينا الجنوبية وإلينوى ، على أن

كل الولايات — حتى ما كان منها حديثاً جداً — تحوي أشياء تاريخية تستحق الاهتمام ، هذا إلى جانب الأشيــاء الجغرافية والبصرية والمناظر المشوقة .

والمبدأ الثاني الذى أوصى به هو الحصول على تاريخ جيــد للولاية التى يتفق وجودك فيها . ويحسن أن يكون كل من تلك التواريخ فى جزء قائم بذاته مثل تاريخ اللينوى الممتاز لمؤلفه ت . ك . بيز ومثل « من التيه إلى الإمبراطورية ، تاريخ كاليفورنيا ، من ١٥٤٢ إلى ١٩٠٠ » لمؤلفه د. ج . كليفلاند . وهناك بحوث أكثر تفصيلاً مثل كتاب ك . ا . تشابمان عن كاليفورنيا الإسبانية . وما تلك غير قليل من كثير من النماذج الطيبة .

والنقطة العامة — وإن صعُب تطبيقها — هى أن اهتمام الولايات المتحدة بالتاريخ الإقليمى والمحلى كبير بقدر اهتمام بريطانيا به فكل الولايات لها جمعياتها التاريخية . وقد تسنى لبعضها طبع سلسلة من المطبوعات الشهيرة تدعو لها دعاية حسنة . ومن تلك: جمعيتا مساتشوستس وفرجينيا التاريخيتين .

وقد خُصصت للبلاد التاريخية مجلدات مستقلة منها الكتب المدهشة التى خصصها لفيلادلفيا علماء مبرّزون مثل هووارد د . إيرلاين ومثل (سانتافى) لبول هورجان، وفى وسع المرء أن يتلقى الكثير من التاريخ الأمريكى عن روايات كاتبة أصيلة الرأى صادقة التمييز مشبعة بالإدراك التاريخى وهى ويلا كاثر . فاقرأ لها « الموت يحضر رئيس الأساقفة » عن الجنوب الغربى الإسبانى و « ظلال على الصخر » عن كويبك و « حبيبتى أنطونيا » لنبراسكا و « سابفيرا » والفتاة الأمة عن فرجينيا .

وإذا ابتغيت قصة عن طريق عامة شهيرة فاقرأ « الطريق العامة رقم ٤٠ »

لجورج د . ستيوارت . وإنه لينبغى إعداد الكثير من هذا النوع من القصص ومن التاريخ لأشهر السكك الحديدية والطرق العامة الأخرى والأنهار التاريخية . ومن الحكايات الاتباعية (أى الكلاسية) عن طريق عامة شهيرة عبر القارة « محاكمة أوريجون » لباركمان الذى تجرى فى كتبه كلها العصارة المغذية ،فهو أكثر المؤرخين الأمريكيين أصالة وابتداعاً . ثم يجىء — فى مرتبة لا تقلّ كثيراً — پرسكوت بكتابيه « فتح المكسيك » و « فتح بيرو » اللذين ظلا نضرين شائقين كشأنهما وقت كتابتهما ، أما هنرى آدامز فهو — بوصفه مؤرخاً — باحث فاحص محب للاستطلاع . وكتابه « تربية هنرى آدامز » كتاب عبقرى وكذلك « جبل سان ميشيل وشادتر » . أما تاريخه عن إدارات ماديزون ومنرو فقد تميز بتحيز لا يجدر بشخص يعد نفسه أكثر موضوعية من غيره .

وهناك ثلاث قواعد ذهبية فيما يبدو لي :

١ — افتح عينيك دائماً .

٢ — اكتب مذكرات .

٣ — اقرأ الكتب الملائمة .

وقد عالجت أولى تلك القواعد . والثانية تتضمن الثالثة . ويجب أن أفصل فن كتابه المذكرات . وليس من الكتب وحدها يكتب المرء مذكراته . بل إنه قد يكتبها من المحاضرات أو من أشياء يراها ويلاحظها ، وإذا رغبت فى أن تعلم نفسك التاريخ فعليك دائماً بحمل كراسة لتدوين المذكرات فى يدك أو بوضع واحدة صغيرة فى جيبك ، وفى الكراسة تقيد الأشياء الهامة التى ترغب فى تذكرها . وقد تكون هذه الأشياء نقشاً على أثر من الآثار أو تاريخاً مفيداً (ولم يكتب فى هذا الكتاب

شىء عن التواريخ الزمنية التى هى « بعبع » فترة ما قبل التاريخ) وربما تـكون مبنى أو شيئاً قد تود تذكر مظهره أو اسم كتاب أو عبارة منقولة يستشهد بها أو فقرة تعجبك أو شرحاً أو رسماً أو صورة فى معرض ، ولتتعود على زيارة معارض الصور وارتياد المتاحف كلما أمكنك ذلك . فهى تتيح معلومات مقتضبة متتابعة سريعة عن التاريخ ، وما محتوياتها غير جزء من حياة الماضى وخزائن من الـكنوز يقذفها مدّ الزمن .

وفن كتابة المذكرات من المحاضرات هو بعينه فن كتابة المذكرات من الـكتب. والنقطة البارزة هى تدوين بواعث الأشياء . ومن السهل تدوين مذكرات أكثر مما ينبغى لك . ولقد دون منها اللورد أكتون قدراً مفرطاً فى الـكبر إلى حد أنه لم يستطع على الإطلاق أن يداوم الـكتابة وإلى حد أن محاضرته الافتتاحية صارت كابوساً من العبارات المنقولة المستشهد بها . ومثل هذا التصرف يجعل المرء يستشعر ، فى وقت ما ، أن شخصاً ما قد فـكر فى كل شىء . وسوف تجد أنك ، فى قراءتك الأولى ، فى حاجة إلى أن تكتب من المذكرات أكثر مما قد يلزمك منها فيما بعد . وسوف تجد ، أول الأمر ، أن الـكثير مما تقرأ جديد عليك وأنك فى حاجة إلى استظهاره ، ولـكنك بعد ذلك ، كلما اتسعت قراءتك برزت الصورة واضحة أمام عينيك — وأنت مدركٌ حيناً وغير مدرك حيناً — وعندئذ يتوافر لك رصيد من المعلومات فلا ينبغى لك عندئذ من المذكرات إلا القليل وستـكون إذ ذاك قد توفرت فعلاً على كثير من الفائدة فلا تدون من المذكرات إلا الجديد . وعلى أساس ما سبقت لك قراءته مضافاً إليه حسن إدراكك قد تستطيع مع الوقت أن تنقد بنفسك ما أنت قارئ . ومن المفيد ، عنــد البداية ، أن تحاول تلخيص فحوى كل فقرة

تقرؤها ، فى جملة واحدة أو فى جملتين على الأكثر ، ومن المفيد ، فوق ذلك ، أن تدون بالحرف الواحد ، أى فقرة أو عبارة تسترعى النظر .

بقيت كلمة عن الكتب التى تنبغى لك قراءتها : من أهم المهم دائماً قراءة أحسن الكتب التى يمكن أن تقع تحت يدك فى الموضوع التى تود قراءته . على أن المبتدئين لا يكادون يدركون الأهمية الكبرى لذلك . ولكنك قد تتلقى ، فى مبحثك ، رأياً بالغ الخطأ ، هذا إذا بدأت تبنى فوق أساس خاطئ ، وأن كثيراً من الهراء الذى ينسبه للتاريخ أناس لا يعرفون ، مصدرُه قراءتهم الضئيلة — عن الموضوع — خذ مثلاً الأفكار السخيفة الشائعة عن هنرى الثامن والملكة إليزابيث ، وأنصحك بأن تقرأ سيرة هنرى لمؤلفها أ . ف . پولارد وبألا تقرأ كتاب فرانسيس هاكيت كما أنصحك بأن تقرأ « الملكة إليزابيث » للسير جون نيل و « إليزابيث العظمى » لإليزابيث جنكنز وبألا تقرأ عنها ما كتبه بيلوك أو تيودور مينارد ، وفى هذا المجال يستطيع المثقفون والمحاضرون أن يفيدوك أكبر الفائدة . وذلك بإرشادك إلى خير ما ينفع من الكتب . ومهما يكن فالقراءة ينبغى لك أن تقوم بها بنفسك . ولكن إذا اعتمدت على نفسك دون مرشد ، كما قد يفعل الكثيرون ، فلا محل لأن تضيق أو تيأس لأنك بمجرد أن تضع قدميك على القراءة السوية ، ستكون لنفسك من المعلومات الواقعية النافذة ما يرشدك إلى الخطأ والصواب .

ولقد يتبادر إلى الأذهان أنى ، على هذا المنوال ، لم ألق بالاً إلي تاريخ البلاد . كلا ثم كلا . فلقد ظل يراود ذهنى الوقتَ كله . وإن الفكر الثقافى عند أواسط الناس بل عند نجبائهم — كما قلت — ليتقيد ، إلى حد بعيد ، ببلاد كل منهم ، فالمرء لا يعير لغات الآخرين وثقافتهم اهتماماً وثيقاً فى الصميم . وإذن فتاريخ بلاده يستحوذ على جل اهتمامه إلى درجة أنه يشعر بحاجته إلى البدء باستكمال تلك الصورة .

وربما يغتفر لى أن أقترح اتخاذ كتابى « مغزى التاريخ الإنجليزى » مقدمة إذ إنه يتوخى أشد ما يكون الإيجاز . وما هو إلا مقدمة . نعم إنه جُماع ما يخلص إليه تاريخنا وبيان لتطوره على المنوال الذى جرى عليه والذى يخالف ما يجري فى بلاد أخرى. فلا بد من أن يتبع بكتاب أكبر ذا أفق أوسع مفصل التناول. وخير كتاب هو « تاريخ إنجلترا » لمؤلفه ج . م . تريفيليان . ويحسن أن يتبع هـذا بكتاب ج. أ. وليمسون « بريطانيا العظمى الإمبراطورية » ، فإذا بلغ المرء هذه المرحلة وسعه أن يبلغ الكمال بكتاب تريفيليان « التاريخ الاجتماعى الإنجليزى » .

ولقد يخال المرء نفسه آمناً إذا خاض الآن فى اتباعيات الكتابات التاريخية لماكولى وكارليل وفرود ولكلارندون وهيوم وجيبون . ولكن الأوان لم يحن بعد ، فتلك غالباً ما تتناول عصوراً معينة . ومن الخير التوفر على فكرة عن تلك العصور أولاً عن طريق المنح الدراسية للتضلع. وعندئذ يكون أفقك أصفى وفى وسعك أن تسقط من الحساب انحيازها وملاحظة تحاملها بلا مبرر والتحرز من أخطائها . مثال ذلك : فى صدر القرن السادس عشر عليك أن تقرأ كتب فيشر وبولارد التى طبعها الناشر لونجمان ضمن مجموعة تاريخ إنجلترا وعليك أن تقرأ معها كتابى « إليزابيث » لمؤلفه (نيل) و « عصر دريك » لوليامسون . ومن ثم تستطيع أن تنتقل إلى « تاريخ إنجلترا » لفرود . وكذلك الحال بالنسبة للقرن السابع عشر : فاقرأ أولاً « إنجلترا تحت حكم آل ستيوارت » لتريفليان و « الأخيرين من ملوك آل ستيوارت » للسير جورج كلارك ضمن المجموعة الجديدة من « مؤلفات أكسفورد فى تاريخ إنجلترا » و « إنجلترا تحت حكم الملكة آن » لتريفليان . ثم استطرد إلى ماكولى .

ولقد يُظن أن هذا توجيه هيّاب إذ إن كبار المؤلفين على كل حال ، عليهم أن

يبرزوا من المواهب ما يفوق كثيراً ما يستطيعه صغارهم : كالمقدرة الخيالية والمواهب الأدبية اللتين يساعدانهم على أن يخلقوا من جديد ، بينما لا يزيد غيرهم على أن يتشدوا وراء الحقائق لعلهم يلقون نظرة أعمق على طرائق الناس ويظفرون بمعلومات أوفى عن العالم ، وعلى الجملة لعلهم ينشدون العبقرية . ثم إنهم كذلك لا يخشون من أن يجهروا بما يضمرون . وأنا هنا إنما أحسب حساب المبتدئين ، وسيقوى فيما بعد على أن يقرأ الاتباعيات بفهم أعمق ، لأنه يحتــاج أول الأمر إلى من يبصره بالتحيز والتحامل اللذين يبديهما كاتب من الـكتاب .

وإذا اتخذت مثلاً جيبون أعظم مؤرخي الإنجليز وجدت فيه عيبين . إنه لا يستطيع أبداً أن ينصف المسيحية ومآثرها ، وأولها تمدين البربر لأنه لم يستطع أن يتقبل ادعاءاتها الإعجازية . وإن مؤلف « تأخر الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » ليغتنم كل فرصة ليزرى بسمعة الـكنيسة ومشايعيها وليلقي عليهم ضوءاً يعرضهم للسخرية : إن نظرته تنم على ملاحظات خبيثة وانحرافات ممضة ودعابات مريبة ونخس كوخز الإبر . إنه حلو الدعابة والمكر ولـكنه من الناحية التاريخية البحتة ، مفزع مخوف . وكان عليه أن يكون منصفاً خالياً من الغرض لا أن يستخدم ما أوتى من مقدرة ودعابة ضد المسيحيين . وإن امتناعه عن الأطناب فى حسناتهم بقدر ما أطنب فى سيئاتهم . وفى مآثر الـكنيسة المذهلة إلى جانب إطنابه فى سيئاتها ووجوه خيبتها لهو فى ذاته عمل غيرتاريخي . ثم إنه بالمثل بعيد عن الإنصاف بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية التى كانت لها منجزات لم يتنبه لها (جيبون) . إنها ظلت ألف سنة رابضة تلقاء باب المدنية الأوربية تحرسه من غزو الأتراك ولم يكن هذا البـاب ليسقط لولا أن أوهنه اجتياحُ الغرب المخزى فى الحرب الصليبية اللاتينية . ولقد حاقت بجيبون روح شريرة — ولم يكن ذلك بلا مبرر — بسبب حماقة الجنس البشرى .

فلقد ظن أن « التاريخ هو بكل تأكيد أكبر من أن يكون سجلاً لجرائم الجنس البشرى وحماقاته » . وماهذا غير جانب واحد من جوانب الصورة . وأكثر الصور التى ترسمها هى من تظليل القرن الثامن عشر ، الجلىّ منه والقاتم . وهو لم يدرك منجزات الإنسان الروحية . وليس لهذا من معنى إلا أنه كان طفل عصره المدلل ، عصر التثقيف والشكّية والأمل الكاذب . ومهما يكن فعيوبه لا تقاس بمواهبه ومناقبه . وقراءته تعد تربية قائمة بذاتها .

فإذا انطبعت فى ذهنك صورة عامة للتاريخ الإنجليزى وسعك أن تنشعب إلى شعبتين . فأنت تستطيع من ناحية أن تبتلع ، فى تفصيل أكبر ، عصور التاريخ الإنجليزى وموضوعاته التى تشوقك . وتستطيع من ناحية أخرى أن تستهدف التوفر على بعض المعلومات عن تاريخ أوروبا العام . فإذا سرت مع الثانية مسافة من الطريق ووعيت فى ذهنك مجملاً متيناً كان من الخير أن تؤلف بين الاثنين إلى حد ما . ولنوضح ذلك بالتمثيل له . وإن كتاب « تاريخ أوروبا » لمؤلفه هـ. أ. ل. فيشر ليقدم إليك مجملاً طيباً لحكاية المدنية الأوربية ابتداء من بلاد الإغريق القديمة فصاعداً . وقد يكون هذا الكتاب أنسب مقدمة ، حرة الرأى ، قديمة الطراز رحيمة. وأظن أن من المرغوب فيه كذلك الوقوف على معنى ما قبل التاريخ : فاقرأ كتاب السير جون مايزر الصغير الممتاز « فجر التاريخ » واقرأ كتابين من كتب جوردون تشايلد « المرء يصنع نفسه » و « ما جرى فى التاريخ » ويستحسن أن تتبع تلك بكتاب أو كتابين يلمان بعصور كاملة : « روما » لوارد فاولر و « صنع العصور الوسطى » لمؤلفه ر. و. ساذرن و « النهضة العلمية الأوروبية » لمؤلفه ج. هـ. بلام و « القرن السابع عشر » للسير جورج كلارك و « الحرية والنظام فى القرن التاسع عشر » لبرتراند رسل . ويسعك بعد ذلك أن تتناول قدراً أكبر من التفاصيل عن

عصر من العصور . وأنا أوافق (برى) على أنه مما يهم الناس بوجه أخص أن يعرفوا شيئاً عن أحدث عصور التاريخ ، ذلك العصر الذى يهىء لنا خلفية لحوادث اليوم والذى يسيطر على حياتنا . وهذا هو ملتقى الشطين : وعليك وأنت تقرأ التاريخ الإنجليزى أن تصل بينه وبين التاريخ الأوربى والمحيط العالمى .

والجزء الأخير من « مجموعة أكسفورد التاريخية » الذى ألفه د. ك. ك. إنسور عن « إنجلترا من ١٨٧٠ إلى ١٩١٤ » دراسة ممتازة للأحداث التى سبقت عصرنا . وهو مستحث القارىء فى كل موضع واسع مدى الإحساس ، جديد التفكير ، مبتدع أصيل . وليس فى وسع أى امرىء أن يقاوم فتنة التاريخ إذا كتب على هذا المنوال . أما فى صدد القرن كله فهناك « التاريخ البريطانى فى القرن التاسع عشر » لتريفليان . وهذه الكتب التى تنبىء بما كان يجرى هنا ينبغى أن تقرأ جنباً إلى جنب مع تلك التى تصف الحوادث فى الخارج ، سواء فى أوروبا أو غيرها . وفى صدد فرنسا اقرأ « تطور فرنسا الحديثة » لمؤلفه د.و. بروجان . واقرأ فى صدد ألمانيا « مجرى التاريخ الألمانى » لمؤلفه أ . ج . ب تيلور . وكلاهما مستقل الرأى ، قاطع ، وإن يكن مثيراً مستفزاً . وفى صدد روسيا اقرأ « تخطيط للتاريخ الروسى » لمؤلفه ب . ه . سمز . وهذا الكتاب أقرب إلى الصعوبة لأنه محاولة ابتداع منهج جديد فى قراءة التاريخ من واقع الحالة الراهنة مع الارتداد إلى ما سبقها رويداً رويدا . على أنه مع ذلك تناول شديد الإنصاف ، وفى صدد الولايات المتحدة اقرأ « التاريخ الموجز للولايات المتحدة » لمؤلفه ألان نيفن ثم انتقل إلى بحث موريسون وكوميدجار النفيس « نمو الجمهورية الأمريكية » . وفى صدد الخلفية الأوروبية بشكل عام أود أن أقترح كتاب جروتشى « تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر وكتاب أليزون

فيليس « أوروبا الحديثة » . وقد يلتقى هذان المستويان التقاء مفيداً فى كتاب ر.و. سيتون واطسن « بريطانيا فى أوروبا من ١٧٨٩ إلى ١٩١٤ » .

وإنك لتستطيع من الآن فصاعداً ، بعد أن تأتّى لك هذا المنوال التاريخى العام ، أن تملأه ، حيثما راقك أن تفعل فى أوفق ملاءمة وذلك بقراءة سير تاريخية. وباتباع منوال كهذا تصبح فى مأمن من الخروج على الترتيب التاريخى أو على التناسب فى الأفق البصرى العام. ومهما يكن فهناك علاج ، وهو قراءة السير التاريخية المتضاربة من ناحيتيها : سترافورد مع كرومويل ، وهاملتون مع جيفرسون ، وجلادستون مع دزرائيلي ، ولنكولن مع جفرسون ديفز وروبرت أ. لى ، وستالين مع تروتسكى . ولأقدم فقط قليلاً من الأمثلة . فلننظر إلى نابليون : فى هذه الحالة ليس أفضل من البدء بكتاب « نابليون » الصغير النفيس لمؤلفه هـ . أ . ل . فيش ثم الانتقال منه إلى السيرة النموذجية التى كتبها فورنييه فى جزئين . ولكن عليك أن تدخل فى الحساب نقاده ومعارضيه كذلك . وإذن فاقرأ أيضاً « تاليران » لدوف كوبر و « ميترنيخ » لألجرنون سسل و « وليم بيت » لهولاند روز . ثم انتقل إلى « تاريخ الثورة الفرنسية » لماثييز وإلى «الثورة الفرنسية » لمؤلفه ج. م. تومسون . وعليك أن تختم قراءتك بالكتاب الاتباعى (أى الكلاسى) « أوربا والثورة الفرنسية » لسوريل .

وإذا أردنا العود إلى القرن التاسع عشر ففى وسعك أن تبدأ بكتاب « الملكة فكتوريا » لليتون ستراتشى و « الدوق » لفيليب جيدالا وكتابه « بالمرستون » وأن تنتقل بعد ذلك إلى « انجلترا فى العهد الفكتورى الباكر » لمؤلفة ج.م. يونج و « دزرائيلى » لمونيبنى وباكل و « جلادستون » لمورلى .

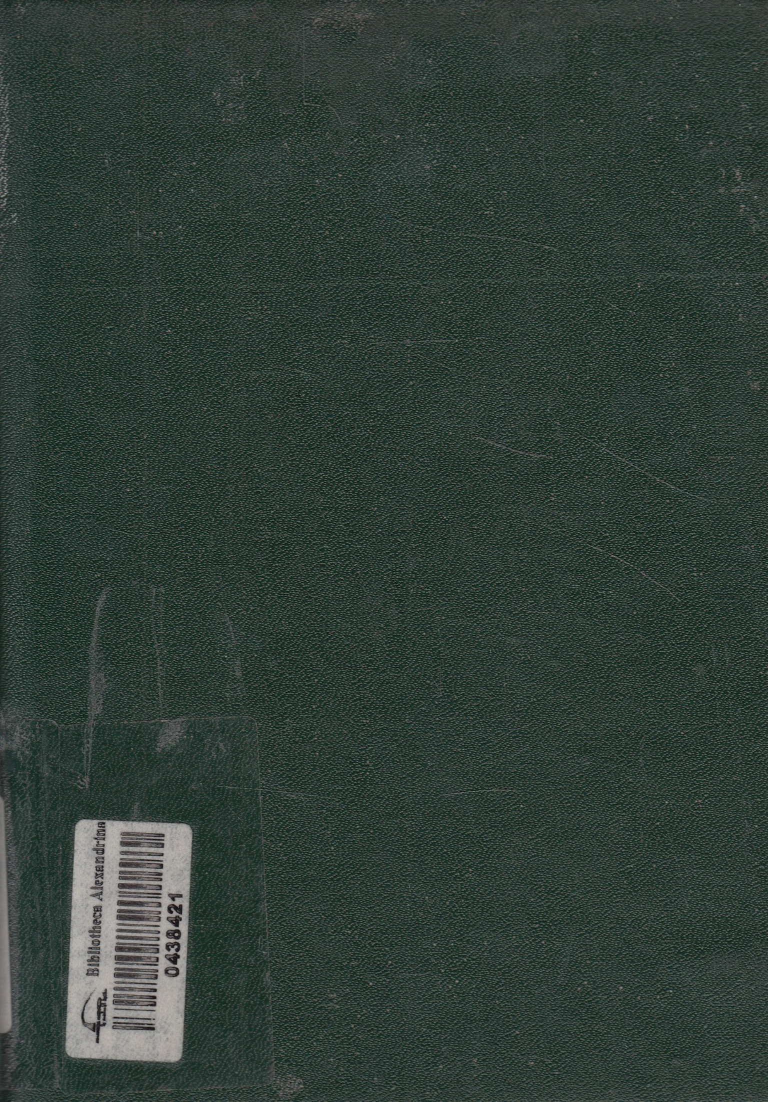
لقد اقترحت الآن من السير أكثر مما يلزم . وعذرى : أن هذه إن هى إلا نماذج لمنهج القراءة التاريخية . وقد أشرت إلى ما يكفيك لكى تبدأ سبيلك . وعليك أن تعد نفسك الآن للمضىّ فى دراستك . وستجد فى هذه الكتب قوائم بأسماء الكتب ومؤلفيها وتاريخ نشرها ومصادرها كما تجد أسماء المراجع التى يجدر بك الرجوع إليها أياً كان موضوع بحثك وستكون عندئذ قد نميت ، من دون أن تشعر فى الغالب ، حاسة فقد تعينك على الانتقاء والاختيار . وستمسى فى حاجة إلى ذلك وقتما تحيط بأعمال ضخمة شائعة المسئولية كمجموعة تواريخ كمبردج القديمة منها والوسطى والحديثة ، ويذكر فيها مجموعة كمبردج لتاريخ الإمبراطورية البريطانية ولتاريخ السياسة البريطانية الخارجية . وأهم ما يقال فى صدد تلك الكتب أن أحداً لاينتظر منك قراءتها من أولها إلى آخرها ، فهذا مالا يقدر عليه أحد . وإنما عليك أن تنتقى الفصول التى توائم موضوعك ، وهى من حيث النوع ، كثيرة التباين . ولقد تعلمت فى الواقع كيف « تستخدم » الكتب وكيف تقرؤها للمتعة .

والبحث عن الكتب التى تبتغيها ، فى حد ذاته ، مسرة يزيدها الأمل فى العثور عليها ويرهفها استفزاز الإخفاق فى ذلك . ولذة جمع الكتب لذة معترف بها تحظى أحياناً بالتكريم . فأى سعى هو أهنأ من الدبيب إلى محال بيع الكتب ؟ إنها لذة تعقب شيئاً كثيراً يبرزه المرء آخر الأمر ؟ مكتبة عامرة ، وعقلاً عامراً فيما أرجو.

أما فى صدد البحث التاريخى ، بمعنى الكلمة البحت ، فإنى لم أبدِ عنه من الكلام المباشر إلا القليل . فهذا موضوع قائم بذاته عليه سجايا بالتخصص . وهناك مستويات للعمل تستطيع الرجوع إليها لاستيفاء موضوعك مثل « مقدمة لدراسة التاريخ » للأنجلوا وسنيوبوس و « التاريخ والبحث التاريخى » لمؤلفه ك ج. كرمب.

ولمؤسسة S.P.C.K. مجموعة عظيمة من الكتيبات شعارها « تسهيلات لطلاب التاريخ» . وقد نفدت تلك مع الأسف، وربما يستطاع الحصول عليها مستعملة . على أنى فى صـــدد كتابة التاريخ لم أقل شيئاً قط . فإذا ابتغيت مسراتها واستثاراتها ــ اللطيفة الخفية البسيطة المقنعة فإنى أحيلك على تحفة جيبون التى تكشف هذا المبحث وتميط اللثام عنه « كتابة السير الشخصية » .

وفى الحق أن كتابة التاريخ ـــ والتوسل إلى تيسيره بالبحث التاريخى وكيفية تناوله ـــ تحتاج إلى كتاب قائم بذاته .


Bibliotheca Alexandrina
0438421